مجتمع الاستعراض

مع

تعليقات عليه

وتصدير الطبعة الإيطالية الرابعة

تأليف: جي ديبور

ترجمة: أحمد حسان

مجتمع الاستعراض

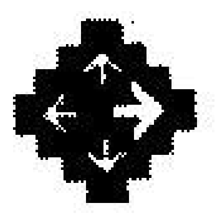
مع

تعليقات عليه

وتصدير الطبعة الإيطالية الرابعة

تأليف: جي ديبور

ترجمة: أحمد حسان



دار شرقيات للنشر والتوزيع

هذه ترجمة كاملة لكتاب "مجتمع الاستعراض"

La Société du Spectacle

تليها ترجمة كاملة لكتاب "تعليقات على مجتمع الاستعراض" ١٩٨٨

Commentaires sur la Société du Spectacle

و

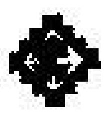
تصدير الطبعة الإيطالية الرابعة من "مجتمع الاستعراض" ١٩٧٩

Préface à la quatriéme édition italienne de "La Société du Spectacle"

Gallimard 1992

تأليف: جي ديبور Guy Debord

ترجمة: أحمد حسان



دار شرقيات للنشر والتوزيع

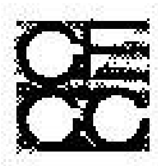
٥ ش محمد صدقي، هدى شعراوي

الرقم البريدي ١١١١١ باب اللوق، القاهرة

ت ٣٩٠٢٩١٢ فاكس: ٣٩٣١٥٤٨ ص.ب ٢٦٩١٩٨

تصميم الغلاف: محمد فتحي

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع



المركز الفرنسي
للثقافة والتعاون العلمي
قسم الترجمة والنشر

تقديم هذه الطبعة

بقلم المترجم

في أواخر عام ١٩٦٧ صدر من تأليف جي ديبور كتاب " مجتمع الاستعراض ". وفي عام ١٩٩٤ نشرت دار شرقيات، من ترجمتي، طبعة عربية للكتاب وضع لها الناشر عنوان " مجتمع الفرجة "؛ وفرضت ظروف، أهمها نقص المواد المتعلقة بالموضوع وصعوبة الحصول عليها حينئذ، أن يصدر الكتاب مشوبا بعيبين رئيسيين: فقد صدر ، أولا، دون تقديم يضعه في سياق المناخ الفكري الذي انبثق عنه - حركات الطليعة الراديكالية التي تواصلت حلقاتها منذ أوائل القرن وبلغت ذروتها بالالتقاء بحركة التمرد المدني الواسعة عام ١٩٦٨ - ويربط بينه وبين الحركة الفنية والفكرية التي أصبح بمثابة بيانها النظري، أعني: الأممية المواقفية، التي كانت عدة جماعات طليعية قد أعلنت قيامها عام ١٩٥٧. ثانيا، لم يتضمن الكتاب "مقدمة الطبعة الإيطالية الرابعة" التي كتبها ديبور له عام ١٩٧٩ ولا التعليقات التي كتبها ديبور عام ١٩٨٨.

والكتاب الحالي تدارك العيب الثاني. إذ يتضمن "التعليقات" و"المقدمة" اللذين أصبحا يمثلان جزءا لا يتجزأ من الكتاب، فهما يعيدان النظر فيه بعد هزيمة عام ١٩٦٨، ويحملان استنتاجاته إلى آخر الشوط.

أما عن تدارك العيب الأول، فإن المترجم يأمل أن يضع بين يدي القارئ في القريب العاجل، ترجمة لكتاب كامل لا يعد فحسب مقدمة لديبور أو المواقفية، بل كذلك تكون قراءة في حركات الطليعة الأوروبية حتى المواقفية، وما يتلوها من كتابات ما بعد الحداثة.

المترجم مدين بخالص الشكر

للصديق الشاعر ياسر عبد اللطيف

على تفضله بمراجعة النصين الجديدين:

"التعليقات على مجتمع الاستعراض"

و"تصدير الطبعة الإيطالية الرابعة".

(١)

الانفصال المُكْتَمِل

"ولا شك أن عصرنا ... يُفضِّل الصورة على الشيء،
النسخة على الأصل، التمثيل على الواقع، المظهر على
الوجود ... وما هو مقدس بالنسبة له، ليس سوى الوهم، أما
ما هو مُدنَّس، فهو الحقيقة. وبالأحرى، فإن ما هو مقدس
يكبر في عينيه بقدر ما تتناقص الحقيقة ويتزايد الوهم،
بحيث أن أعلى درجات الوهم تصبح بالنسبة له أعلى درجات
المقدس."

فويرباخ

(مقدمة الطبعة الثانية
من جوهر المسيحية)

(١)

في المجتمعات التي تسود فيها شروطُ الإنتاج الحديثة، تُقدِّمُ الحياةُ نفسَها بكاملها على أنها تراكمٌ هائلٌ من الاستعراضات.(*) كلُّ ما كان يُعاشُ على نحوٍ مباشرٍ يتباعدُ متحولاً إلى تمثيل représentation.

(٢)

الصُّوَر التي تنفصل عن كلِّ مجالٍ من مجالات الحياة، تندمجُ ضمنَ تيارٍ مشتركٍ، لا يعودُ ممكناً فيه استعادةُ وحدة هذه الحياة من جديد. الواقعُ المأخوذ جزئياً يتكشَّفُ في وحدته العامة ذاتها عن كونه عالماً - زائفاً على حِدَة، موضوعاً لمجرد التأمل. يجدُ تخصصُ صورِ العالمِ نفسه، مُتحقِّقاً، في عالمِ الصورةِ المستقلة، حيث يكونُ الكاذب قد كَذَبَ على نفسه. إن الاستعراض عموماً، بوصفه قلباً عينياً للحياة، هو الحركة المستقلة لما ليس حياً.

(٣)

يُقدِّم الاستعراض نفسه في آنٍ واحدٍ بوصفه المجتمعَ ذاته، وبوصفه جزءاً من المجتمع، وبوصفه أداة توحيد. وبوصفه جزءاً من المجتمع فإنه بالتحديد هو القطاع الذي تتركَّزُ فيه كلُّ نظرةٍ وكلُّ وعي. ونظراً لحقيقةِ أن هذا القطاعَ منفصلٌ، فإنه موضعُ النظرةِ المخدوعةِ والوعي الزائف؛ والتوحيد الذي يُحقِّقُهُ ليس سوى لغةٍ رسميةٍ للانفصالِ المُعَمَّم.

(*)هذا الكتاب، الذي كان طليعةً مبكرة لتيار عريض ومتنوع من الكتابات، يحاول، كما سيلاحظ القارئ أن يستولد من الأفكار الماركسية الكلاسيكية عن المجتمع الرأسمالي مفهوماً جديداً لم تكن تلك الأفكار تتضمنه، هو مفهوم«الاستعراض»، الذي طلب الناشر وضعه على الغلاف تحت اسم«الفُرجة»، سعياً للتبسيط. وطبيعي أن تنطوي محاولة توليد مفهوم جديد على قدر واضح من صعوبة الأسلوب سيناقشها الكاتب في حينه، لكنها هنا تتميز بقدر كبير من النفاذ في تلمس مختلف جوانب هذا المفهوم. ويقيننا أنَّ القارئ، الذي سيتابع مناقشة الكاتب حتى النهاية سيصل الى إدراكه في تعقيده وشموله. هذا المفهوم يُدخل في المنظومة الكلاسيكية التي ترتكز على مقولات اقتصادية بعداً جديداً لاتستطيع المقولات الاقتصادية الصرف الإمساك به، وقد سعى المفكرون اللاحقون إلى تطويره، كلٌ من زاويته. ومن هنا أهمية الكتاب الذي يمثل حلقة وسيطة بالغة الأصالة بين المفاهيم النقدية الكلاسيكية وبين المفاهيم الراهنة التي تطوّر نقداً وتوصيفاً شاملين للمجتمعات الرأسمالية المتقدمة. - المترجم.

(٤)

ليس الاستعراض مجموعةً من الصور، بل علاقة اجتماعية بين أشخاص، تتوسط فيها الصور.

(٥)

لا يمكن فهمُ الاستعراض على أنّه إساءةُ استخدام عالم الرؤية، على أنه نتاج لتقنيات التعميم الواسع للصور. إنه، بالأحرى، رؤيةٌ للعالم Weltanschauung صارت فعليةً، وجدت ترجمتها المادّية. إنها رؤية للعالم صارت متشيّئة objectivée.

(٦)

الاستعراض، مفهوماً في كليّته، هو في آنٍ واحد نتيجةٌ ومشروعُ نمطِ الإنتاج الراهن. ليس ملحقاً للعالم الواقعي، وليس ديكوراً إضافياً له. إنه لبُّ لا واقعية المجتمع الواقعي. في كل أشكاله النوعية، سواءٌ كانت المعلومات أو الدعاية، الإعلان أو الاستهلاك المباشر للتسلية، يُشكّل الاستعراض النموذج الراهن للحياة السائدة اجتماعياً. إنه التأكيد الكلّي الحضور للاختيار الذي تمّ اتّخاذه فعلاً في الإنتاج والاستهلاك المنبثق عنه. وشكل ومضمون الاستعراض هما، على نحو متطابق، التبرير الكلي لشروط وغايات النظام القائم. والاستعراض هو أيضاً الحضور الدائم présence permanente لهذا التبرير، حيث أنه يحتلّ الجزءَ الأكبر من الوقت المُعاش خارج الإنتاج الحديث.

(٧)

يُشكلُ الانفصالُ جزءاً من وحدة العالم، من البراكسيس الاجتماعي الشاملِ المنقسم إلى واقع وصورة. والممارسة الاجتماعية التي يقف في مواجهتها الاستعراضُ المستقلُ، هي كذلك الكليّة الواقعية التي تتضمّن الاستعراض. لكن الانقسام في هذه الكلية يمزّق أوصالها إلى حدٍ يجعل الاستعراض يبدو وكأنه غايتها. وتتكوّن لغة الاستعراض من علاماتٍ signes للإنتاج السائد، هي في نفس الوقت الهدف النهائي لهذا الإنتاج.

(٨)

ليس بالإمكان إقامة تعارض تجريدي بين الاستعراض وبين النشاط الاجتماعي الفعلي؛ فهذا التقسيم الثنائي هو نفسه منقسم ثنائياً. فالاستعراض الذي يقلب ما هو واقعي هو في الحقيقة نتاج. وفي نفس الوقت فإن الواقع المُعاش مُشبّعٌ مادياً بتأملِ الاستعراض، ويكتسب هو نفسُه النسقَ الاستعراضيَ مانحاً إياه تماسكاً إيجابياً. الواقع الموضوعي موجود، على كلا الجانبين. وكلُ مقولةٍ مثبّتة على هذا النحو ليس لها من أساسٍ سوى انتقالها إلى النقيض: فالواقع ينبثق داخل الاستعراض، والاستعراض واقعي. هذا الاستلابُ المتبادلُ هو جوهرُ ودعامةُ المجتمع القائم.

(٩)

في العالم المقلوب واقعياً رأساً على عقب، يكون ما هو حقيقي لحظة من لحظات ما هو

زائف.

(١٠)

يوحّدُ مفهوم الاستعراض ويُفسِّرُ تنوعاً هائلاً من الظواهر المُتبدِّية apparents. وتنوعاتها وتعارضاتها هي تبدِّيات هذا التبدِّي المنظَّم اجتماعياً، والذي يتوجب الإقرار به هو نفسه في حقيقته العامة. والاستعراض، مأخوذاً وفق شروطه الخاصة، هو تأكيدُ التبدِّي وتأكيدُ كلِّ حياةٍ إنسانية، أي اجتماعية، بوصفها مجرد تبدِّي. لكن النقد الذي يصل إلى حقيقة الاستعراض يكشفُ أنه النفي المرئي للحياة؛ أنه نفي للحياة أصبح مرئياً.

(١١)

من أجل وصف الاستعراض، تكوينه، ووظائفه، والقوى التي قبل إلي تصفيته، يجب التمييز بطريقة مصطنعة بين عناصر لا تقبل الانفصال. وعند تحليل الاستعراض، يتحدث المرء، إلى حد معيَّن، نفس لغة ما هو استعراضي، بمعنى أنه يتحرك داخل المجال المنهجي لهذا المجتمع الذي يعبِّر عن نفسه في الاستعراض. الا أن الاستعراض ليس سوى معنى الممارسة الكلية لتشكيلة إجتماعية - اقتصادية، ليس سوى استخدامها للزمن. إنه اللحظة التاريخية التي تضمّنا.

(١٢)

يقدّم الاستعراض نفسه بوصفه أمراً إيجابياً هائلاً لا يقبل الجدل ولا يمكن بلوغه. إنه لا يقول سوى أن «ما يتبدى جيدٌ، وما هو جيدٌ يتبدى». والموقف الذي يتطلبه من البداية هو هذا القبول السلبي الذي أحرزه فعلاً بواسطة طريقته في التبدي دون جواب، بواسطة احتكاره للتبدي.

(١٣)

ينبع طابع تحصيل الحاصل العميق للاستعراض من الحقيقة البسيطة لكون وسائله هي في نفس الوقت غايته. إنه الشمس التي لا تغرب أبداً عن امبراطورية السلبية الحديثة. إنه يغطي العالم برمّته ويستحم في مجده الخاص إلى ما لانهاية.

(١٤)

إن المجتمعَ الذي يقومُ على أساسِ الصناعةِ الحديثة ليس استعراضياً spectaculaire بالصدفة أو على نحوٍ سطحي، إنه استعراضي النزعة spectacliste أساساً. ففي الاستعراض، الذي هوَ صورةُ الاقتصادِ السائد، لا يعني الهدفُ شيئاً، والنموُ هو كلُّ شيء. الاستعراض لا يستهدف بلوغَ شيء سوى نفسِه.

(١٥)

بوصف الاستعراض تزييناً لا غنى عنه للأشياء التي تُنتَجُ الآن، وبوصفه خلاصةً عامةً لعقلانية النظام، وبوصفه قطاعاً اقتصادياً متقدماً يُشكِّل مباشرةً حشداً متنامياً من الأشياء - الصور، فإنه هو الإنتاجُ الرئيسيُ للمجتمع الراهن.

(١٦)

يُخضعُ الاستعراض البشرَ الأحياء بقدرِ ما يكونُ الاقتصاد قد أخضعهم تماماً. إنه لا يعدو أن يكون الاقتصادَ الذي ينموُ بذاته. إنه الإنعكاسُ الأمينُ لإنتاجِ الأشياء، والتشيىء غير الأمين للمنتجين.

(١٧)

كانت المرحلة الأولى لسيطرة الاقتصاد على الحياة الاجتماعية قد أدخلت في تعريف كل إنجاز إنساني تدهوراً واضحاً لـ الوجود l'être إلى تملك avoir. أما المرحلة الراهنة للاحتلال الشامل للحياة الاجتماعية من جانب النتائج المتراكمة للاقتصاد فإنها تقود إلى انزلاق واسع النطاق لـ التملك l'avoir إلى تبدّي paraître يجب أن يستمدَّ منه كلُّ «تملك» فعليّ مكانتَهُ الفورية ووظيفته النهائية. وفي نفس الوقت يصبح كلُّ واقعٍ فردي اجتماعياً، يتوقف مباشرةً على السلطة الاجتماعية، ويتشكل بواسطتها. ولا يُسمَحُ له بالتبدّي إلاّ بقدر مالا يكون.

(١٨)

حيث يتحوّل العالم الواقعي إلى صورٍ بسيطة، تصبح الصورُ البسيطةُ كائناتٍ واقعيةً، وحوافزَ فعالةً لسلوكٍ في حالة تنويم. والاستعراضُ، بوصفه مَيْلاً بوسائط متخصصة مختلفة، لأن يجعل مرئياً ذلك العالم الذي لم يعد يمكن الإمساك به مباشرة، هذا الاستعراضُ من الطبيعي أن يعتبر النظرَ الحاسةَ الإنسانية الممتازة التي كانها اللمس في حقبٍ سالفة؛ فهذه الحاسة الأكثر تجريداً، والأكثر قابلية لإضفاء الغموض عليها تناظرُ التجريدَ المُعمَّمَ للمجتمع الراهن. لكن الاستعراضَ لا يمكن التعرّف عليه بمجرد النظر، حتى لو ارتبط بالسمع. إنه ذلك الذي يفلتُ من نشاط البشر، يفلتُ من أن يعيد عملهُمُ النظر فيه أو يصحّحَهُ. إنه نقيض الحوارِ. وحيثما وُجِدَ تمثيل représentation مستقلّ، يعيدُ الاستعراضُ تأسيسَ نفسه.

(١٩)

الاستعراضُ هو وريثُ كل جوانب ضعف المشروع الفلسفي الغربي الذي هو إدراكٌ للنشاط، تحكُمه مقولاتُ الرؤية voir ؛ كذلك فإنه يقوم على أساس الانتشار الذي لا يتوقف للعقلانية التقنية الدقيقة التي نتجت عن هذا الفكر. إنه لا يحقق الفلسفة في الواقع، بل يفلسف الواقع. أما الحياة العينية للجميع فقد تدهورت إلى مرتبة عالم تأملي spéculatif.

(٢٠)

الفلسفةُ، بوصفها سلطةَ التفكير المنفصل، وتفكيرُ السلطة المنفصلة، لم تستطع أبداً بذاتها أن تتجاوزَ اللاهوت. والاستعراضُ هو إعادةُ البناء المادية للوهم الديني. والتقنيةُ الاستعراضيةُ لم تبدِّد السُّحُبَ الدينية حيث وضع البشرُ قدراتهم المنفصلة عنهم: لقد ربطتها فقط بقاعدةٍ أرضية. وهكذا فإن أشد الحيوات أرضيةً هي التي تصبح معتمةً وخانقة. لم تعد هذه الحياة تمتدُّ لتبلغ السماء، بل تضم في داخلها نفيها المطلق، جنتها الزائفة. الاستعراضُ هو التحقيقُ التقنيُّ لنفي القدراتِ البشرية إلى

ما وراء؛ هو الانقسامُ المكتملُ داخلَ الإنسان.

(٢١)

بقدر ما تكون الضرورةُ حلماً اجتماعياً، بقدر ما يتحول الحلمُ إلى ضرورة. والاستعراضُ هو كابوسُ المجتمع الحديث المُكبَّلِ بالأغلال، الذي لا تُعبِّر في النهاية سوى عن رغبته في النوم. الاستعراضُ هو حارسُ هذا النعاس.

(٢٢)

إن حقيقة أن القوةَ العملية للمجتمع الحديث قد انفصلت عنه، وشيَّدت إمبراطوريةً مستقلةً في الاستعراض، هذه الحقيقة لا يمكن تفسيرها الا بتلك الحقيقة الأخرى المتمثلة في كون هذه الممارسة القوية قد ظلت تفتقر إلى التماسك، وظلت في تناقض مع نفسها.

(٢٣)

في جذرِ الاستعراضِ يكمنُ أقدمُ تخصُّصٍ اجتماعي، ألا وهو تخصصُ السلطة. لذا فإن الاستعراض هو نشاطٌ متخصصٌ يتحدث باسم مجموع الاخرين. إنه التمثيلُ الدبلوماسي للمجتمع المراتبي لدى نفسه، حيث يكون كلُّ حديثٍ آخر محظوراً. هنا نجد أن أشدَّ الأمورِ حداثةً هو أيضاً أشدُّها قدَماً.

(٢٤)

الاستعراض هو الخطاب المتصل للنظام القائم عن نفسه، هو مُنولوجه التقريظي. إنه الصورة الذاتية للسلطة في حقبة إدارتها الشمولية لشروط الوجود. والتبدِّي الصنمي للموضوعية الخالصة في العلاقات الاستعراضية يخفي طابعها كعلاقة بين البشر وبين الطبقات: يبدو أن طبيعةً ثانية تُحكِمُ بقوانينها القاتلة بيئتنا المحيطة. لكن الاستعراضَ ليسَ هذا النتاجَ الضروري للتصور التقني منظوراً إليه بوصفه تطوراً طبيعياً. فمجتمع الاستعراض، على العكس، هو الشكلُ الذي يختارُ محتواه التقنيَ الخاصَ. والاستعراضُ، مأخوذاً بمعناه الضيق ليعني «وسائل الاتصال الجماهيرية»، التي هي تبدِّيه السطحي الأشدُّ بريقاً، إذا كان يبدو أنه يتغلغل في المجتمع كمجرد أداة، فليست هذه الأداة محايدةً على الإطلاق، بل إنها نفسُ الأداة التي تلائم حركتَه الذاتيةَ الكلية. وإذا كانت الاحتياجات الاجتماعية للحقبة التي تتطور فيها تلك التقنيات لا يمكن إشباعها إلاّ من خلال تَوَسُّط تلك التقنيات، وإذا لم يعد من الممكن ادارةُ هذا المجتمع أو إقامة أي اتصال بين البشر الاّ من خلال وسيط هو قوة الاتصال الفوري هذه، فهنا يرجع إلى أن هذا «الاتصال» أحادي الجانب من الناحية الأساسية بحيث أن تركز «الاتصال» يعودُ ليراكمَ في أيدي إدارة النظام القائم الوسائل التي تمكّنه من مواصلة هذه الإدارة المحدَّدة. إن الانقسامَ المُعمَّم للاستعراض لا ينفصلُ عن الدولة الحديثة، أي الشكل العام للانقسام داخل المجتمع، والتي هي نتاجُ تقسيمِ العمل الأجتماعي وأداةُ السيطرةِ الطبقية.

(٢٥)

الانفصال هو مبتدأ الاستعراضِ ومنتهاه. كان تَمأسُسُ التقسيم الاجتماعي للعمل، وتَشكُّلُ

الطبقات قد أنتجا تأملاً مقدساً أولياً، هو النسق الأسطوريّ الذي تُغلِّفُ به كلُّ سلطة نفسَها من البداية. وقد قدّم المقدسُ تبريراً للنظام الكوني والأنطولوجي الذي يتمشى مع مصالح السادة، فسرّ وجمّلَ ما لم يستطع المجتمع عمله. من هنا كانت كلُّ سلطة منفصلة استعراضيةً، إلاّ أن تمسُّك الجميع بصورة ساكنة من هذا القبيل، لم يكن يعني سوى قبولاً عاماً باستمرار خيالي لبؤس النشاط الاجتماعي الفعلي، هذا البؤس الذي كان لا يزال يسودُ على نطاقٍ واسع شعورٌ بأنه شرطٌ مُوحِّد. أما الاستعراضُ الحديثُ فيُعبِّر، على العكس، عن ما يستطيع المجتمعُ عمله، لكن المسموح في هذا التعبير يقف في تعارضٍ مطلقٍ مع الممكن. الاستعراضُ هو الحفاظ على اللاوعي خلال التغيير العملي لشروط الوجود. إنه نتاجُ نفسه، وهو نفسُهُ الذي وضع قواعدَه: إنه مقدّسٌ - زائف. وهو يعرض ما يكونه: القوةَ المنفصلةَ وهي تتطورُ بذاتها، في نمو الإنتاجية بواسطة التحسين المستمر لتقسيم العمل إلى فتاتٍ من الإيماءات، تتحكم فيه عندئذ الحركة المستقلة للآلات؛ وفي العمل من أجل سوقٍ تتسع باستمرار. يجري تذويب كل جماعةٍ اجتماعية وكل حَلٍ نقدي خلال هذه الحركة، التي لم تتّحد خلالها بعدُ تلك القوى التي استطاعت النموّ خلال الانفصال.

(٢٦)

مع الانفصال المُعمَّم بين العامل وبين منتجاته، تضيعُ كلُّ نظرةٍ توحيدية للنشاط المُنجَز، وكلُّ تواصلٍ شخصي مباشر بين المنتجين. ومع تقدّم تراكم المنتجات المنفصلة وتركُّز العملية الإنتاجية، تصبحُ الوحدة والاتصال خصائصَ حصريةً قاصرةً على إدارة النظام. إن نجاح النظام الاقتصادي للانفصال هو بَلتَرةُ(*) العالم.

(٢٧)

نتيجةً لنفس نجاح الانتاج المنفصل بوصفه إنتاجاً لما هو منفصل، فإن الخبرة المحورية المرتبطة في المجتمعات البدائية بعمل أساسي في طريقها للاستبدال، عند قمة تطور النظام، باللا-عمل، بالخمول. لكن هذا الخمول ليس متحرراً بأية حالٍ من النشاط الإنتاجي: فهو مُتوقّفٌ عليه، إنه خضوعٌ قلق مشوبٌ بالاعجاب لضرورات ونتائج الإنتاج؛ انه هو نفسه نتاجٌ لعقلانية الانتاج. لا يمكن وجودُ حرية خارج النشاط، وفي إطار الاستعراض يتمّ نفيُ كلِّ نشاطٍ، تماماً مثلما تم الاستيلاء على النشاط الواقعي بأكمله من أجل التشييد الشامل لهذه النتيجة. ومن هنا فإن «التحررَ من العمل» الآن، زيادة أوقات الفراغ، ليس على الإطلاق تحرراً داخل العمل، ولا تحرراً من عالمٍ صاغه هذا العمل. فلا يمكن استعادة شيء من النشاط المفقود في العمل عن طريق الخضوع لنتيجته.

(٢٨)

النظامُ الاقتصاديُ القائمُ على أساسِ العزلة هو إنتاجٌ دائريٌ للعزلة. فالعزلة تُشكِّل أساسَ التقنية، والعمليةُ التقنية تعزلُ بدورها. ومن السيّارة حتى التلفزيون، فإن كل السلع المنتقاة من جانب النظام الاستعراضي هي أيضاً أسلحتُه للتدعيم الدائم لشروط عزلة «الجماهير المستوحدة». باستمرار يعيد الاستعراض اكتشافَ افتراضاته الخاصة على نحو أكثر تعيُّناً.

(*) جعله بروليتاريا - م

(٢٩)

أصل الاستعراض هو فقدانُ وحدة العالم، والتوسع الهائل للاستعراض الحديث يعبر عن المدى الكلي لهذا الفقدان: إذ أن تجريدَ كلِّ عملٍ نوعي والتجريد العام للإنتاج الكلي يجدُ ترجمةً أمينةً له في الاستعراض، حيث يكون نمط الوجود المتعين هو التجريد على وجه الدقة. داخل الاستعراض، يمثلُ جزءُ من العالم نفسَه أمام العالم، وهو أرقى منه. وما الاستعراض إلا اللغة المشتركة لهذا الانفصال. وما يربط بين المشاهدين ليس سوى ارتباط لا يقبل الانعكاس بنفس المركز الذي يُديمُ عزلتهم. الاستعراضُ يعيدُ توحيدَه بوصفهِ منفصلاً.

(٣٠)

يمكن التعبيرُ عن استلاب المتفرج لصالح الشيء موضوع التأمل (والذي هو نتيجةٌ لنشاطه اللاواعي) على النحو التالي: كلما تأمَّل أكثر، كلما عاش أقل؛ وكلما زاد قبوله لأن يتعرف على نفسه في صور الاحتياج besoin السائدة، كلما قل فهمه لوجوده هو ورغبته هو. وتتجلى خارجية l'extériorité الاستعراض بالنسبة للشخص النشيط في كون إيماءاته ذاتها لم تعد تخصه، بل تخص شخصاً آخر يمثلها لديه. لهذا السبب لا يحس المتفرج بأنه في داره في أي مكانٍ على الإطلاق، فالاستعراض موجود في كل مكان.

(١٣)

لا ينتجُ العاملُ نفسَه بنفسه، بل ينتج قوةً مستقلة. ونجاحُ هذا الإنتاج، ووفرتُه، يرتدُّ إلى المنتج بوصفه وفرةَ الحرمان abondance de la dépossession يصبح كلُّ الزمان والمكان في عالمه غريبين عنه مع تراكم منتجاته المُستَلَبة. والاستعراضُ هو خريطة هذا العالم الجديد، خريطةً تُغطي مجالها تماماً. نفس القوى التي أفلتت منا تتراءى لنا بكل عنفوانها.

(٣٢)

الاستعراضُ في المجتمع بمثابة تصنيع عياني للاستلاب. والتوسعُ الاقتصادي هو أساساً التوسعُ في هذا الإنتاج الصناعي النوعي. وما ينمو مع الاقتصاد في حركته من أجل ذاته لا يمكن أن يكون سوى الاستلاب الذي كان كامناً بالضبط داخل نواته الأصلية.

(٣٣)

الإنسانُ المنفصلُ عن انتاجه، ينتجُ هو نفسُه كلَّ تفاصيل عالمه بقوة متزايدة، وهكذا يجد نفسه منفصلاً بصورة متزايدة عن عالمه. بقدر ما تكون حياتُه الآن نتاجاً له، بقدر ما يتزايد انفصالُهُ عن حياته.

(٣٤)

الاستعراضُ هو رأس المال وقد بلغ من التراكم حداً تحوَّلَ عندهُ إلى صورة.



(٢)

السلعة بوصفها استعراضاً

«لأنه لا يمكن فهم السلعة في جوهرها الأصيل إلا بوصفها مقولةً عامةً للوجود الاجتماعي الكلّي. في هذا السياق وحده يكتسبُ التشيؤُ الناشيء عن العلاقات السلعية دلالةً حاسمةً، بالنسبة للتطوّر الموضوعي للمجتمع وكذلكَ بالنسبة للموقف الذي يتخذهُ الناسُ إزاءَه، أي بالنسبة لإخضاع وعيهم للأشكال التي يُعبّر بها هذا التشيؤ عن نفسه. هذا الإخضاعُ يظلُّ يتنامى نظراً لأنه كلما ازدادت عقلنة وميكنة العمل، كلما فقد نشاطُ العامل طابع كونه نشاطاً ليصبح موقفاً تأملياً.»

لوكاتش
(التاريخ والوعي الطبقي)

(٣٥)

في هذه الحركة الجوهرية للاستعراض، التي تتمثل في تَلَقُّفه لكل ما كان يوجد في النشاط الإنساني في حالة سائلة، ليتملكه في حالة مُتجلِّطة، كأشياء أصبحت هي القيمة الوحيدة عن طريق صياغتها السالبة للقيمة المعاشة، في هذه الحركة نتعرف على عدوّنا القديم الذي يعرف جيداً كيف يبدو لأول وهلة شيئاً تافهاً وبديهياً، بينما هو على العكس بالغ التعقيد وشديد الامتلاء بالرهافات الميتافيزيقية: إنه هو السلعة.

(٣٦)

إن مبدأ صنمية السلعة، أي السيطرة على المجتمع بواسطة «أشياء تفوق الحواس وهي محسوسةٌ كذلك»، هذا المبدأ هو ما يبلغُ تحققَهُ المطلقَ في الاستعراض، حيث يُستبدَلُ العالم المحسوسُ بمقتطفٍ من الصور التي توجدُ فوقَه والتي تقدم نفسها ذاتها على أنها هي المحسوس بلا منازع.

(٣٧)

العالمُ الحاضرُ والغائب في آن واحد والذي يجعله الاستعراضُ مرئياً هو عالمُ السلعة الذي يسيطرُ على كل ما هو مُعاش. هكذا فإن عالمَ السلعة يظهرُ كما هو، لأن حركته تتماثل مع تَبَاعُد l'éloignement البشر فيما بينهم وفي مواجهة ناتجهم الكلي.

(٣٨)

إنّ فقدانَ النوعية، البالغَ الوضوح على كلِّ مستويات اللغة الاستعراضية، لايفعلُ، بدءاً من الأشياء التي يمتدحها وحتى السلوكات التي ينظمُها، سوى ترجمة القسمات الأساسية للإنتاج الواقعي الذي يزيحُ الواقعَ جانباً: ان شكلَ - السلعة مكافيءٌ لنفسه بكل المعاني، إنه مقولةُ الكمّي، وهو يطوِّر الكمّي، ولا يستطيعُ التطورَ إلاّ في داخله.

(٣٩)

هذا التطور الذي يستبعد ما هو نوعي خاضعٌ هو نفسه، بوصفه تطوراً، للتحول النوعي: فالاستعراضُ يعني أنه قد تخطى عتبة وفْرَته الخاصة؛ وهذا لم يعد بعد صحيحاً على المستوى

المحلي الاّ في بعض النقاط. لكنه صحيحٌ فعلاً على المستوى الكوني الذى هو السياقُ الأصلي للسلعة، السياق الذي أثبتته حركتها العملية التي تضمُ الكرةَ الأرضية بأسرِها كسوقٍ عالمية.

(٤٠)

كان تطور قوى الإنتاج هو التاريخ الواقعي اللاواعي الذي أقام وعدّل شروط وجود الجماعات البشرية بوصفها شروط بقاء، ووَسَّعَ هذه الشروط: إنه الأساس الاقتصادي لكلّ أعمال تلك الجماعات. وفي إطار اقتصاد طبيعي، كان القطاع السلعي يمثّل تكوين فائض عن احتياجاتِ البقاء. أما الإنتاج السلعي، الذي يتضمنّ تبادلَ منتجات متنوعة بين منتجين مستقلين، فقد أستطاع أن يظلّ حرفياً لزمن طويل، متضمناً في إطار وظيفة قتصادية هامشية تكون فيها حقيقته الكمّية مازالت مُقنّعة. لكن حين صادف الإنتاجُ السلعيُ الشروطَ الاجتماعية للتجارة على نطاق واسع ولتراكم رؤوس الأموال، استولى على السيطرة الكاملة على الاقتصاد. ومن ثم، تحوّلَ الاقتصادُ برمّته ليصبح ما كشفت السلعةُ في سياق تلك السيطرة أنه جوهُها: أي عمليةُ تطورٍ كمّي. هذا التوسّعُ الدائم للقوة الاقتصادية تحت شكل السلعة، والذي حوّلَ العملَ الإنساني إلى عمل - سلعة، إلى عملٍ مأجور، أدى تراكمياً إلى وفرةٍ لا شك أن السؤالَ الأوليّ للبقاء وجد في ظلّها حلاً. لكن على نحوٍ يجعل من الضروري إعادة اكتشافه على الدوام؛ إذ يُعاد طرحه في كل مرةٍ على مستوى أرقى. إن النمو الاقتصادى يحرّرُ المجتمعات من ضغط الطبيعة الذي استلزمَ صراعَها المباشرَ من أجل البقاء، لكنها لم تتحرر من مُحرِّرها ذاته. حيث أن استقلالَ السلعة يتسعُ ليشملَ مجملَ الاقتصاد الذي تحكُمه. الاقتصاد يُغيِرُ العالم، لكنه يُغيِرُه فقط إلى عالمٍ للاقتصاد.

والطبيعة - الزائفة التي يجرى في نطاقها استلابُ العمل الإنساني تُطالب بمواصلة خدمتها إلى مالانهاية، وهذه الخدمة، التي لايحاكمها ويبررُها سوى ذاتها، تستحوذُ فعلياً على مجمل الجهود والمشروعات المشروعة اجتماعياً لتجعلها خَدَماً لها. إن وفرةَ السلع، أي وفرةَ العلاقات السلعية، لا يمكن إلاّ أن تكون بقاءً مُوسَّعاً. survie augmentée.

(٤١)

في البداية كانت سيطرةُ السلعة تُمارَسُ بطريقةٍ خفيّة على الاقتصاد، الذي ظل هو نفسُه، بوصفه الأساسَ الماديَ للحياة الاجتماعية، غير مُدْرَكٍ وغير مفهوم، مثل قريبٍ لاتعرفه الأسرةُ بالضرورة. وفي مجتمعٍ مازالت فيه السلعةُ العينية نادرةً أو غير مألوفة، فإن السيطرة الظاهرة للنقود هي التي تُقدّمُ نفسها بوصفها رسولاً يتمتع بسلطات مطلقة يتحدث باسم قوةٍ غير معروفة. أما مع الثورة الصناعية وتقسيم العمل في الصناعات والإنتاج الكبير للسوق العالميّة، فإن السلعةَ تظهر فعلاً، بوصفها قوةً تأتي فعلياً كي تحتلَ الحياةَ الاجتماعية. ومن ثم، يتشكّل الاقتصادُ السياسي، كعلمٍ مُسيطرٍ وكَعلمٍ للسيطرة.

(٤٢)

الاستعراض هو اللحظة التي تُحقّق فيها السلعةُ احتلالَها الكلّي للحياة الاجتماعية. لا تصبحُ العلاقةُ بالسلعة مرئيةً فحسب، بل إن المرء لا يعود باستطاعته أن يرى سواها: فالعالمُ الذي يراه هو عالمها. يُوسِّعُ الإنتاجُ الحديث دكتاتوريتهَ بطريقةٍ شاملة ومكثفة. وفي المواقع الأقل تصنيعاً،

تتمثل سيطرته بالفعل من خلال بضع سلع – نجوم marchandises - vedettes ومن خلال السيطرة الإمبريالية للمناطق التي تحتلُ قمّةَ التطور في الإنتاجية. أما في هذه المناطق المتقدّمة، فيتشبّعُ المجالُ الاجتماعي بتراكبٍ متّصلٍ لطبقات جيولوجية من السلع. عند هذه النقطة من «الثورة الصناعية الثانية»، يصبحُ الاستهلاكُ المُستلَبُ بالنسبة للجماهير بمثابة واجب مُكمِّل للإنتاج المستلَب. إن كل العمل المُباع لمجتمعٍ معيّن هو ما يصبحُ بشكلٍ شامل السلعةَ الكُلّية التي يجب مواصلة الدورة من أجلها. ولعمل ذلك، يجب أن تعود هذه السلعة الكلية بشكل مُفتّت إلى الفرد المُفتَّت، المنفصل تماماً عن قوى الإنتاج التي تعملُ ككلٍ واحد. هنا، إذن يجب على العلم المتخصّص في السيطرة أن يتخصّصَ بدوره: إنه يُفتّتُ نفسَه إلى سوسيولوجيا، وتقنية سيكولوجية، وسيبرنطيقا، سيميولوجيا، إلى آخره، ليسهر على الضبط– الذاتي لكل مستويات العملية.

(٤٣)

بينما في المرحلة البدائية للتراكم الرأسمالي «لايرى الاقتصادُ السياسي في البروليتاري سوى العامل»، الذي يجب أن يتلقى الحدَّ الأدنى الضروري للحفاظ على قوة عمله، دون النظر إليه أبداً «في أوقات فراغه، وفي إنسانيته»، فإن هذا الطرحَ لأفكار الطبقة المسيطرة سرعان ما ينعكسُ فورَ أن يبلغَ الإنتاجُ السلعيُ درجةً من الوفرة تتطلبُ فائضاً من التعاون من العامل. هذا العامل الذي أحلّ بغتةً من الاحتقار الكلي الذي يلقاه بوضوح من كل ضروب تنظيم والإشراف على الإنتاج، يجد أنه، يومياً، خارجَ الإنتاج وتحت قناع المستهلك، يُعامَلُ كشخصٍ بالغٍ بأدب جَمّ. عند هذه النقطة تتولى إنسانيةُ السلعةِ على عاتقها «أوقاتَ فراغ وإنسانية» العامل، لسببٍ بسيط هو أن الاقتصادَ السياسيَ يستطيعُ ويجب الآن أن يسيطرَ على هذه المجالات بوصفه اقتصاداً سياسياً. وهكذا تولى «الإنكار المكتمل للإنسان» على عاتقه الوجودَ الإنسانيَ برمته.

(٤٤)

الاستعراضُ هو حربُ أفيونٍ دائمة تستهدفُ إجبارَ الناس على قبول التماهي بين الأشياء والسلع، وبين الإشباع والبقاء الذي يتزايد وفق قوانينه الخاصة. لكن، اذا كان البقاء القابل للاستهلاك شيئاً يجب أن يتزايد باستمرار، فذلك راجع إلى أنه يظل يتضمّن الحرمان. وإذا لم يكن ثمة شيءٌ فيما وراءَ البقاء الموسَّع، اذا لم يكن ثمة نقطةٌ يمكنُ أن يتوقفَ عندها عن النمو، فليس ذلك راجعاً إلى أنه يتجاوزُ الحرمان، بل لأنه هو نفسُه الحرمانُ وقد أصبح أكثر ثراءً.

(٤٥)

مع إدخال الأتمتة l'automation، التي هي في آن واحدٍ أكثرُ قطاعات الصناعة تقدماً والنموذجُ الذي يلخّصُ ممارستَها تلخيصاً تاماً، أصبحَ على عالمِ السلعة أن يتجاوزَ التناقضَ التالي: أن المعدّاتَ التقنية التي تُلغي العمل موضوعياً يجب في نفس الوقت أن تحافظَ على العمل بوصفه سلعةً، وموضوعاً وحيداً لميلاد السلعة. وحتى لا تقوم الأتمتة، أو أي شكل آخر أقل تطرفاً لتنمية إنتاجية العمل، بالتقليل فعلياً من وقت العمل الاجتماعي الضروري على مستوى المجتمع، فمن الضروري خلق وظائفَ جديدة. والخدماتُ، القطاعُ الثالث، هي التعزيزُ الهائل لصفوف جيشٍ توزيع وامتداح

السلع الراهنة؛ هي إستنفارٌ لقوات إضافية تجدُ أنها ملائمةٌ لتنظيم العمل - الزائد الذي تتطلبه الاحتياجات المصطنعة لتلك السلع.

(٤٦)

لم تستطع القيمة التبادلية أن تظهرَ سوى بوصفها وسيطاً للقيمة الاستعمالية، إلا أن انتصارَها بأسلحتها الخاصة خلق شروطَ سيطرتها المستقلة. وعن طريق استنفارِ كل استعمال إنساني واحتكار إشباعه، انتهى الأمرُ بالقيمة التبادلية إلى **توجيه الاستعمال**. قامت عمليةُ التبادل مع كل استعمال محتمل، ووضعت الاستعمالَ تحت رحمة التبادل. القيمة التبادلية هي المرتزق condottiere لدى القيمة الاستعمالية، الذي انتهى به الأمرُ إلى شنِ الحرب لحسابه الخاص.

(٤٧)

إن ميلَ القيمة الاستعمالية للتدهور، هذا الثابتُ من ثوابت الاقتصاد الرأسمالي، يُطوِّرُ شكلاً جديداً للحرمانِ في قلب البقاء المُوسَّع ، حرمانٌ ليس شديدَ الاختلاف عن النُدرة pénu-ric القديمة حيث أنه يتطلب مشاركةَ الغالبية العظمى من البشر، كعُمّالٍ مأجورين، في الجهد اللانهائي لتحقيقه، وحيث أن كل واحد يعرف أن عليه إمّا أن يخضعَ له أو يموت. وواقع هذا الابتزاز، حقيقة أن الاستعمالَ أشد أشكاله بؤساً (المأكل، والمسكن) لم يعد يوجدُ سوى سجيناً داخلَ الثراء الوهمي للبقاء الموسَّع، هو الأساسُ الواقعي لقبول الوهم عموماً في استهلاك السلع الحديثة. يتحول المستهلكُ الواقعيُ إلى مستهلكٍ للأوهام. والسلعةُ هي هذا الوهمُ الواقعي فعلاً، والاستعراضُ هو تبدِّيه العام.

(٤٨)

في الواقعِ المقلوب للاستعراض، يجب الآن المُناداةُ صراحةً بالقيمة الاستعمالية التي كانت متضمَّنةً ضمنياً في القيمةَ التبادلية، وذلك بالضبط لأن واقعَها الفعليَ قد أبلاه الاقتصادُ السلعيُ المفرطُ التطور؛ وكذلك لأن الحياةَ الزائفةَ تتطلب تبريراً زائفاً.

(٤٩)

الاستعراضُ هو الوجهُ الآخر للنقود: هو المكافيءُ العام المجرَّدُ لكل السلع. لكن إذا كانت النقودُ قد سيطرت على المجتمع بوصفها تَمثيلاً للتكافؤ المحوري، أي للطابعِ التبادلي لسلعٍ مختلفة لا يمكن المقارنةُ بين استعمالاتها ، فإن الاستعراضَ هو التتمةُ الحديثة المتطورة للنقود حيث يظهرُ مجموعُ العالم السلعي ككل، كمكافيء عام كما يمكن لمجموعِ المجتمع أن يكونهُ وأن يفعله. الاستعراضُ هو النقود التي يُنظَرُ إليها فقط، حيث أن الاستعمال في مجموعه مُستَبدَلٌ فيها فعلاً مقابل التمثيل المجرد في مجموعه. الاستعراض ليس مجرد خادمٍ للاستعمال - **الزائف**، بل إنه هو نفسه فعلاً الاستعمال - الزائف للحياة.

(٥٠)

في لحظة **الوفرة الاقتصادية**، تصبحُ النتيجةُ المركزةُ للعمل الاجتماعي باديةً للعيان وتُخضِع كلَّ واقعٍ للتبدي، الذي هو نتاجُها الآن. لا يعودُ رأسُ المال ذلك المركزَ اللامرئي الذي يوجِّه

نمط الإنتاج: إذ أنّ تراكمهُ ينشرهُ حتى الأطرافِ في شكل أشياء ملموسة. وصورتُهُ هي كل امتداد المجتمع.

(٥١)

لابد أن يكون انتصار الاقتصاد المستقل هو هزيمته في نفس الوقت. فالقوى التي أطلقها من عقالها تلغي الضرورة الاقتصادية التي كانت الأساس الراسخ للمجتمعات الأقدم. وحين يستبدلها بضرورة التطور الاقتصادي اللانهائي، فلابد أن يستبدلَ إشباعَ الحاجات الإنسانية الأولية المعترف بها بشكل عابر، باختلافٍ غير منقطعٍ لحاجات - زائفة تعيدنا من جديد إلى الحاجة - الزائفة الوحيدة للحفاظ على هيمنة الاقتصادَ المستقل. لكن الاقتصاد المستقل يُفلتُ بشكل دائم من الحاجة الجوهرية بقدر ما ينبعث من اللاوعي الاجتماعي الذي كان يعتمد عليه دون أن يدري. «كل ما هو واعٍ يتآكل. وما هو واعٍ يظلُّ على حاله. لكن إذا حدث أن انطلق. أفلايتساقط حطاماً هو الآخر؟» (فرويد).

(٥٢)

فور أن يكتشفَ المجتمعُ أنه يعتمدُ على الاقتصاد، فإن الاقتصادَ يعتمدُ عليه، في الحقيقة. هذه القوةُ الدفينة، التي نمت حتى بدت ذاتَ سيادة، تكونُ قد فقدت قوتها بدورها. وحيث كان ثمة ذاك الاقتصادي يجب أن تأتي الـ أنا. فلايمكن أن تنبعث الذات إلا من المجتمع، أي من الصراع الدائر داخل المجتمع. ووجودها المحتمل متوقفٌ على نتائج الصراع الطبقي الذي يتكشف على أنه ناتجُ ومُنتجُ الأساسِ الاقتصادي للتاريخ.

(٥٣)

وعيُ الرغبة ورغبةُ الوعي هما على نحوٍ متطابقٍ ذلك المشروعُ الذي يُريد، في صورته السلبية، إلغاء الطبقات، أي إمتلاكَ العمالِ المباشر لكلِّ لحظات نشاطهم. ونقيضُهُ هو مجتمعُ الاستعراض، حيث تتأمّلُ السلعة ذاتها في عالمٍ من خَلْقِها.



(٣)

الوحدة والانقسام داخل التبدّي

«يدور في البلاد جدال جديد محتدم، على جبهة الفلسفة، حول مفهومي «الواحد ينقسم إلى اثنين» و«الاثنان يندمجان في واحد». هذا السجال هو صراع بين من يؤيدون ومن يعارضون الجدل المادي، صراع بين مفهومين للعالم: المفهوم البروليتاري والمفهوم البرجوازي. والقائلون بأن «الواحد ينقسم إلى اثنين» هو القانون الأساسي للأشياء يقفون في جانب الجدل المادي؛ والقائلون بأن القانون الأساسي للأشياء هو «الاثنان يندمجان في واحد» هم ضد الجدل المادي. وقد رسم الجانبان خطاً فاصلاً واضحاً بينهما، وحججهما على طرفي نقيض. هذا الجدال يعكس على المستوى الايديولوجي الصراع الطبقي الحاد والمعقّد الدائر في الصين وفي العالم.»

العلم الأحمر، بكين
٢١ سبتمبر ١٩٦٤.

(٥٤)

إن الاستعراضَ، مثلَ المجتمع الحديث، موحَّد ومنقسمٌ في آنٍ واحد. ومثل المجتمع الحديث، فإنه يقيمُ وحدتَهُ على التمزّق. لكن التناقضَ، حين يظهرُ في الاستعراضِ، يناقضُهُ بدوره قَلْبٌ لمعناه، بحيث يكونُ الانقسامُ الظاهرُ توحيدياً، بينما الوحدةُ الظاهرةُ منقسمةٌ.

(٥٥)

صراعُ القوى المؤسسةِ لإدارة نفسِ النسقِ الاجتماعي - الاقتصادي هو ما يتم نشرهُ بوصفه التناقضَ الرسميَ لكنه في الحقيقةِ جزءٌ من الوحدةِ الفعليةِ - على مستوى العالم وكذلك داخل كلّ أمّة.

(٥٦)

إن الصراعات الاستعراضية الزائفة لأشكالٍ متنافسة من القوى المنفصلة هي في نفس الوقت واقعيةٌ، من حيث أنها تُترجمُ التطورَ غيرَ المتكافئ، والتناحريَ للنسق، المصالحَ المتناقضةَ فيما بينها لطبقاتٍ ولأقسامٍ فرعية من طبقات تعترف بالنسق، وتُعرِّفُ نفسَها على أنها مُشاركةٌ في سلطته. وكما أنَّ تطورَ الاقتصادِ الأكثر تقدماً هو صدامٌ بين بعض الأولويات وغيرها، فإن الإدارة الشمولية للاقتصادِ من جانب بيروقراطية دولةٍ ووضعَ البلدانِ الخاضعة للاستعمار أو شبه - الاستعمار يتحدَّدان بسماتٍ نوعية معينة ضمن تنويعات الإنتاج والسُلطة. هذه التعارضات المختلفة يمكنُ في الاستعراض أن تنتحلَ، طبقاً لمعايير مختلفةٍ تماماً، صفةَ أشكالٍ متمايزة تماماً من المجتمع. لكن بناءً على واقعها الفعلي، فإن حقيقة السمات النوعية الخاصة لكل هذه القطاعات النوعية تكمنُ في النسق العام الذي يحتويها: تكمنُ في الحركة الفريدة التي تجعلُ من الكوكب مجالها، أي الرأسمالية.

(٥٧)

لا تسيطرُ المجتمعاتُ الحاملةُ للاستعراض على الأقاليم المتخلّفة عن طريق هيمنتها الاقتصادية فحسب، بل تسيطرُ عليها بوصفها **مجتمعَ الاستعراض**. وقد غزا المجتمعُ الحديثُ بالفعل السطحَ الاجتماعيَ لكل قارةٍ بواسطة الاستعراض، حتى حيث يكون الأساس الاقتصادي لذلك مازال غائباً. وهو يُحدِّدُ برامجَ الطبقةِ الحاكمة ويُشرفُ على تشكيلها. ومثلما يُقدِّمُ السلعَ الزائفة لتكونَ

مُشتهاةً، فإنه يُقدّمُ للثوريين المحليين النماذجَ الزائفةَ للثورة. واستعراضُ السلطة البيروقراطية التي تُمسكُ بزمام بعض البلدانِ الصناعية، هو جزءٌ متكاملٌ من الاستعراضِ محلياً، فإنّه يُظهرُ تخصصاتٍ شمَوليةٍ معينة للاتصال والإدارة الاجتماعيين، لكن حين يُنظَرُ إليه على مستوى الأداءِ الكلّي لمجمل النظام، فإن هذه التخصُّصات تندمج **في تقسيمٍ عالمي للمهام الاستعراضية.**

(٥٨)

يحافظ تقسيمُ المهام الاستعراضية على مجمل النظام القائم لكنه يحافظ أساساً على القُطب المهيمن لتطوره. ويكمنُ جذرُ الاستعراض في مجال الاقتصاد الذي صارَ مزدهراً، ومنه تنتجُ الثمارُ التي تنجو في النهاية إلى السيطرة على السوق الاستعراضية، برغم حواجزِ الحماية الايديولوجية - البوليسية لأيّ استعراضاتٍ محليّة تطمحُ إلى الحكم المطلق.

(٥٩)

تحت التسليات البراقة للاستعراض، تسيطرُ حركةُ الابتذال على المجتمع في العالم كله، كما تسيطرُ عليه في كل نقطة يكونُ فيها الاستهلاك المتطوّرُ قد ضاعف ظاهرياً الأدوارَ والأشياءَ التي يجري الاختيارُ بينها. والبقايا الباقية من الدين والعائلة - حيث يكمن الشكل الرئيسي لتراث السلطة الطبقية - ومن القمع المعنوي الذي تضمنُه، تندمجُ معاً حين يجري التأكيدُ القاطع لمتعة هذا العالم، هذا العالم الذي لم يُنتج سوى بوصفه مُتعةً - زائفة قمعية. والقبولُ الراضي لما هو موجودٌ يمكن كذلك أن يندمجَ مع التمرّد الاستعراضي المحض: ويعكسُ هذه الحقيقةَ البسيطةَ في أن السخطَ نفسَه يصبحُ سلعةً حالما تتمكن الوفرةُ الاقتصادية من توسيع الإنتاجِ ليشملَ تشغيلَ مثل هذه المادة الأوليّة.

(٦٠)

في شخصية النجم، التي هي التمثيلُ الاستعراضي للإنسان الحي، يتجسّدُ هذا الابتذال عن طريق تجسيدها لصورة دورٍ ممكن. ويعني كونُ المرء نجماً التخصُّصَ في **المُعاش ظاهرياً**. فالنجمُ هو موضوع التماهي مع الحياة الظاهرية الضحلة، التي يجب أن تُعوّضَ تفتُّتَ التخصّصات الانتاجية المُعاشَة فعلاً. ويوجد النجوم لكي يُجسّدوا أنماطاً مختلفة من أساليب الحياة وأساليب فهمِ المجتمع، حرّةً في التعبير عن نفسها **بشكل شامل**. إنهم يُجسّدونَ النتيجةَ التي يتعذّرُ بلوغها للعمل الاجتماعي عن طريق إضفاء الدرامية على النتاجات الثانوية لهذا العمل وقد تسامت فوقه بوصفها غايته: **السُلطةُ والعُطلاتُ**، القرار والاستهلاك، اللذان هما بداية ونهاية عملية لا تخضعُ للنقاش. في الحالة الأولى، تجسّد سلطةُ الدولة نفسها كنجم - زائف؛ وفي الحالة الثانية، يتم انتخابُ نجمِ الاستهلاك كسلطة - زائفة على ما هو مُعاش. لكن، بقدر مانجد أن نشاطات النجم ليست شاملةً فعلاً، فإنها ليست متنوعةً حقاً.

(٦١)

إن وسيطَ الاستعراضِ الموضوعَ على المسرح بوصفه نجماً هو نقيضُ الفرد، هو عدوُّ الفرد في ذاته وكذلك في الآخرين. وبدخوله إلى الاستعراض بوصفه نموذجاً للتماهي، يتخلّى هذا الوسيطُ عن

كل خصائصه المستقلة لكي يتماهى هو نفسه مع القانون العام لإطاعة مسار الأشياء. إن نجم الاستهلاك، بوصفه التمثيل السطحي لأنماط مختلفة من الشخصية، يبيّن أن لكل واحد من هذه الأنماط فرصةً متساوية للوصول إلى مجمل الاستهلاك، والعثور هناك على سعادة مماثلة. أما نجمُ القرار فلابد له من امتلاك مخزونٍ كامل من السمات الإنسانية المقبولة. والاختلافاتُ الرسميةُ بين النجوم يلغيها التماثل الرسمي، الذي هو الافتراضُ المسبق بامتيازهم في كل شيء. وقد أصبح خروشوف جنرالاً يتخذ القرارات في معركة كورسك، ليس في موقع المعركة، بل في ذكراها العشرين، حين أصبح سيدَ الدولة. وقد ظلّ كينيدي خطيباً إلى حدّ إلقاء خطاب تأبينه على قبره ذاته، حيث أن تيودور سورنسن واصل إلى تلك اللحظة كتابة الخُطب لخليفته بالأسلوب الذي ميّز شخصية المتوفى. والناسُ المثيرون للإعجاب الذين يُجسّدُ النظامُ نفسَه فيهم معروفون جيداً بأنهم ليسوا ماهم عليه؛ وقد صاروا عظماء بتدنّيهم إلى مستوى أدنى من واقع أتفه حياةٍ فردية، ويعرف الجميع ذلك.

(٦٢)

إن الخيارَ الزائف ضمنَ الوفرة الاستعراضية، وهو الخيارُ الذي يكمن في التعارض بين استعراضاتٍ متنافسة ومكمّلة لبعضها وكذلك في التعارض بين الأدوار (التي تعنيها وتحملها الأشياء أساساً التي هي في نفس الوقت حصريةٌ ومتراكبةٌ. هذا الخيار يتطور إلى صراعٍ بين سماتٍ شبحية تستهدفُ حفزَ الولاء للتفاهة الكمّية. هكذا تنبعثُ من جديد تضاداتٍ عتيقة زائفة، نزعات إقليمية أو عرقية مهمتها رفعُ ابتذالِ المواقع المراتبية للاستهلاك إلى مرتبة تفوق أنطولوجي وهمي. هكذا تتشكّلُ من جديد السلسلة التي لا تنتهي من المواجهات الهزلية، من رياضات المنافسة وحتى الانتخابات، مُستنفرةً اهتماماً أدنى من اللعب. وحيثما وُجد استهلاكٌ مزدهر، يبرزُ تضادُ استعراضي أساسيٌ بين الفتيان والبالغين إلى صدارة الأدوار الزائفة؛ وهي زائفةٌ لأن البالغ، سيّدَ حياته، لايوجدُ في أي مكان، ولأن الفتوة، التي هي تغييرُ ماهو قائم، ليست على الإطلاق سمةً من هُم الآن فتيةٌ، بل سمةَ النظامِ الاقتصادي، سمة ديناميةِ الرأسمالية. **الأشياءُ هي التي تسيطرُ وهي الفتيّةُ؛** هي التي تُطاردُ بعضها وتحلُ محلَّ بعضها.

(٦٣)

وحدةُ البؤسِ هي ما يختبيء تحت التعارضات الاستعراضية. وإذا كانت أشكالٌ متنوعة لنفس الاستلاب تُنازلُ بعضَها تحت أقنعة الخيار الكلي، فذلك لأنها جميعاً مُقامةٌ على تناقضات حقيقية مكبوتة. ويوجد الاستعراضُ في حالةٍ مُركّزة أو في حالةٍ منتشرة، وفق ضرورات المرحلة المعيّنة للبؤس الذي يُنكره الاستعراضُ ويدعمه. وفي كلتا الحالتين، لايعدو الاستعراضُ كونَه صورة توحيدٍ سعيد تحوطه الوحشةُ والفزع، في المركزِ الهادئ للبؤس.

(٦٤)

ينتمي الاستعراضُ المُركّز إلى الرأسمالية البيروقراطية أساساً، رغم أنه قد يتم استيراده كتقنية لسُلطة الدولة في إقتصادات مختلطة أكثر تخلفاً، أو في لحظات أزمة معينة في الرأسمالية المتقدمة. وفي الحقيقة، فإن الملكية البيروقراطية هي نفسها مُركّزة بحيث لا تكون للبيروقراطي الفرد علاقة

بملكية الاقتصاد الكليّ إلاّ من خلال وسيط، هو الجماعة البيروقراطية، وبوصفه عضواً في هذه الجماعة. وعلاوة على ذلك، فإن إنتاج السلع، الذي هو أقل تطوراً في الرأسمالية البيروقراطية، يأخذ كذلك شكلاً مُركّزاً: فالسلعة التي تتمسك بها البيروقراطية هي العمل الاجتماعي الإجمالي، وماتُعيد بيعه إلى المجتمع هو البقاء بالجملة. ولاتستطيع ديكتاتورية الاقتصاد البيروقراطي أن تترك للجماهير المستَغَلّة أي هامش ملحوظ للاختيار، لأن على البيروقراطية نفسها أن تختار كل شيء، ولأن أي خيار آخر خارج عنها، سواء كان يخص الطعام أو الموسيقى، يكون بالفعل خيار تدميرها التام. ولابد لهذه الديكتاتورية أن يلازمها عنفٌ دائم. والصورة المفروضة للخير، في استعراضها، تضم مجمل مايوجد رسمياً، وعادة ماتتركز في شخص واحد، هو الضامن لتلاحمها الشمولي. ويجب على كل شخص أن يتماهى بصورة سحرية مع هذا النجم المطلق، أو أن يختفي. فهذا النجم هو سيّد اللا-استهلاك، هو الصورة البطولية التي تُضفي معنى مقبولاً على الاستغلال المطلق الذي يعنيه في الحقيقة التراكمُ الأوليّ المتسارعُ بواسطة الإرهاب. وإذا كان يتوجب على كل صيني أن يتعلم ماوMao، وأن يصبح بذلك ماو، فذلك لأنه **لايستطيع أن يكون شيئاً آخر**. حيثما يسيطر الاستعراض المركّز، تُسيطر الشُرطة كذلك.

(٦٥)

يرافق الاستعراضُ المنتشر ازدهار السلع، تطورَ الرأسمالية المتقدمة الذي لا يعكّر صفوه شيء. هنا، تُبرِّرُ كل سلعة مُفردة نفسها باسم عَظَمة إنتاج مجمل الأشياء، التي يكون الاستعراض بمثابة كتالوج تبريري لها. على مسرح الاستعراض الموحَّد للاقتصاد المزدهر، تزدحم ادعاءات متضاربة، وفي الوقت نفسه، تدعم سلعٌ-نجومٌ مختلفةٌ مشروعاتَها المتناقضة لتعديل المجتمع: فاستعراض السيارات يستلزم شبكةَ مرورٍ مكتملة تُدمِّر المدنَ القديمة، بينما يتطلب استعراضُ المدينة نفسها وجودَ أحياء-متاحف. ومن ثم، يكون الاشباعُ، الإشكالي بالفعل، والمفترضُ فيه أن ينشأ عن **استهلاك المجموع**، مُزيفاً على الفور حيث أن المستهلك الفعلي لايمكنه أن يلمس مباشرةً سوى تتابع من شذرات هذه السعادة السلعية، شذرات يكون بديهياً فيها في كل مرةٍ أن النوعية المنسوبة إلى المجموع غائبة.

(٦٦)

تقاتل كلُّ سلعة محددة من أجل ذاتها، فلايمكنها الاعتراف بالأخريات، وتحاول أن تفرض نفسها في كل مكان وكأنها هيَ الوحيدة. الاستعراض، إذن، هو النشيد الملحمي لهذا النزال، الذي لا يمكن أن يُنهيه سقوط أي طروادة. ولايتغنّى الاستعراض بالبشر وأسلحتهم، بل بالسلع وأهوائها. وخلال هذا القتال الأعمى، تُحقِّقُ كل سلعةٍ بالفعل في اللاوعي، وهي تتّبع أهواءها، شيئاً أكثر سمواً: هو تحوُّل السلعة. هكذا، وعن طريق **خدعة للمنطق السلعي**، فإن ماهو نوعي (خاص)particulier في السلعة يستنفد نفسه خلال القتال، بينما يتقدّم الشكل-السلعي صوب تَحقُّقه المطلق.

(٦٧)

إن الإشباع، الذي لم يعد يتأتى من استعمال السلعة الوافرة، يجري البحث عنه الآن في الإقرار

بقيمتها بوصفها سلعة: يصبح استعمال السلعة مكتفياً بذاته؛ ويصبح المستهلك ممتلئاً بالتوقد الديني إزاء الحرية ذات السيادة للسلعة. هكذا تنتشر بسرعة البرق موجاتٌ من الحماس لمنتَج معين، تدعمها وتعممها كل وسائل الإعلام. من أحد الأفلام، ينبعث طرازُ ملابس؛ ومن مجلة تُروج لنواد ليلية، تنتشر موضاتُ ملابس متنوعة. وفي اللحظة التي تتزلق فيها كتلة السلع نحو الصبيانية، يصبح ماهو صبيانيٌ هو نفسه سلعةً خاصة، ويُلخص الجادجيت(★) Gadget هذه الحقيقة. ويمكننا أن نشهد مظاهرَ انغماسٍ صوفيٍ في تسامي السلعة في الهدايا المجانية، مثل سلاسل المفاتيح التي لاتُشترى، بل يُلحقها المعلنون بالمبيعات ذات المكانة، أو التي تدور بالتبادل في دائرتها الخاصة. والمرء الذي يجمع سلاسل المفاتيح المصنوعة للاقتناء في مجموعات، **يراكم الانغماس في السلعة**، الذي هو علامةٌ مَجيدةٌ على وجوده الفعلي بين الأوفياء. الإنسانُ المتشيء يعلنُ عن برهان حميميته مع السلعة. تبلغ صنميةُ السلعة لحظاتٍ من التسامي المُتقد المماثلِ لنوبات نشوة اختلاجات أو معجزات الصنمية الدينيةِ القديمةِ. والاستخدامُ الوحيد الذي يتبقى هنا هو الاستخدامُ الجوهري للخضوع.

(٦٨)

لاشك أنه لايمكن معارضة الحاجة-الزائفة التي يفرضها الاستهلاك الحديث بأي حاجة أو رغبة أصيلة لاتكون هي نفسها قد تشكلت بواسطة المجتمع وتاريخه. إن السلعة الوافرة تمثل هنا الانقطاعَ المطلقَ في التطور العضوي للحاجات الاجتماعية. وتراكمها الميكانيكي تُطلقُ اصطناعيةً لامحدودة، لاحول للرغبة الحيّة في مواجهتها. والقوة التراكمية للاصطناعية المستقلة تُنتِجُ في كل مكان **تزييفاً للحياة الاجتماعية**.

(٦٩)

في صورة التوحيد السعيد للمجتمع بواسطة الاستهلاك، يظلّ الانقسام الواقعي معلقاً فقط حتى حلول عدم- التحقق التالي في الاستهلاك. وكلُ مُنتَج متفرد يمثلُ الأمل في طريق مختصر باهر للوصول إلى الأرض الموعودة للاستهلاك الكلي. ويجري تقديمُه باحتفاء على أنه هو التفردُ الحاسم. لكن، مثلما في حالة الانتشار اللحظي لموضات الأسماء التي تبدو أرستقراطية والتي تُطلق تقريباً على كل الأفراد الذين في سن واحدة، فإن الشيء الذي يتوقع منه المرء قوةً فريدةً لا يمكن تقديمه إلى ولاء الجماهير إلا إذا كان قد أُنتج منه كميات كبيرة كافية للاستهلاك على نطاقٍ واسع. ولايكتسب مُنتَجٌ معين مكانته مهما كان إلا حين يوضع للحظة في مركز الحياة الاجتماعية، كأنه السر المُكتشَفُ للغاية النهائية للإنتاج. لكن الشيء الذي كان يتمتع بالمكانة في الاستعراض يصبح مبتذلاً في اللحظة التي يصل فيها إلى منزل مستهلكه، وكذلك إلى منازل كل المستهلكين الآخرين. إذ يكشف بعد فوات الأوان عن بؤسه الجوهري، الذي يأتي إليه بالطبع من بؤس إنتاجه. لكن عندها يكون شيء آخر هو الذي يحمل بالفعل تبرير النظام ويطالب بالاعتراف به.

(★) الجادجيت: إبتكار صغير أو آداة جديدة، مثيرة للإهتمام لكنها عديمة القيمة - م.

(٧٠)

لابد أن خدعة الإشباع تكشف نفسها بنفسها عن طريق استبدالها، عن طريق اتباعها للتغير في المنتجات وفي الشروط العامة للإنتاج. إن ما أكد امتيازه الحاسم بصفاقة تامة يتغير رغم ذلك، في الاستعراض المركز، وكذلك في الاستعراض المنتشر. والنظام وحده هو ما يجب أن يستمر: ستالين والسلعة التي ولّت موضتها يشجّبهما نفس أولئك الذين فرضوهما. وكل كلمة جديدة للإعلان هي أيضاً اعترافٌ بالكذبة السابقة. وكلُّ سقوط لشخصية ذات سلطة شمولية تكشف **المجتمع الوهمي** الذي وافق عليها بالإجماع، والذي لم يكن أكثر من تكتيل لعُزلات دون أوهام.

(٧١)

إن ما يقدّمه الاستعراضُ على أنه أبديّ يقومُ على أساس التغير، ولابد له أن يتغيّر مع قاعدته. الاستعراضُ دوجمائي بشكل مطلق وفي نفس الوقت لا يمكنه أن يُحقّقَ أي دوجما صلبة. لا شيء يتوقّف بالنسبة للاستعراض؛ هذه هي الحالة الطبيعية بالنسبة له إلاّ أنها مناقضةٌ تماماً لميله.

(٧٢)

الوحدة اللاواقعية التي يعلنُها الاستعراض هي قناع الانقسام الطبقي الذي تتركز عليه الوحدة الواقعية لنمط الإنتاج الرأسمالي. إن ما يُلزِم المنتجين بالمشاركة في تشييد العالم هو أيضاً ما يفصلهم عنه. وما يجمع بين البشر المتحرّرين من حدودهم المحلية والقومية هو أيضاً ما يُباعد بينهم. وما يتطلب تعميق العقلانية هو أيضاً ما يُغذّي لاعقلانية الاستغلال المراتبي والاضطهاد. إن ما يخلق السلطة المجرّدة للمجتمع يخلق لاحرّيته العينية.



(٤)

البروليتاريا بوصفها ذاتاً وبوصفها تمثيلاً

« الحق المتكافيء للجميع في خيرات ومُتع هذا العالم، وتدمير كلّ سلطة، ونفي كلّ رادع أخلاقي، هذه، إذا مضى المرء إلى صُلب المسألة، هي أسباب انتفاضة ١٨ مارس والرابطة الضخمة التي زوّدتها بجيش »

التحقيق البرلماني

في انتفاضة ١٨ مارس.

(٧٣)

إن الحركة الواقعية التي تكبتُ الشروطَ القائمة تحكمُ المجتمع منذ لحظة انتصار البرجوازية في الاقتصاد، وبشكل واضح للعيان بعد الترجمة السياسية لهذا الانتصار. فقد حطّم تطوّر القوى الإنتاجية علاقات الإنتاج القديمة، وتحوّل كلّ نظام سكوني إلى تراب. كلّ ماكان مُطلقاً صار تاريخياً.

(٧٤)

عن طريق قذفهم داخل التاريخ، عن طريق اضطرارهم للمشاركة في العمل وفي الصراعات التي تكوّن التاريخ، يجد البشرُ أنفسهم ملزَمين بالنظر إلى علاقاتهم بطريقة واضحة. فهذا التاريخ ليس له من موضوع سوى ما يجري داخل نطاقه، حتى لو كانت آخر رؤية ميتافيزيقية لاواعية للحقبة التاريخية تستطيع النظر إلى التتابع الإنتاجي الذي تفتّح من خلالهُ التاريخ بوصفه هو نفسه موضوعَ التاريخ. إذ أن ذات التاريخ لا يمكن أن تكون سوى الكائن الحيّ بينما ينتج ذاته، بينما يصبح سيّداً ومالكاً لعالمه الذي هو التاريخ، بينما يوجدُ بوصفه وعياً بلُعبته.

(٧٥)

مثل تيار واحد، تتطور الصراعات الطبقية للحقبة الثورية الطويلة التي استهلّها صعود البورجوازية مع فكر التاريخ، أي الجدل، ذلك الفكر الذي لم يعد يتوقف ليبحث عن معنى الوجود، بل يتجاوز ذلك إلى المعرفة بتحلّل كل ماهو موجود؛ وخلال حركته يحلّ كل انفصال.

(٧٦)

لم يعُد على هيجل أن يُفسّر العالم، بل تَغيِّر العالم. وبتفسيره فقط للتحول، فإن هيجل ليس سوى الإكتمالِ الفلسفي للفلسفة. فهو يودّ فهم عالم يصنعُ نفسَه بنفسه. وهذا الفكر التاريخي ليس بدوره سوى الوعي الذي يصل دائماً متأخراً جداً، والذي ينطقُ بالتبرير بعدوقوع الحدث. وبذلك فإنه لم يتجاوز الانفصال الا في الفكر. والتناقضُ الذي يتلخّص في جعل معنى كل واقع متوقفاً على اكتماله التاريخي، وفي نفس الوقت، في كشف هذا المعنى وهو يجعل من نفسه اكتمالاً للتاريخ، هذا التناقضُ ينبعُ من الحقيقة البسيطة المتمثلة في أن مُفكّرَ الثورات البرجوازية للقرنين السابع عشر والثامن عشر لم ينشُدْ في فلسفته إلا المصالحة مع نتائج هذه الثورات. وحتّى

بوصفها فلسفةً للثورة البرجوازية، فإنها لا تعبّر عن مجمل سيرورة هذه الثورة، بل فقط عن خلاصتها النهائية. وبهذا المعنى، فإنها ليست فلسفة للثورة، بل لإعادة الملكيّة». (كارل كورش، **أطروحات حول هيجل والثورة**). لقد قام هيجل، لآخر مرة، بعمل الفيلسوف، «تمجيد ما هو موجود»؛ الا أن ما كان موجوداً بالفعل بالنسبة له لم يكن يمكن أن يكون أقل من الحركة التاريخية الكلّية. وبالإبقاء فعلياً على الوضع الخارجي للفكر، فإن هذا الفكر لم يكن يستطيع أن يَتَقَنَّعَ سوى بتماهيه مع مشروع أسبق للروح، هو البطل المطلق الذي فَعَلَ ما أراد وأراد ما فَعَل، ومن ثم يتطابق التحقّقُ مع الحاضر. من هنا، فإن الفلسفة التي تموتُ في فكر التاريخ، لم تعدْ تستطيعُ تمجيدَ عالمها الا بشجبه، حيث أنها لكي تتكلم، لابد أن تفترض سلفاً أن هَذَا التاريخ الكلّي الذي إختزلَتْ إليه كلّ شيء، قد إكتمل فعلاً، وأن جَلْسَةَ المحكمة الوحيدة التي يمكن فيها النطق بحُكْمِ الحقيقة قد رُفِعَتْ.

(٧٧)

حين تُبيِّن البروليتاريا بوجودها ذاته وبالأفعال أن فكر التاريخ هذا لم يتم نسيانه، يكون فضح النتيجة هو في نفس الوقت تأكيدٌ للمنهج.

(٧٨)

لا يمكن إنقاذ فكر التاريخ الا بتحوُّله إلى فكر ممارسة؛ وممارسة البروليتاريا بوصفها طبقةً ثورية لا يمكن أن تكون أقلّ من الوعي التاريخي الذي يعمل على مجمل عالمها. وكل التيارات النظرية للحركة العمالية الثورية نشأت من مواجهة نقدية مع الفكر الهيجلي، عند ماركس مثلما عند شتيرنر Stirner وباكونين Bakounine .

(٧٩)

إن طابع نظرية ماركس الذي لا ينفصل عن المنهج الهيجلي لا ينفصل هو نفسه عن الطابع الثوري لهذه النظرية، أي عن حقيقتها. وقد جرى عموماً تجاهل هذه العلاقة الأولية أو إساءة فهمها، أو حتى استنكارها باعتبارها نقطة الضعف لما أصبح يُشكّل على نحو مضلِّل مذهباً ماركسياً. وقد كشف برنشتين Bernstein تماماً في **الاشتراكية النظرية والاشتراكية الديموقراطية العملية** هذه الصلة بين المنهج الجدليّ وبين الانحياز التاريخي، بتأسفه على التنبؤات غير العلمية لبيان عام ١٨٤٧ عن قرب وقوع الثورة البروليتارية في ألمانيا: «ان خداعَ-النفس التاريخي هذا، الذي يبلغُ من خطئه أن أفضلَ مستبصرٍ سياسي ماكان ليستطيع تحسينه، سيكونُ غير قابلٍ للفهم لدى ماركس، الذي كان في تلك الفترة قد درس الاقتصاد بجدية، مالم يَرَ المرءُ فيه نتيجةً لبقيةٍ باقية من الجدل الهيجلي النقيض الذي لم يستطع ماركس، ولا إنجلز، تحرير نفسه منه أبداً. وفي أوقات الفوران العام تلك، كان ذلك أشد شؤماً بالنسبة له.»

(٨٠)

القلبُ الذي قام به ماركس من أجل «إنقاذ عن طريق النقل» لفكر الثورات البرجوازية لا يتمثّل على نحوٍ تافهٍ في إحلال التطورّ المادي للقوى المنتجة محل رحلة الروح الهيجلية التي تسير

صوب الالتقاء بذاتها في الزمن، حيث يكون تشيؤها هو اغترابها، وحيث لا تترك جروحها التاريخية أيّ ندوب. فالتاريخ الذي صار واقعياً لم تَعُدْ له نهاية لقد دمَّر ماركس الموقع المنفصل لهيجل تجاه ما يحدث، وكذلك تأمُّلَ أي وسيط خارجي أعلى مهما كان. ولم يعد أمام النظرية، من الآن فصاعداً، سوى أن تعرف ما تفعل. وعلى النقيض، فإن تأمُّل حركة الاقتصاد، داخل الفكر السائد للمجتمع الراهن، هو التراث الذي لم يَتم تجاوزه للجزء غير-الجدلي في المسعى الهيجلي إلى نسق دائري: إنه استحسانٌ فَقَدَ بُعدَ المفهوم، ولم يعُد بحاجة إلى هيجلية لتبرير نفسه، لأن الحركة التي يمتدحُها ليست سوى قطاع دون رؤيةٍ للعالم، قطاع تسود حركته الميكانيكية المجموعَ بالفعل. ومشروع ماركس هو مشروع تاريخ واعٍ. فالكمّي الذي ينشأ في التطور الأعمى للقوى المنتجة الاقتصادية البحتة، لابد أن يتحول إلى تَمَلُّك تاريخي نوعي. ونقد الاقتصاد السياسي هو الفصل الأول لنهاية ما قبل-التاريخ هذه: «من بين كل أدوات الإنتاج، فإن القوة المنتجة الأعظم، هي الطبقة الثورية ذاتها».

(٨١)

ما يربط نظرية ماركس برباط وثيق مع الفكر العلمي هو الفهم العقلاني للقوى التي تعمل فعلاً في المجتمع. لكن نظرية ماركس أبعد من الفكر العلمي من الناحية الأساسية، ولا تحافظ على الفكر العلمي إلا بتجاوزه: إنها تتعلق بفهم الصراع وليس القانون. «نحن لا نعرف سوى علم وحيد: هو علم التاريخ»، هذا ما تقوله الإيديولوجيا الألمانية.

(٨٢)

إن الحقبة البرجوازية، التي تودّ أن تصنع أساساً علمياً للتاريخ، تتجاهل حقيقة أن هذا العلم المتاح عليه هو نفسه أن يجد مع الاقتصاد أساساً تاريخياً. وبالعكس، فإن التاريخ لا يعتمد جذرياً على هذه المعرفة إلا بقدر ما يظل هذا التاريخ تاريخاً اقتصادياً. أما المدى الذي استطاعت به وجهة نظر الملاحظة العلمية تجاهل دور التاريخ في الاقتصاد-تلك العملية الشاملة التي تُعدِّل نفس بديهياتها العلمية الأساسية-فيُظهره خيلاء تلك الحسابات الاشتراكية التي اعتقدت أنها قد حدَّدت الفترات الدورية المضبوطة للأزمات. والآن، بعد أن نجح التدخل المستمر للدولة في معادلة تأثير الميل إلى الأزمة، فإن نفس نمط التفكير يرى في هذا الاتزان تناغماً اقتصادياً حاسماً. إن مشروع تجاوز الاقتصاد، مشروع امتلاك التاريخ، إذا كان يجب عليه أن يعرف-وأن يمتص-علم المجتمع، لا يمكنه هو نفسه أن يكون علمياً. في هذه الحركة الأخيرة التي تعتقد أن بإمكانها السيطرة على التاريخ الراهن بواسطة معرفة علمية، تظلُّ وجهةُ النظر الثورية وجهةَ نظرٍ برجوازية.

(٨٣)

رغم أن التيارات الطوباوية للاشتراكية تقوم هي نفسها تاريخياً على أساس نقد التنظيم الاجتماعي القائم، فبالإمكان وصفها عن حق بأنها طوباوية بقدر ماترفض التاريخ-أي الصراع الواقعي الدائر، وكذلك حركة الزمن إلى أبعد من الاكتمال غير القابل للتغيير لصورتهم عن المجتمع السعيد-وليس لأنها ترفض العلم. فالمفكرون الطوباويون، على النقيض، يسيطر عليهم تماماً الفكر

العلمي كما فرضته القرون السالفة. وقد سعوا إلى إكمال هذا النسق العقلاني العام: فلم يعتبروا أنفسهم أبداً أنبياء عُزّل، إذ آمنوا بالسلطة الاجتماعية للبرهان العلمي وحتى، في حالة السان-سيمونية، بالاستيلاء على السلطة بواسطة العلم. وقد تساءل زومبارت Sombart ، «هل أرادوا الاستيلاء من خلال النضالات على ما يتوجب البرهنة عليه؟» إلا أن المفهوم العلمي للطوباويين لا يمتد ليشمل معرفة أن لمجموعات اجتماعية معيّنة مصالح في الوضع القائم، وقوى للحفاظ عليه، وكذلك أشكال من الوعي الزائف مناظرةً لتلك المواقف. هذا المفهوم يظل، إذن، متخلفاً عن الواقع التاريخي لتطور العلم ذاته، الذي وجّهه بدرجة كبيرة الطلب الإجتماعي النابع من أولئك الفاعلين، الذين لا يختارون ما يمكن السماح به فقط، بل كذلك ما يمكن بحثه. يظل الاشتراكيون الطوباويون أسرى نمط طرح الحقيقة العلمية، التي يدركونها وفق صورتها المجردة الخالصة، كما تم فرضُها في مرحلة مبكرة جداً للمجتمع. وكما لاحظ سوريل Sorel ، اعتقد الطوباويون أنهم يكتشفون ويوضحون قوانين المجتمع على أساس نموذج علم الفلك. والتناغم الذي يتصورونه، والمعادي للتاريخ، ينبع من محاولتهم أن يطبّقوا على المجتمع العلمَ الأقلَّ اعتماداً على التاريخ. ويُقدَّم هذا التناغم نفسه بنفس البراءة التجريبية للنيوتينية، والمصير السعيد الذي يجري افتراضه دوماً «يلعب في علمهم الاجتماعي دوراً مماثلاً للدور الذي يلعبه القصور الذاتي في الميكانيكا العقلية» (مواد من أجل نظرية للبروليتاريا).

(٨٤)

كان الجانب الحتمي - العلمي في فكر ماركس هو، على وجه الدقة، الفجوة التي نفذت منها، خلال حياته، وبعدها بدرجة أكبر، عملية «الأدلجة» idéologisation إلى التراث النظري الذي ورثته الحركة العمالية. يظل قدومُ ذات التاريخ مؤجلاً، أما العلمُ التاريخي بامتياز، أي الاقتصاد، فهو الذي يبينُ باضطراد إلى ضمان ضرورة نفيه المستقبلي الخاص. لكن ما يتم دفعُه على هذا النحو الى خارج مجال الرؤية النظرية هو الممارسة الثوريةُ، التي هي الحقيقة الوحيدة لهذا النفي. هكذا فإن ما يصبح مهمّاً هو دراسة التطور الاقتصادي بصبر، وكذلك قبول المعاناة بهدوء هيجلي، لتظل النتيجة «مقبرة للنوايا الطيبة». الآن يتم اكتشاف أنه، طبقاً لعلم الثورة، فإن الوعي يصل دائما مبكراً جداً، ويجب تعليمه للناس. «لقد أظهر التاريخ بجلاء أن حالة التطور الإقتصادي في القارة كانت في ذلك الحين أبعد ما تكون عن النضج ...»، هكذا سيقول إنجلز عام ١٨٩٥. طوال حياته، حافظ ماركس على وجهة النظر الموحّدة لنظريته، لكن طرح نظريته كان يتم على أرض الفكر السائد واكتسب تحدده في شكل انتقادات لمذاهب بعينها، ويشكل أساسي نقد العلم الاساسي للمجتمع البورجوازي، أي الاقتصاد السياسي. هذا التشويه، الذي تم قبوله فيما بعد على أنه نهائي، هو ما كوّن «الماركسية».

(٨٥)

إن ضعف نظرية ماركس هو بالطبع ضعف النضال الثوري للبروليتاريا في عصره. فلم تطلق الطبقة العاملة شرارة الثورة الدائمة في ألمانيا عام ١٨٤٨؛ وهُزمت الكومونة في عزلتها. ومن ثم لم تستطع النظرية الثورية بلوغ وجودها الكلي. وحقيقة أن ماركس اضطر للاقتصار على الدفاع عنها وتوضيحها بعمله المتأنق والمنعزل في المتحف البريطاني، هذه الحقيقة انطوت على خسارة

للنظرية ذاتها. أما التبريرات العلمية التي استخلصها ماركس حول مستقبل تطور الطبقة العاملة، والممارسة التنظيمية المرتبطة بهذه التبريرات، فهي التي تحولت إلى عقبات أمام الوعي البروليتاري في مرحلة لاحقة.

(٨٦)

كل أوجه النقص النظرية في الدفاع العلمي عن الثورة البروليتارية، في المضمون وكذلك في شكل الطرح، يمكن إرجاعها إلى مطابقة البروليتاريا مع البورجوازية **من وجهة نظر الاستيلاء الثوري على السلطة.**

(٨٧)

بإقامته البرهان على الصلاحية العلمية للسلطة البروليتارية على أساس محاولات الماضي **المتكررة**، أضفى ماركس غموضاً على فكره التاريخي، منذ البيان فصاعداً، لاضطراره إلى دعم صورة **خطية** لتطور أنماط الإنتاج الناشيء عن الصراعات الطبقية التي تنتهي، في كل مرة، «بتحويل ثوري للمجتمع بكامله أو بالتدمير المتبادل للطبقات المتصارعة». ولكن في الواقع الملاحَظ للتاريخ، كما أشار ماركس في موضع آخر، حافظ «نمط الإنتاج الآسيوي» على ثباته رغم كل المواجهات الطبقية، تماماً مثلما لم تهزم انتفاضاتُ الأقنان أبداً ملاكَ الأراضي [البارونات]، ومثلما لم تهزم تمرداتُ العبيد في العصور القديمة الرجالَ الاحرار. فالمخطط الخطّي تغيب عنه رؤية حقيقة أن البورجوازية هي الطبقة الثورية الوحيدة التي انتصرت على الإطلاق؛ وهي في نفس الوقت الوحيدة التي كان تطورُ الاقتصاد بالنسبة لها سببَ ونتيجة وضع يدها على المجتمع. وأدّى نفس التبسيط بماركس إلى إغفال الدور الاقتصادي للدولة في إدارة مجتمع طبقي. وإذا بدا أن البورجوازية الصاعدة قد حرّرت الاقتصادَ من الدولة، فقد فعلت ذلك إلى المدى الذي كانت به الدولة الأسبق أداةً للقمع الطبقي في **اقتصاد استاتيكي**. وقد طوّرت البورجوازية قوتَها الاقتصادية المستقلة في فترة ضعف الدولة في العصر الوسيط، في لحظة تشظّي إقطاعي لقوىً متعادلة. لكن الدولة الحديثة، التي بدأت، بواسطة المركنتيلية، في دعم تطور البورجوازية، والتي صارت هي دولتها في زمن «دعه يعمل، دعه يمر»، ستكتشف فيما بعد أنها تتمتع بقوةٍ محورية في الادارة المحسوبة **للعملية الاقتصادية**. الا أن ماركس استطاع، بواسطة مفهوم **البونابارتية**، أن يصف تَشَكُّل بيروقراطية الدولة الحديثة هنا، اندماج رأس المال والدولة، إرساءَ «سلطة قومية لرأس المال على العمل، قوة عامة مُنَظَّمَة للاستعباد الاجتماعي»، حيث تُنكِر البورجوازية كلَّ حياةٍ تاريخية مالم تُختَزَل هذه الحياة إلى التاريخ الاقتصادي للاشياء، ومالم تشأ أن تكون «محكوماً عليها بنفس العدم السياسي مثل بقية الطبقات». هنا تكون قد وُضِعت بالفعل الأسسُ الاجتماعية – السياسية للاستعراض الحديث، الذي يُعرِّف البروليتاريا سلبياً بأنها **المُطالِبُ الوحيدُ بالحياة التاريخية.**

(٨٨)

الطبقتان الوحيدتان اللتان تناظران فعلاً نظرية ماركس، الطبقتان النقيتان اللتان يؤدي إليهما كلّ تحليل رأس المال، ألاوهما البورجوازية والبروليتاريا، هما كذلك الطبقتان الوحيدتان الثوريتان

في التاريخ، لكن في شروط شديدة الاختلاف: فالثورة البورجوازية قد أنجزت، أما الثورة البروليتارية فهي مشروع، وُلِدَ على قاعدة الثورة السابقة، لكنه يختلف عنها نوعياً. وبتجاهل أصالة الدور التاريخي للبورجوازية، يُخفي المرء الأصالة العينية لهذا المشروع البروليتاري الذي لا يمكنه تحقيق أيي شيء إلاّ إذا حمل راياته الخاصة وعرف «ضخامة مهامه». وقد جاءت البورجوازية إلى السلطة لأنها طبقة الاقتصاد الآخذ في التطور. ولا يمكن للبروليتاريا أن تصل إلى السلطة إلاّ إذا أصبحت طبقة الوعي. ولا يمكن لنمو القوى المنتجة ضمانَ تلك السلطة، ولا حتى عن طريق الحرمان المتزايد الذي تُسبّبه. ولا يمكن أن تكون أداة البروليتاريا هي الاستيلاء اليعقوبي على سلطة الدولة. وما من ايديولوجيا يمكنها أن تساعد البروليتاريا على تمويه أهدافها الجزئية وكأنها أهداف عامة، إذ لا يمكنها الحفاظ على أي واقع جزئي يخصّها فعلاً.

(٨٩)

إذا كان ماركس، في فترة محدّدة من مشاركته في نضال البروليتاريا، قد توقّع الكثير من التنبؤ العلمي، إلى درجة خلق الأساس العقلي لأوهام النزعة الاقتصادية، فالمعروف أنه لم يخضع هو شخصياً لتلك الأوهام. ففي خطاب مشهور بتاريخ ٧ ديسمبر ١٨٦٧، مرفق بمقال ينقدُ هو نفسُه فيه رأس المال، وهو مقال سيتدمه إنجلز فيما بعد للصحافة على أنه من عمل أحد الخصوم، كشف ماركس بجلاء عن حدود علمه الخاص: «... إن الميل الذاتي للمؤلف»(الذي ربما فرضه عليه موقفه السياسي وماضيه)، أعني الطريقة التي يرى بها ويقدّم بها للآخرين النتائج النهائية للحركة الواقعية، للعملية الاجتماعية الواقعية، ليس لها علاقة بتحليله الفعلي.» هكذا فإن ماركس، بشجبه هو نفسه» «للنتائج المتحيزة» لتحليله الموضوعي، وبتهكمية كلمة «ربما» التي تشير إلى الخيارات اللا - علمية المفروضة عليه، يبيّن في نفس الوقت المفتاح المنهجي لاندماج الجانبين.

(٩٠)

في النضال التاريخي ذاته، يجب أن يتحقّق الاندماج بين المعرفة والفعل، بحيث يضمن كلُّ واحد من هذين المصطلحين صحة الآخر. وتأسُّس الطبقة البروليتارية في ذات يعني تنظيم النضالات الثورية وتنظيم المجتمع في اللحظة الثورية: فعند هذه اللحظة يجب أن توجد الشروط العملية للوعي، وهي الشروط التي تتأكد فيها الممارسة بتحولها إلى نظرية عملية. الا أنّ مسألة التنظيم المحورية هذه كانت أقلّ ما طوّرته النظرية الثورية من مسائل في حقبة تأسيس الحركة العمّالية، أي بالتحديد حينما كانت هذه النظرية لا تزال تتمتع بالطابع المُوحّد الذي جاء من فكر التاريخ (وهي ما تولّت النظرية على وجه الدقة مهمّة تطويره ليصبح ممارسة تاريخية موحّدة). وعلى العكس، فان هذه المسألة هي موضع عدم اتساق هذه النظرية، مما سمح بعودة أساليب التطبيق الدولاتية والمراتبية المستعارة من الثورة البورجوازية. وبدورها، فإن أشكال تنظيم الحركة العمالية، التي تم تطويرها على أساس هذا التنكر للنظرية، مالت الى منع الحفاظ على نظرية موحّدة، ومزّقتها الى معارف نوعية متعددة، متخصّصة وجزئية. وبسبب خيانة الفكر التاريخي الموحّد، لم يعد هذا الاغتراب الإيديولوجي عن النظرية قادراً على التعرّف على التحقّق العملي لهذا الفكر حين ينشأ مثل هذا التحقّق خلال النضالات العفوية للعمال؛ وكل ما باستطاعته هو اللجوء إلى كبت كلّ تبدٍ وكل ذكرى

لذلك التحقق. ورغم ذلك، فإن تلك الأشكال التاريخية التي تظهر خلال النضال هي بالضبط الوسط العملي الذي كانت النظرية بحاجة إليه لتصبح صادقة. إنها مُتطلّباتٌ للنظرية لن تتم صياغتها نظرياً. فلم يكن السوفييت اكتشافاً نظرياً؛ لكن تلمس وجوده في الممارسة هو أسمى صدق نظري لجمعية الشغيلة الأممية.

(٩١)

أدت النجاحات الأولى لنضال الأممية الى تحرّرها من التأثيرات المشوّشة للإيديولوجيا السائدة التي كانت لا تزال باقيةً في داخلها. لكن الهزيمة والاضطهاد اللذين سرعان ما لقيتهما جلبا إلى مكان الصدارة نزاعاً بين مفهومين للثورة البروليتارية، يتضمّن كلاهما بعداً تسلّطياً يهدر التحرير الذاتي الواعي للطبقة العاملة. وبالفعل، كان الشجار الذي بات مُتعذّر الحل بين الماركسيين والباكونينيين مزدوجاً، يُحيل في آن واحد الى السلطة في المجتمع الثوري والى التنظيم الراهن للحركة، وكانت مواقف الخصوم تنعكس عند الانتقال من أحد هذين الجانبين الى الآخر. فقد حارب باكونين وهمَ إلغاء الطبقات عن طريق الاستخدام التسلّطي لسلطة الدولة، متنبئاً بإعادة إرساء طبقة مسيطرة بيروقراطية وديكتاتورية أولئك الأكثر معرفةً، أو من يشتهرون بأنهم كذلك. أما ماركس، فاعتقد أن النمو الذي لا ينفصل للتناقضات الاقتصادية وللتربية الديمقراطية للعمال سيختزل دور الدولة البروليتارية إلى مرحلة بسيطة لتقنين العلاقات الاجتماعية الجديدة التي تفرض نفسها موضوعياً، وشجبَ باكونينَ وأنصاره بسبب النزعة التسلّطية لنخبة تآمرية وضعت نفسها عن عمد فوق الأممية وصاغت مخططاً متهوراً لتفرض على المجتمع الديكتاتورية غير المسئولة لأولئك الأكثر ثورية، أو من يُعيِّنون أنفسهم على أنهم كذلك. وبالفعل، كان باكونين يُجنّدُ أنصارهُ على أساس ذلك المنظور: «بوصفنا ملاّحين غير مرئيين في قلب العاصفة الشعبية، فلابد لنا أن نوجّهها، ليس بواسطة سلطة ظاهرة، بل بواسطة الديكتاتورية الجماعية لكل الحُلفاء. ديكتاتورية دونَ شارة، ودون لقبٍ، ودون حقٍ رسمي، لكنها أقوى رغم ذلك إذ لن يكون لها أي مظهرٍ من مظاهر السلطة». هكذا وقفت في تعارضٍ أيديولوجيتان للثورة العمالية، تحتوي كل واحدةٍ منهما على نقد صحيح جزئياً، لكنها تفقد وحدة فكر التاريخ، وتقيم من نفسها مرجعيةً autorité إيديولوجية .وقد وضعت منظمات قوية نفسها بإخلاصٍ في خدمة هذه الإيديولوجيا او تلك، مثل الاشتراكية - الديمقراطية الألمانية والاتحاد الفوضوي الأيبيري؛ وفي كل مكان كانت النتيجة شديدة الاختلاف عما كان مأمولاً.

(٩٢)

في النظر إلى هدف الثورة البروليتارية على أنه حاضرٌ مباشراً تكمن في آنٍ واحد عظمة وضعف النضال الفوضوي الفعلي (لأن مزاعم الفوضوية، في تنويعاتها الفردية النزعة تظلّ مثيرةً للسخرية). ولا تحتفظ الفوضوية الجماعية النزعة من الفكر التاريخي لصراعات الطبقات الحديثة إلا بالنتيجة، وإصرارها المطلق على هذه النتيجة يتبدّى في احتقارها المتعمد للمنهج. هكذا يظل نقدها للصراع السياسي مجرداً، بينما لا يتأكد اختيارها للنضال الاقتصادي إلا كمؤشرٍ على الوهم في حلٍ نهائي يأتي بضربة واحدة في هذا المضمار، يومَ الإضراب العام أو الانتفاضة. ان لدى الفوضويين مثلاً أعلى عليهم تحقيقه. والفوضوية هي نفي مازال ايديولوجيا للدولة وللطبقات، أي نفيٌ

لنفس الشروط الاجتماعية للإيديولوجيا المنفصلة، إنها ايديولوجيا الحرية الخالصة التي تساوي بين كل شيء وتنبذ كل فكرة عن شرٍّ تاريخي. هذه الرؤية التي تدمج كل المطالب الجزئية أكسبت الفوضوية فضل تمثيلها لرفض الشروط القائمة من أجل مُجمل الحياة، وليس من أجل تخصص نقدي مُتميز؛ لكن هذا الدمج، بوضعه في المطلق، وفق النزوة الشخصية، قبل تحققه الفعلي، قد إبتلى الفوضوية كذلك بعدم اتساق بالغ الوضوح. فليس على الفوضوية سوى أن تُكرّر وتُعيد نفس نتيجتها البسيطة الكلية في كل نضال منفرد، لأن هذه النتيجة الأولية قد تمت، منذ البداية، المطابقة بينها وبين المحصّلة الكليه للحركة. ومن هنا، كان بمقدور باكونين أن يكتب، عام ١٨٧٣، لدى تركه للاتحاد الجوراسيFédération Jurassienne قائلاً:« خلال السنوات التسع الماضية، تطوّرت داخل الأممية أفكارٌ تفوق ما يلزم لإنقاذ العالم، إذا كان بمقدور الأفكار وحدها أن تنقذه، وأتحدّى أي واحد مهما كان أن يبتكر فكرةً جديدة. لم يعد الوقتُ وقتَ أفكار، بل وقتَ حقائق وأفعال». ولا شكَّ أن هذا الفهم يحتفظ من الفكر التاريخي للبروليتاريا باليقين في أن الأفكار يجب أن تصبح ممارسةً، لكنه يخرج من مجال التاريخ بافتراضه أن الأشكال الملائمة لهذا الانتقال الى الممارسة قد وُجدت فعلاً ولن تتغيّر أبداً.

(٩٣)

إن الفوضويين، الذين يُميزون أنفسهم بوضوح عن مجمل الحركة العمالية بيقينهم الإيديولوجي، يعيدون، فيما بينهم، إنتاج هذا الفصل بين الكفاءات، فهم يتيحون مجالاً مواتياً للسيطرة غير المباشرة على كل المنظمات الفوضوية، من جانب دعائيين ومدافعين عن إيديولوجيتهم، أخصائيين يكون مستواهم، بشكل عام، أشدّ تدنيًا بقدر ما يتمثل نشاطهم الذهني أساساً في ترديد حقائق نهائية معيّنة. وعلى العموم، فإن التوقير الايديولوجي للإجماع في أتخاذ القرار، قد حبّذ السلطة المطلقة العنان، داخل المنظمة نفسها، لأخصّائيي الحرية؛ وتترقع الفوضوية الثورية من المحكّان المحرّرين نفس النوع من الإجماع، الذي يتم التوصّل إليه بنفس الوسائل. وفضلاً عن ذلك، فإن رفض الفوضوية أن تأخذ في الاعتبار التعارض في الظروف بين أقليةٍ محتشدة في النضال الراهن وبين جماعة الأفراد الأحرار، قد غذّى الانفصال الدائم بين الفوضويين في لحظة اتخاذ القرار المشترك، كما يبيّن مثال التمردات الفوضوية اللانهائية في إسبانيا، التي تم عزلها وسحقها على مستوى محلّي.

(٩٤)

الوهم الذي تُضمره الفوضوية الأصيلة، بدرجة أو أخرى من الوضوح، هو المثولُ الدائم لثورةٍ وشيكة سوف تُثبتُ، بتحققها على نحو فوري، صدقَ الايديولوجيا، وصحةَ التنظيم العملي المستمَدّ من الإيديولوجيا. وقد قادت الفوضوية، بالفعل، عام ١٩٣٦، ثورةً اجتماعيةً واستهلالاً لسلطة بروليتارية، هي أكثر نماذج السلطة البروليتارية تقدماً على الإطلاق. لكننا يجب أن نلاحظ في هذا السياق، من جهة، أن إشارة التمرد العام قد فرضها اعلان تمرد الجيش Pronunciamiento. ومن جهة أخرى، أنه بقدر مالم تكتمل هذه الثورة خلال الأيام الأولى، (بسبب وجود سلطة فرانكو في نصف أراضي البلاد، مدعومةً دعماً قوياً من الخارج بينما بقية الحركة البروليتارية الأممية قد هُزمت فعلاً؛ وبسبب استمرار بقاء قوى بورجوازية أو قوى أحزاب عمالية دولاتية أخرى داخل معسكر الجمهورية)،

أظهرت الحركة الفوضوية المنظّمة أنها عاجزة عن توسيع الانتصارات الجزئية للثورة، أو حتى عن مجرد الدفاع عنها. وأصبح زعماؤها المشهورون وزراء، ورهائنَ للدولة البورجوازية التي دمّرت الثورة لتخسر بعد ذلك الحرب الأهلية.

(٩٥)

«الماركسية الأرثوذكسية» للأممية الثانية هي الايديولوجيا العلمية للثورة الاشتراكية: فهي تماهي مجملَ صدقها مع السيرورة الموضوعية في الاقتصاد، ومع التقدم في ادراك هذه الضرورة في صفوف الطبقة العاملة التي تتثقف عن طريق التنظيم. تعيد هذه الإيديولوجيا اكتشاف الثقة في التدليل التوضيحي البيداجوجي الذي ميّز الاشتراكية الطوباوية، لكنها تمزجه بالاشارة التأملية إلى مسار التاريخ: لقد فقد هذا الموقفُ البعد الهيجلي للتاريخ الكليّ بقدر ما فقد الصورة الساكنة للمجموع الكليّ totalité والموجودة لدى النقد الطوباوي (الذي بلغ ذروته لدى فورييه Fourier). ذلك الموقف العلمي، الذي لا يستطيع أن يفعل سوى إحياء سيمترية من الخيارات الأخلاقية، هو المنبع الذي تصدر عنه كل هراءات هيلفردينغ Hilferding حين يقرر أن إدراك ضرورة الاشتراكية لايعطي «أي مؤشر على الموقف العملي الذي يجب اتخاذه. لأن إدراك ضرورة ما شيءٌ، ووضع المرء لنفسه في خدمة هذه الضرورة شيءٌ آخر» (رأس المال المصرفي Finanz Kapital). إن من أخفقوا في إدراك أن الفكر التاريخي الموحَّد، بالنسبة لماركس، وبالنسبة للبروليتاريا الثورية، لا يختلف في شيء عن الموقف العملي الواجب اتخاذه، عادةً ما يصبحون ضحايا للممارسة التي تبنّوها.

(٩٦)

منحت ايديولوجيا المنظمة الاشتراكية - الديمقراطية السلطة فيها لأساتذة يثقّفون الطبقة العاملة، وكان الشكل التنظيمي الذي تم تبنّيه ملائماً لهذا التأهيل السلبي. ولا جدال في أن مشاركة إشتراكيي الأممية الثانية في النضالات السياسية والاقتصادية كانت كبيرة، لكنها لا - نقدية على نحوٍ عميق، ولقد تمت قيادتها، باسم الوهم الثوري، وفق ممارسته إصلاحية واضحة. وهكذا كان لابد للايديولوجيا الثورية أن يحطّمها نفس نجاح من يعتنقونها. وأدّى الوضع المنفصل للنواب والصحفيين داخل الحركة بمن تم تجنيدهم من بين المثقفين البورجوازيين إلى تبنّي نمط حياة بورجوازي. أمّا أولئك الذين تم تجنيدهم انطلاقاً من نضالات عمال الصناعة،وكانوا هم أنفسهم عمالاً، فقد حولتهم البيروقراطية النقابية إلى سماسرة لقوة العمل، يبيعونها كسلعة، مقابل ثمنٍ عادل. ولو كان لنشاطهم أن يحافظ على بعض المظهر الثوري، لكان لابد للرأسمالية أن تجد نفسها في حينه؛ عاجزةً عن أن تتحمل اقتصادياً تلك الاصلاحية التي كانت تحتملها سياسياً في تحريضهم الشرعي. لكن مثل ذلك التعارض الذي كان علمُهم يضمنه، كان التاريخ يكذّبه في كل لحظة.

(٩٧)

هذا التناقض هو ماكان لدى برنشتين من الأمانة ما يجعله يودّ توضيح حقيقته، حيث أنه كان الاشتراكي- الديمقراطي الأشد ابتعاداً عن الإيديولوجيا السياسية والأوضح إرتباطاً بمنهجية العلم البورجوازي - وقد أوضحته الحركة الاصلاحية للعمال الإنجليز بتخليها عن الايديولوجيا الثورية.

لكن هذا التناقض ما كان ليوضحه سوى التطور التاريخي ذاته. فمهما كانت الأوهام التي إمتلأ بها برنشتين بصدد أمور أخرى، فقد نفى أن أزمةً في الانتاج الرأسمالي سوف تفرض بشكل سحري سيطرة الاشتراكيين الذين لايريدون أن يرثوا الثورة الا عن طريق هذا الطقس الشرعي. أما لحظة التفجُّر الاجتماعي العميق الذي نشأ مع الحرب العالمية الأولى، رغم خصوبتها في اكتساب الوعي، فقد أظهرت مرتين أن المراتبية الاشتراكية - الديمقراطية لم تُثقِّف الناس ثورياً، ولم تُحوِّل العمّال الألمان مطلقاً الى مُنظِّرين: أولاً، حين احتشدت الغالبية العظمى من الحزب الى جانب الحرب الإمبريالية، وبعدها، حين سحقت، وهي مهزومة، الثوريين الاسبارتاكيين. وكان العامل السابق إيبرت Ebert لازال يؤمن بالخطيئة، لأنه سلفٌ صالح للعمثيل الاشتراكي représentation الذي سرعان ما واجهَ البروليتاريا الروسية كعدوٍ مطلق لها، وذلك بصياغته للبرنامج الدقيق لهذا الاستلاب الجديد «الاشتراكية تعني العمل كثيراً».

(٩٨)

لم يكن لينين، بوصفه مفكّراً ماركسياً، سوى كاوتسكيٍّ مخلص ومُتّسق، طبّقَ الإيديولوجيا الثورية لهذه «الماركسية الأرثوذكسية» على الشروط الروسية، وهي شروط لم تكن تسمح بالممارسة الإصلاحية التي كانت الأممية الثانية تنفّذها في أماكن أخرى. هنا، في السياق الروسي، نجد أن الادارة الخارجية للبروليتاريا، والتي تعمل بواسطة حزب سرّي منضبط، خاضع للمثقفين الذين تحولوا إلى «ثوريين محترفين»، شكّلت مهنةً ترفضُ التعاملَ مع أي مهنةٍ من المهن المسيطرة للمجتمع الرأسمالي (وعلى أية حال، كان النظام السياسي القيصري عاجزاً عن تقديم مثل تلك الفُرص، التي تقوم على أساس مرحلةٍ متقدّمة من السلطة البورجوازية). ومن ثم أصبحت هذه المهنةُ مهنةَ الإدارة المطلقة للمجتمع.

(٩٩)

مع الحرب وانهيار الاشتراكية - الديمقراطية العالمية في مواجهة الحرب، انتشرت الراديكالية الإيديولوجية التسلّطية للبلاشفة على نطاق العالمِ كله. وقد حوّلت النهايةُ الدامية للأوهام الديمقراطية للحركة العمالية العالمَ بأسره إلى روسيا، وبتسيُّد البلشفية على أول انقطاع ثوري أحدثته فترة الأزمة تلك، قدّمت إلى بروليتاريا جميع البلدان نموذجها المراتبي والايديولوجي حتى «تتكلم بالروسية» مع الطبقة الحاكمة. ولم يؤنّب لينين ماركسية الأممية الثانية لكونها ايديولوجيا ثورية، بل لأنها كفّت عن أن تكون كذلك.

(١٠٠)

إن نفس اللحظة التاريخية التي انتصرت فيها البلشفية لصالح نفسها في روسيا، والتي خاضت فيها الاشتراكية - الديمقراطية قتالاً ظافراً لصالح العالم القديم، هذه اللحظة تحدّد الميلادَ المكتملَ لوضع الأمور الذي يكمن في قلب سيطرةِ الاستعراض الحديث: أن التمثيل représentation العمّالي يتعارض جذريا مع الطبقة العاملة.

(١-١)

« في كل الثورات السابقة، » كتبت روزا لوكسمبورج في روته فانه Rote Fahne عدد ٢١ ديسمبر ١٩١٨، « كان المتحاربون يتنازلون بعضهم وجهاً لوجه: طبقة ضد طبقة، برنامج ضد برنامج. أماني الثورة الحالية، فإن قوات حماية النظام القديم لا تتدخل تحت شعار الطبقات الحاكمة، بل تحت راية «حزب اشتراكي - ديمقراطي». ولو طُرح السؤال المحوري للثورة بوضوح وأمانة: رأسمالية أم اشتراكية، فلن يكون لدى الكتلة الضخمة من البروليتاريا اليوم أي شك، أو أي تردد». هكذا، وقبل أيام معدودات من تدميره، اكتشف التيار الراديكالي للبروليتاريا الألمانية سرّ الشروط الجديدة التي خلقتها كل السيرورة السابقة (والتي أسهم فيها التمثيل العمالي بقدر كبير): التنظيم الاستعراضي للدفاع عن النظام القائم، السيادة الاجتماعية للتبديات التي لم تعد ممكناً فيها طرح أي «سؤال محوري بوضوح وأمانة». لقد أصبح التمثيل الثوري للبروليتاريا في هذه المرحلة هو العامل الرئيسي والنتيجة المحورية للتزييف العام للمجتمع.

(١-٢)

إن تنظيم البروليتاريا وفق النموذج البلشفي الذي وُلد من التخلف الروسي ومن تخلّي الحركة العمالية للبلدان المتقدِّمة عن النضال الثوري، قد وجد كذلك في التخلف الروسي كلَّ الشروط التي قادت هذا الشكلَ من التنظيم صوب الانتكاس الثوري - المضاد الذي كان يحملُ دون وعي بذرتَهُ الأصلية. أما التراجع المتكرر لمجمل الحركة العمالية الأوروبية في مواجهة هنا الوردة، فلتقفز هنا Hic Rhodus, hic salta لفترة ١٩١٨ - ١٩٢٠، وهو تراجعٌ تضمّن التدمير العنيف لأقليّتها الراديكالية، فقد حبَّذ إكتمال تطورِ البلشفية وأتاح لهذه النتيجة الزائفة أن تؤكد نفسَها أمام العالم باعتبارها الحلَّ البروليتاريَّ الأوحد. فعن طريق الاستيلاء على احتكار الدولة للتمثيل وللدفاع عن سلطة العمال، برَزَ الحزبُ البلشفي نفسه، وأصبح ما كانه: أي حزب مالكي البروليتاريا، مُصَفِّياً الأشكال الأسبق من الملكية من الناحيةِ الأساسية.

(١-٣)

طوال عشرين عاماً من السجال النظري الذي لم يصل إلى حل، فحصت مختلفُ اتجاهات الاشتراكية - الديمقراطية الروسية كلَّ شروط تصفية القيصرية: ضعف البورجوازية، وثقل الأغلبية الفلاحية، والدور الحاسم لبروليتاريا مُركّزة ومقاتلة لكنها تشكل أقليةً بالغة الضآلة في البلاد. لكن هذا السجال وجد حلَّهُ أخيراً في الممارسة عن طريق عنصرٍ لم يكن موجوداً في الافتراضات: هو البيروقراطية الثورية التي أدارت البروليتاريا، واستولت على سلطة الدولة، وأعطت المجتمع سيطرةً طبقية جديدة. كانت الثورة البورجوازية بالمعنى المحدّد مستحيلة؛ وكانت «الديكتاتورية الديمقراطية للعمال والفلاحين» بلا معنى؛ ولم تستطع السلطة البروليتارية للسوفييتات الحفاظ على نفسها في آن واحد ضد طبقة صغار ملاك الأراضي، وضد الرجعية البيضاء المحلية والدولية، وضد نفس تمثيلها الخارجي والمستلَب في شكل حزبٍ عمالي للسادة المطلقين للدولة، والاقتصاد، والتعبير ثم للفكر بعدها. وكانت نظرية الثورة الدائمة لتروتسكي وبارفوس Parvus، والتي تبنّاها لينين فعلياً في أبريل عام ١٩١٧، هي النظرية الوحيدة التي صارت صادقة بالنسبة للبلدان التي كان التطور

الاجتماعي للبورجوازية فيها متخلفاً. لكن هذه النظرية لم تصبح صادقة إلا بعد إدخال هذا العنصر المجهول الذي هو السلطة الطبقية للبيروقراطية. وخلال الجدالات العديدة داخل الإدارة البلشفية، كان لينين هو المدافع الأكثر اتساقاً عن تركيز الديكتاتورية في أيدي الممثلين النهائيين للإيديولوجيا وكان لينين على صواب ضد خصومه في كل مرة من حيث أنه كان يؤيد الحل الذي كان متضمناً في الاختيارات السابقة للسلطة المطلقة للأقلية: فالسلطة التي تم حجبها عن الفلاحين عن طريق الدولة سيتوجب حجبها كذلك عن العمال، مما أدى إلى حجبها عن القادة الشيوعيين للنقابات، وعن الحزب بأسره، وأخيراً عن قمة قيادة الحزب المراتبي، وفي المؤتمر العاشر [الحزب]، في لحظة هزيمة سوفييت كرونشتات بالسلاح ودفنه تحت ركام الافتراءات، أعلن لينين ضد البيروقراطيين اليساريين المنضمين في «المعارضة العمالية» النتيجة التالية، التي سيوسع ستالين منطقها ليصبح تقسيماً كاملاً للعالم، «هنا أو هناك، سنمضي مع بندقية، لكن ليس مع المعارضة .... لقد نلنا كفايتنا من المعارضة».

(١٠٤)

بعد كرونشتات، دعمت البيروقراطية – التي أصبحت المالك الوحيد لرأسمالية دولة – سلطتها في الداخل أولاً عن طريق تحالف مؤقت مع الفلاحين، مع السياسة الاقتصادية الجديدة، وفي الخارج عن طريق استخدام العمال المجيّشين في الأحزاب البيروقراطية للأممية الثالثة كدعامات للدبلوماسية الروسية، لتخرّب بذلك كل حركة ثورية وتساند الحكومات البورجوازية التي كانت بحاجة الى تأييدها في السياسة الدولية (سلطة الكومنتانغ في الصين أعوام ١٩٢٥ – ١٩٢٧، والجبهة الشعبية في إسبانيا وفرنسا، إلى آخره). لكن كان على المجتمع البيروقراطي أن يواصل تعزيز نفسه بممارسة الإرهاب على الفلاحين لإنجاز التراكم الرأسمالي الأولي الأشد وحشية في التاريخ. ويكشف تصنيع الحقبة الستالينية هذا الحقيقة النهائية للبيروقراطية: انها استمرار سلطة الاقتصاد، والحفاظ على جوهر المجتمع السلعي بالإبقاء على العمل – السلعة. هكذا يتعزز الاقتصاد المستقل، الذي يسيطر على المجتمع الى درجة أنه يخلق من جديد، لأغراضه الخاصة، السيطرة الطبقية اللازمة له. مما يعني أن البورجوازية قد خلقت سلطة مستقلة يمكنها، طالما بقي هذا الاستقلال، أن تصل إلى حد الاستغناء عن بورجوازية. ليست البيروقراطية الشمولية «آخر طبقة مالكة في التاريخ» بالمعنى الذي يقصده برونو ريتسي Bruno Rizzi، بل مجرد طبقة حاكمة بديلة للاقتصاد السلعي. تُستبدَلُ الملكيةُ الخاصة الرأسمالية المتدهورة ببديل مُبسَّط، وأقل تنوعاً، مُركّز في ملكية جماعية للطبقة البيروقراطية. هذا الشكل المتخلف للطبقة الحاكمة هو التعبير عن التخلف الاقتصادي؛ وليس له من منظور سوى تعويض تأخر النمو في مناطق معينة من العالم. والحزب العمالي، المنظّم وفق نموذج الانفصال البورجوازي، هو الذي قدّم الإطار المراتبي – الدولاتي لهذه الطبعة الإضافية من الطبقة الحاكمة. وقد لاحظ أنطون سيليجا Anton ciliga وهو في أحد سجون ستالين أن «المسائل التقنية للتنظيم اتضح أنها مسائل اجتماعية». (لينين والثورة).

(١٠٥)

الإيديولوجيا الثورية، اتساقُ ما هو منفصل، والتي تمثل اللينينية أرقى محاولة إرادية النزعة لها volontariste بتوليها ادارة واقع يرفضها، تعود، مع الستالينية، الى حقيقتها في

هدم الاتساق. عند هذه النقطة لاتعود الإيديولوجيا سلاحاً، بل هدفاً. والكذبةُ التي لم تعد تُواجَه بالتكذيب تتحول الى جنون. يذوبُ الواقع وكذلك الهدفُ في الإشهار الإيديولوجي الشمولي : وكل ما يقوله هو كل ما هنالك. وهذه بدائيةٌ محلّية للاستعراض، الاّ أن لها دوراً جوهرياً في تطور الاستعراض العالمي. والإيديولوجيا التي تتجسّد هنا لم تُغيِّر العالم اقتصادياً. إنها فقط غيّرت الإدراك بواسطة البوليس.

(١٠٦)

الطبقةُ الإيديولوجية – الشمولية في السلطة هي سلطةُ عالم مقلوب رأساً على عَقِب : فكلما ازدادت قوةً، كما ازداد زعمُها أنها غير موجودة، وتُفيد قوتها بالدرجة الأولى في تأكيد عدم وجودها. وتواضعها يقتصر على هذه النقطة فحسب، لأن عدم وجودها الرسمي لابد أن يتطابق مع لتطور التاريخي الذي لامزيد عليه، nec plus ultra! والذي لابد في نفس الوقت أن يُعزَى الى قيادتها التي لاتخطيء. بانتشارها في كل مكان،يجب أن تكون البيروقراطية هي الطبقة الخفية أمام الوعي، والنتيجة أن تصبح كل الحياة الاجتماعية مجنونة. والتنظيم الاجتماعي للكذبة المطلقة ينبع من هذا التناقض الأساسي.

(١٠٧)

كانت الستالينيةُ حكمَ الإرهاب داخل الطبقة البيروقراطية ذاتها. فالإرهاب الذي يشكل أساس سلطة هذه الطبقة لابد كذلك أن يصيب هذه الطبقة، لأنها لا تملك أي ضمانٍ قانوني، ولا أي وجود معترف به كطبقةٍ مالكة، يمكنها أن توسّعه لشمل كل واحد من أعضائها. ولم تصبح البيروقراطيةُ مالكةً إلا عن طريق الوعي الزائف، لأن ملكيتها الحقيقية مخبأةٌ. والوعي الزائف لايحافظ على سلطته المطلقة إلاّ بالإرهاب المطلق، حيث ينتهي الأمرُ بكل حافز حقيقي إلى الضياع. ولا يملك أعضاءُ الطبقة البيروقراطية حقٌ ملكية المجتمع إلاّ جماعياً، بوصفهم مشاركين في كذبة أساسية : فعليهم أن يلعبوا دور بروليتاريا تدير مجتمعاً اشتراكياً؛ عليهم أن يكونوا ممثلين اوفياء لنص خيانة ايديولوجية. لكن المساهمة الفعالة في هذا الزيف تتطلب هي نفسها الاعتراف بها بوصفها مساهمة حقيقية. ولا يمكن لأي بيروقراطي أن يدافع بمفرده عن حقه في السلطة، لأن إثبات أنه بروليتاري اشتراكي يعني تقديم نفسه على أنه نقيض البيروقراطي؛ وإثبات أنه بيروقراطيٌ مستحيل، حيث أن الحقيقة الرسمية للبيروقراطية هي أنها غير موجودة. وهكذا يعتمد كل بيروقراطي اعتماداً مطلقاً على ضمانة مركزية من الإيديولوجيا، التي تمنح حق المشاركة الجماعية في «سلطتها الاشتراكية» لكل البيروقراطيين الذين لا تصفّيهم. إذا كان البيروقراطيون في مجموعهم يقررون بشأن كل شيء، فإن تلاحُم طبقتهم ذاتها لايمكن ضمانُه سوى بتركيز سلطتهم الإرهابية في شخص واحد فقط. وفي هذا الشخص تكمن الحقيقة العملية الوحيدة للزيف مُتولياً السلطة :وهي الثبات الذي لايقبل الجدل لحدوده التي تتعدّل باستمرار. ان ستالين يقرر بلارجعة من يكون بيروقراطياً مالكاً في النهاية؛ أي من يجب تسميته بأنه«بروليتاري في السلطة» أوخائن مأجور للميكادو أو لوول ستريت». ولاتجد الذرّات البيروقراطية جوهر حقها المشترك سوى في شخص ستالين. ستالين هو حاكم العالم الذي يعرف بهذه الطريقة أنه الشخص المطلق، الذي لاتفوق وعيَهُ أي روح أسمى منه.وإن حاكم العالم يمتلك

الوعي الفعال بما يكونه - السلطة الكلية للفعالية -- في العنف المدمرُ الذي يمارسه ضد ذوات رعاياه، الآخرين الذي يشكّلون نقيضه. إنه السلطة التي تحدد حقل السيطرة، تماما مثلما هو السلَطة التي تخرّب هذا الحقل».

(٨ - ١)

حين تتحول الإيديولوجيا، التي صارت مطلقةً من خلال امتلاك السلطة المطلقة، من معرفة جزئية الى زيف شمولي، تكون تصفية فكر التاريخ قد اكتملت تماماً لدرجة أن وجود التاريخ نفسه لايعود ممكناً، حتى على مستوى المعرفة الأشد إمبريقية. إن المجتمع البيروقراطي الشمولي يحيا في حاضر أبدي، لايكون فيه كل ماوقع موجوداً إلاّ بوصفه مكاناً تستطيع الشُرطة مداهمته. والمشروع الذي صاغه نابوليون «للحاكم الذي يوجّه طاقة الذاكرة»، وجد أخيراً تجسّده النهائي في التلاعب الدائم بالماضي، ليس في دلالاته فحسب، بل في وقائعه. لكن الثمن المدفوع لهذا التحرر من كل واقع تاريخي هو فقدان المرجع العقلاني الذي لاغنى عنه للمجتمع التاريخي للرأسمالية. ومن المعروف كم كلّف التطبيقُ العلميُ للايديولوجيا المجنونة الاقتصادَ الروسي، ولو عن طريق احتيال ليسينكو Lyssenko وحده. هذا التناقض لبيروقراطية الشمولية التي تدير مجتمعاً مُصنّعاً، والواقعة في مأزق بين حاجتها الى« العقلانية ورفضها لما هو عقلاني، هو أحد عيوبها الرئيسية إذا قورنت بالتطور الرأسمالي العادي. وكما البيروقراطية عاجزة عن حل المسألة الزراعية على النحو الذي فعلته الرأسمالية، فإنها في النهاية أدنى من الرأسمالية في الإنتاج الصناعي، المخطط تسلطياً من أعلى والقائم على أساس اللاواقعية والزيف المُعمّم.

(٩ - ١)

فيما بين الحربين العالميتين، تمت تصفية الحركة العمالية الثورية بواسطة العمل المشترك للبيروقراطية الستالينية والشمولية الفاشية، التي استعارت شكلها التنظيمي من الحزب الشمولي الذي جرت تجربته في روسيا. كانت الفاشية دفاعاً متطرفاً عن الاقتصاد البورجوازي الذي تتهدده الأزمة والتخريب البروليتاري. إنها حالة حصار L'état de siège داخل المجتمع الرأسمالي، بواسطتها يُنقذ هذا المجتمعُ نفسَه ويمنحها عقلانية أولية عاجلة بجعل الدولة تتدخل في ادارتة على نطاق واسع. لكن هذه العقلانية ذاتها واقعةٌ تحت وطأة اللاعقلانية البالغة لوسائلها. والفاشية نفسها ليست إيديولوجيةً من الناحية الأساسية، رغم أنها تهرع للدفاع عن النقاط المحورية للإيديولوجيا البورجوازية التي أصبحت محافظة (العائلة، الملكية، النظام الأخلاقي، الأمة)، وتجمع بذلك شمل البورجوازية الصغيرة والعاطلين الذين حطّمتهم الأزمة أو خدعهم عجز الثورة الاشتراكية. وهي تُقدّم نفسها كما هي : أي كانبعاث عنيف للأسطورة، يتطلب المشاركة في جماعة تحدّدُها قيم - زائفة عتيقة : هي العرق، والدم، والزعيم. الفاشية هي نزعة عتيقة مُجهّزة تقنياً. ومحاكاتها Er-satz المتعفنة للأسطورة تستعادُ في السياق الاستعراضي لأحدث وسائل التحكّم والوهم. ومن هنا، فإنها أحد عوامل تشكيل الاستعراض الحديث، كما أن دورها في تدمير الحركة العمالية القديمة يجعل منها إحدى القوى الأساسية للمجتمع الراهن. لكن، لما كانت الفاشية هي كذلك الشكل الأكثر تكلفة للحفاظ على النظام الرأسمالي، فإن من الطبيعي أن تُخلي مقدّمة المسرح للأدوار الكبرى التي تلعبها الدول الرأسمالية: أن تُصفّيها أشكالٌ أقوى وأكثر عقلانية لنفس النظام.

(١١٠)

الآن، بعد أن نجحت البيروقراطية الروسية أخيراً في التخلص من بقايا الملكية البورجوازية التي كانت تعوق سيطرتها على الاقتصاد، وفي تطوير هذه الملكية لأغراضها الخاصة، وفي نيل الاعتراف بها في الخارج بين القوى الكبرى، فإنها تودّ التمتع بعالمها في هدوء، وذلك بكبت العنصر التعسفي الذي مورس عليها هي نفسها : تشجُب الستالينية الكامنة في أصلها. لكن هذا الشجب يظل ستالينياً، وتعسفياً، وبلاتفسير، ويتم تصحيحه باستمرار، **لأن الكذبة الإيديولوجية الكامنة في أصله لايمكن البوح بها أبداً.** من هنا لايمكن للبيروقراطية أن تجعل نفسها ليبرالية لا ثقافياً ولاسياسياً لأن وجودها كطبقة يتوقف على احتكارها الإيديولوجي الذي يمثل، رغم كل ثقله، صك ملكيتها الوحيد. ولاشك أن الإيديولوجيا قد فقدت حماس توكيدها الإيجابي، لكن التفاهة اللامبالية المتبقّية تتولى دورا قمعياً لمنع أدنى منافسة وتكبيل الفكر برمته. هكذا ترتبط البيروقراطية بإيديولوجيا لم يعد يُصدقها أحد. وما كان إرهابياً صار مثاراً للسخرية. لكن مثار السخرية هذا يمكنه المحافظة على نفسه الا بأن يحافظ، في الخلفية، على الإرهاب الذي يود التخلص منه. هكذا، وفي نفس اللحظة التي تريد فيها البيروقراطية إظهار تفوقها على أرض الرأسمالية، فإنها تكشف عن كونها **نسيباً فقيراً** للرأسمالية. ومثلما يتناقض تاريخها الفعلي مع مزاعمها، ويتناقض جهلها المعروض بابتذال مع ادعاءاتها العلمية، فإن مشروعها لمنافسة البورجوازية في إنتاج الوفرة السلعية تعرقله حقيقة أن تلك الوفرة تحمل في داخلها **ايديولوجيتها الضمنية**، وعادةً ماتصاحبها حرية لانهائية الاتساع للخيارات الاستعراضية الزائفة، حرية - زائفة لكنها لاتتمشى مع الإيديولوجيا البيروقراطية.

(١١١)

في اللحظة الراهنة من التطور، أخذ حق البيروقراطية في الملكية الايديولوجية يتهاوى على المستوى الدولي. فالسلطة التي أقامت نفسها قومياً بوصفها نموذجاً أممياً من الناحية الأساسية، عليها أن تقر بأنها لم تعد قادرةً على التظاهر بالحفاظ على تلاحمها الكاذب فيما وراء كل حدود قومية. والتطور الاقتصادي غير المتكافيء لبعض البيروقراطيات ذات المصالح المتنافسة، التي نجحت في امتلاك «اشتراكيتها» خارج البلد الواحد، أدّى إلى المواجهة العلنية والشاملة بين الكذبة الروسية والكذبة الصينية. وبدءاً من هذه النقطة، ستمضي في طريقها الخاص كلُ بيروقراطية في السلطة، أو كل حزب شمولي مُرشّح للسلطة التي خلّفتها الفترة الستالينية في بعض الطبقات العاملة القومية. وقد زادت من تفاقم التحلّل العالمي لتحالف التضليل البيروقراطي تبديات النفي الداخلي الذي بدأ يتأكد للعالم مع ثورة عمال برلين الشرقية، الذين واجهوا البيروقراطيين بطلب «حكومة من عمال التعدين»، وهي تبدّيات أدت في احدى المرات بالفعل الى سلطة المجالس العمالية في المجر. الا أن التحلّل العالمي للتحالف البيروقراطي يُعدُّ، في التحليل الأخير، أقل العوامل مواتاةً للتطور الحالي للمجتمع الرأسمالي. فالبورجوازية في طريقها لأن تفقد الخصمَ الذي ساندها موضوعياً بتقديمه توحيداً وهمياً لكل نفي للنظام القائم. وحين ينقسم الدورُ الثوري الزائف بدوره، يضعُ ذلك نهايةً لهذا التقسيم للعمل داخل الاستعراض. سوف ينهار نفسُ العنصر الاستعراضي لانهيار الحركة العمالية.

(١١٢)

لم يُعد للوهم اللينيني اليوم من قاعدةٍ سوى في مختلف الاتجاهات التروتسكية، حيث مازال التماهي بين المشروع البروليتاري والمنظمة المراتبية للإيديولوجيا قائماً بعناد بعد خبرة كلّ نتائجه. كذلك فإن المسافة التي تفصل بين التروتسكية وبين النقد الثوري للمجتمع الراهن تتيح لها الحفاظ على مسافة توقيرية إزاء مواقف كانت زائفة فعلاً حين اتُخذت خلال معركة فعلية. وقد ظل تروتسكي، حتى عام ١٩٢٧، متضامناً من الناحية الأساسية مع البيروقراطية العليا، ساعياً الى الاستيلاء عليها كي يجعلها تواصل العمل البلشفي الحقيقي في الخارج(ومن المعروف أنه في تلك اللحظة، وحتى يساعد على إخفاء «وصيّة لينين» الشهيرة، وصل الى حدّ التنصّل بالافتراءات من مؤيِّده ماكس إيستمان Max Eastman، الذي أذاع هذه الوصية). كان تروتسكي أسير منظوره الأساسي، ففي اللحظة التي تعرفت فيها البيروقراطية على نفسها في نتيجتها كطبقة مضادة – للثورة في الداخل، توجّب عليها كذلك اختيار أن تكون فعلياً مضادةً للثورة في الخارج باسم الثورة، مثلما في عقر دارها. وينطوي نضال تروتسكي التالي في سبيل أممية رابعة على نفس عدم الاتساق. فقد رفض طوال حياته الاعتراف بأن البيروقراطية هي سلطة طبقة منفصلة، لأنه كان خلال الثورة الروسية الثانية قد أصبح نصيراً مطلقاً للشكل البلشفي للتنظيم. وحين أوضح لوكاتش، عام ١٩٢٣، أن هذا الشكل التنظيمي هو الواسطة médiation التي طال انتظارها بين النظرية والممارسة، حيث يكفّ البروليتاريون عن كونهم «متفرجين» على الأحداث التي تجري في منظمتهم ليختاروا ويعيشوا بوعي هذه الأحداث، فإنه بذلك قد نسب إلى الحزب البلشفي من المزايا الفعلية كل ما لم يكنه الحزب البلشفي. كان لوكاتش، إلى جانب عمله النظري العميق، داعيةً ايديولوجيا، يتحدث باسم سلطة خارجية، بأشد الطرق ابتذالاً، عن الحركة البروليتارية، مُتوهِّماً ومُوهِماً أنه يجد نفسه، بشخصه كلّه، داخل هذه السلطة وكأنها سلطته هو. لكن الأحداث التالية بيّنت كيف تتنصّل هذه السلطة من خدمها وتتمهم؛ وفي تنصُّل لوكاتش الدائم من نفسه، ظهر بوضوح كاريكاتوري ما كان يتماهى معه : كان يتماهى مع نقيض نفسه، ونقيض ما كان قد تبنّاه في التاريخ والوعي الطبقي. ان لوكاتش هو أفضل برهانٍ على القاعدة الأساسية التي تنطبق على مثقفي هذا القرن : إن ما يحترمونه هو مقياس دقيق لواقعهم الخاص المثير للغثيان. لكن لينين لم يشجّع أبداً هذا النوع من الأوهام بشأن نشاطه هو وقد اعتبر «أن حزباً سياسياً لا يمكنه فحص أعضائه ليرى إذا ما كان ثمة تناقضات بين فلسفتهم وبين برنامج الحزب». والحزب الواقعي الذي رسم لوكاتش، في وقت غير مناسب، صورته الخيالية، لم يكن منسجماً إلاللقيام بمهمةٍ محددة وجزئية : هي الاستيلاء على سلطة الدولة.

(١١٣)

الوهم اللينيني – الجديد للتروتسكية الراهنة، الذي يُكذّبه في كل لحظةٍ واقعُ المجتمع الرأسمالي الحديث، البورجوازي أو البيروقراطي، يجدُ على نحو طبيعي مجال تطبيقه المميَّز في البلدان «المتخلفة» المستقلّة رسمياً، حيث تتلاعب لطبقات الحاكمة المحلية عن وعيٍ بوهم تنويعةٍ معيّنة من الاشتراكية الدولاتية والبيروقراطية باعتباره الإيديولوجيا البسيطة للتنمية الاقتصادية. ويرتبط التشكيل الهجين لهذه الطبقات بدرجةٍ أو أخرى من الوضوح برتبتها في

الطيف البورجوازي - البيروقراطي، والألعاب التي تقوم بها هذه الطبقات على المستوى الدولي بين هذين القطبين للسلطة الرأسمالية الراهنة، وكذلك حلولها الوسط الإيديولوجية - خصوصاً مع النزعة الإسلامية - تُعبِّر عن الواقع الهجين لقاعدتها الاجتماعية، وتستبعد من هذا النتاج - الثانوي للاشتراكية الإيديولوجية كل ما هو جاد باستثناء الشُرطة. تتشكل إحدى البيروقراطيات عن طريق قيادتها للنضال القومي والتمرد الزراعي للفلاحين : ومنذ تلك اللحظة، مثلما في الصين، تشرع في تطبيق النموذج الستاليني للتصنيع في مجتمع اقل تطوراً من روسيا عام ١٩١٧. وقد تتشكل بيروقراطية قادرة على تصنيع البلاد من بين صفوف البورجوازية الصغيرة من كوادر الجيش الذين يستولون على السلطة، مثلما يبين مثال مصر. وفيط بعض المناطق، مثلما في الجزائر عند نهاية حرب الاستقلال، تسعى البيروقراطية، التي تشكلت كقيادة شبه - دولاتية خلال النضال، إلى نقطة توازن حل وسط يتيح الإندماج مع بورجوازية قومية ضعيفة. وأخيراً، في المستعمرات السابقة بإفريقيا السوداء، التي مازالت مرتبطة بوضوح بالبورجوازية الغربية، الأمريكية والأوربية، تتشكل البورجوازية - انطلاقاً من قوة زعماء القبائل التقليديين في الغالب - عن طريق امتلاك الدولة : في تلك البلدان التي تظل فيها الإمبريالية الأجنبية هي السيد الحقيقي للاقتصاد، تأتي مرحلةٌ يتلقى فيها الكومبرادور ملكية دولةٍ محلية كمكافأة لهم على بيعهم للمنتجات المحلية، دولة مستقلة أمام الجماهير المحلية لكن ليس أمام الإمبريالية. في هذه الحالة، تكون البورجوازية بُورجوازيةً مصطنعة غير قادرة على إحداث التراكم، بل قادرة فقط على تبديد نصيبها من فائض قيمة العمل المحلي وكذلك المساعدات الخارجية للدول أو الاحتكارات التي تحميها. وبسبب العجز الواضح لهذه الطبقات البورجوازية عن القيام بالوظيفة الاقتصادية العادية للبورجوازية، تواجه كل واحدةٍ منها خطر تخريب من الطراز البيروقراطي المتكيف بدرجة أو بأخرى مع الخصوصيات المحلية، ويتلهفُ على الاستيلاء على ميراث هذه البورجوازية لكن نفس نجاح البيروقراطية في مشروعها الرئيسي للتصنيع يتضمن بالضرورة أفق هزيمتها التاريخية : إذ بتحقيقها لتراكم رأس المال، فإنها تحقق تراكم البروليتاريا، وبذلك تخلق نفيها ذاته، في بلدٍ لم يكن موجوداً فيه من قبل.

(١١٤)

في هذا التطور المعقَّد والفظيع الذي نقل حقبة الصراعات الطبقية إلى شروط جديدة، فقدت بروليتاريا البلدان الصناعية تماماً تركيد منظورها المستقل، كما فقدت، في التحليل الأخير، أوهامها، لكن ليس وجودها. فلم يتوقف نموها. ولازالت موجودة بشكل لايمكن اختزاله داخل الاستلاب المكثف للرأسمالية الحديثة: إنها الغالبية العظمى من العمال الذين فقدوا كل سلطةٍ على استخدام حياتهم، والذين، فور أن يعرفوا ذلك، يعيدون تعريف أنفسهم بأنهم البروليتاريا، النفي الذي يعمل داخل هذا المجتمع، وموضوعياً. دعم هذه البروليتاريا الاختفاءُ المستمر للفلاحين، وامتداد منطق عمل - المصنع الى قطاع ضخم من «الخدمات» والمهن الذهنية. لكن هذه البروليتاريا مازالت، ذاتياً، بعيدةً عن وعيها الطبقي العملي، ليس فقط لدى المستخدَمين ذوي الياقات البيضاء، بل كذلك بين العمال المأجورين الذين لم يكتشفوا حتى الآن سوى عجز وتضليل السياسة القديمة. لكن، حين تكتشف البروليتاريا أن نفس قوّتها الخارجية عنها تسهم في التدعيم الدائم للمجتمع الرأسمالي، ليس فقط في شكل العمل الذي تقدمه، بل كذلك في شكل النقابات، أو الأحزاب، أو

سلطة الدولة التي أقامتها لتُحرِّرَ نفسها، فإنها تكتشف كذلك بالخبرة التاريخية العينية أنها هي الطبقة المعادية تماماً لكل خارجية متجمدة وكلّ تخصيص للسلطة. إنها تحمل الثورة التي لايمكنها ان تترك أي شيء خارجها، إنها تحمل مطلب السيطرة الدائمة للحاضر على الماضي، والنقدَ الشامل للانفصال؛ وهذا مايجب أن يجد شكله المناسب خلال الفعل. ولايُمثِّل أيُّ تحسّن كميّ في بؤسها، ولا أي وهم تكامل مراتبي، أيَّ علاج دائم لسخطها، لأن البروليتاريا لايمكنها التعرف على نفسها حقاً في أي اساءة محددة لحقت بها ولا في تصحيح إساءة محدّدة، ولا في تصحيح عدد ضخم من هذه الإساءات، بل فقط في الإساءة المطلقة لكونها ملفوظةً على هامش الحياة.

(١١٥)

إن العلامات الجديدة للنفي، التي لايفهمها ويزيِّفها الخداع الاستعراضي، والتي تتضاعف في البلدان الأكثر تقدماً من الناحية الاقتصادية، تتيح للمرء التوصل الى نتيجة أن حقبةً جديدةً قد بدأت : فبعد محاولة التخريب العمالي الأولى، نجد أن الرخاء الرأسمالي هو الذي أخفق الآن. حين تقمعُ النقابات قبل غيرها نضالات العمال الغربيين المعادية – للنقابات، حين تشن التياراتُ المتمرِّدة من الشباب احتجاجاً أولياً لاشكل له، يحمل في داخله بصورة مباشرة رفض السياسة القديمة المتخصِّصة، في الفن وفي الحياة اليومية، فإننا نرى كلا جانبي نضال عفوي جديد يبدأ تحت قناع جنائي. هذه تباشير هجوم بروليتاري ثانٍ ضد المجتمع الطبقي. وحين يعاود الأبناء الضالون لهذا الجيش الذي مازال خاملاً، حين يعاودون الظهور في هذا الميدان، الذي تحول الى شيء آخر ومازال هو نفسه، فإنهم يتبعون «جنرالاً لد général Ludd» جديد يحثهم، هذه المرّة، على تحطيم آلات الاستهلاك المسموح به.

(١١٦)

إن «الشكل السياسي الذي اكتُشف في النهاية والذي يمكن فيه تحقيق التحرر الاقتصادي للعمل» قد اكتسب في هذا القرن ملامح واضحة في المجالس العمالية الثورية، التي تركّز في ذاتها كل وظائف القرار والتنفيذ، وترتبط مع بعضها فيدرالياً عن طريق نوّابٍ مسئولين أمام القاعدة ويمكن سحبهم في أي لحظة. الا أن وجودها الفعلي لم يكن حتى الآن سوى بداية عابرة، سرعان ماحاربتها وهزمتها مختلف القوى المدافعة عن المجتمع الطبقي، التي يجب أن ندرج بينها الوعي الزائف لهذه المجالس. وقد أصرّ بانيكوك Pannekoek عن حق على أن اختيار سلطة المجالس العمالية «يطرح مشكلات» أكثر مما يقدّم حلولاً. لكن في هذه السلطة بالتحديد يمكن أن تجد مشكلات الثورة البروليتاريّة حلها الحقيقي، ففيها تجتمع من جديد الشروط الموضوعية للوعي التاريخي؛ تحقق التواصل المباشر الفعال، وينتهي التخصّص، والمراتبية، والانفصال، وتكون الشروط القائمة قد تحوّلت الى «شروط وحدة». هنا يمكن أن تنبثق الذات البروليتارية من نضالها ضد التأمل؛ فوعيها مُعادلٌ للمنظمة العملية التي تمنحها لنفسها، لأن هذا الوعي نفسه لاينفصل عن التدخلُ المتّسق في التاريخ.

(١١٧)

في سلطة المجالس، التي يجب أن تحلّ عالمياً محل كل سلطة أخرى، تكون الحركة البروليتاريةُ نتاجَ نفسها وهذا النتاج هو المنتجُ ذاتُه. إنها تمثل الهدف بالنسبة لنفسها. هنا فقط يجدُ النفيُ

الاستعراضي للحياة نفيه بدوره.

(١١٨)

كان ظهور المجالس هو الحقيقة الأسمى للحركة البروليتارية خلال الربع الأول من هذا القرن، وهي حقيقة ظلت مشوهة أو غير ملحوظة لأنها اختفت مع بقية الحركة التي نفاها وصفّاها مجمل الخبرة التاريخية منذ ذلك الحين. وفي اللحظة الجديدة للنقد البروليتاري، تعود هذه النتيجة بوصفها النقطة الوحيدة التي لم تُهزَم من الحركة المهزومة. والوعي التاريخي، الذي يعرف أن هذا هو المكان الوحيد لوجوده، يمكنه الآن الإقرار بهذه الحقيقة، ليس بوصفها على محيط ماينحسر، بل في مركز مايصعد.

(١١٩)

إن منظمةً ثورية موجودة قبل سلطة المجالس -يجب أن تجد شكلها الخاص خلال النضال- تعرف بالفعل، لكل هذه الأسباب التاريخية، أنها لاتُمثِّل الطبقة العاملة. وعليها فقط أن تدرك نفسها على أنها انفصالٌ جذريٌ عن عالم الانفصال.

(١٢٠)

المنظَّمة الثورية هي التعبير المتَّسق عن نظرية الممارسة وهي تدخل في تواصل غير - أحادي الجانب مع النضالات العملية، خلال تحولها الى نظرية عملية. وممارستها نفسها هي تعميم التواصل والاتساق في هذه النضالات. وفي اللحظة الثورية لتحلُّل الانفصال الاجتماعي، لابد لهذه المنظمة أن تُقرّ بتحللها الخاص كمنظمة منفصلة.

(١٢١)

لايمكن للمنظمة الثورية أن تكون أقل من نقدٍ موحَّد للمجتمع، أي نقدٍ لايساوم مع أي شكل من أشكال السلطة المنفصلة، في أي مكانٍ من العالم. ونقد يُوجَّه على نحوٍ كلّي ضد كل جوانب الحياة الاجتماعية المستَلَبة. وفي نضال المنظمة الثورية ضد المجتمع الطبقي، لاتعدو الأسلحة أن تكون جوهر المتحاربين أنفسهم: فلا يمكن للمنظمة الثورية أن تعيد في داخلها إنتاج شروط الانقسام والمراتبية التي هي شروط المجتمع السائد. ولابد أن تناضلَ على الدوام ضد تشويهها في الاستعراض المسيطر. والحد النهائي الوحيد للمشاركة في الديمقراطية الكلّية للمنظمة الثورية هو إدراك كل أعضائها وتَمَلُّكهم الفعلي اتساق نقدها، وهو اتساق يجب اثباته في النظرية النقدية بالمعنى المحدد وفي العلاقة بين النظرية وبين النشاط العملي.

(١٢٢)

حين يجعل الاستلابُ الرأسمالي المتزايد باستمرار، على كل المستويات، من الصعوبة بمكانٍ أن يدركَ العمالُ بؤسَهم ويسمُّوه باسمه، ولايتركُ أمامهم من بديل سوى رفض مجمل بؤسهم، أو لاشيء، فإن على المنظمة الثورية أن تتعلَّم أنها لم تعد تستطيع أن تحارب الاستلاب بأشكال مُستَلَبة.

(١٢٣)

تتوقف الثورة البروليتارية تماماً على شرط أن النظرية، وللمرة الأولى، بوصفها ذكاءً للممارسة الانسانية، هي ما يجب أن تُقِرّ به وتعيشه الجماهير. إنها تتطلب أن يصبح العمالُ دياليكتيكيين وأن ينقشوا فكرهم في ممارسة؛ هكذا، فإنها تطلبُ من رجال دون مزايا(*) أكثر مما طلبته الثورة البورجوازية من الرجال المؤهَّلين الذين أوكلت إليهم القيام بمهامها : لأن الوعي الإيديولوجي الجزئي الذي بناه جزءٌ من الطبقة البورجوازية كان في أساسه هذا الجزء المحوري من الحياة الاجتماعية، الذي هو الاقتصاد، الذي كانت فيه هذه الطبقة في السلطة فعلاً. ان تنس تطور المجتمع الطبقي وصولاً الى التنظيم الاستعراضي لما ليس حياً، يقود، من ثم، المشروعَ الثوري الى أن يصبح على نحو مرئي ما كانه حتى الآن جوهرياً.

(١٢٤)

النظرية الثورية الآن هي عدوٌّ كل ايديولوجيا ثورية، وهي تعرف أنها كذلك.



(*) التعبير منقول عن رواية روبرت موزيل بعنوان: رجل دون مزايا- م

(٥)

الزمان والتاريخ

أيها السادة، الحياة قصيرة !
وإذا كنا نحيا، فإننا نحيا لنطأ الملوك.

شكسبير، هنري الرابع

(١٢٥)

الإنسان، ذلك «الكائن السلبي الذي لايوجد إلاّبقدر ما يقمع الوجود»، مماثلٌ للزمن. وتملّك الانسان لطبيعته الخاصة يعني كذلك إحكام قبضته على تفتّح الكون. «التاريخ هو نفسه جزءٌ واقعي من التاريخ **الطبيعي**، من تحول الطبيعة إلى إنسان.» (ماركس). وبالعكس، فهذا «التاريخ الطبيعي» ليس له أي وجود فعلي سوى من خلال سيرورة تاريخ انساني، من خلال الجزء الوحيد الذي يعيد التقاط هذا الكل التاريخي، مثل التليسكوب الحديث الذي تلتقط عدستُه، **خلال الزمن**، هروب غيمات السديم عند أطراف الكون. لقد وُجد التاريخ دوماً، لكنه لم يوجد دائماً في شكل تاريخي. واكتساب الإنسان للزمنية، كما يتم من خلال توسّط المجتمع، يعادل اكتساب الزمن للطابع الإنساني. فالحركة اللاواعية للزمن تتبدّى **وتصبح حقيقة** في الوعي التاريخي.

(١٢٦)

الحركة التاريخية بمعناها المحدد، رغم أنها **لازالت خفية**، تبدأ خلال التشكُّل البطيء وغير المحسوس لـ «الطبيعة الحقّة للإنسان»، هذه «الطبيعة التي تولد داخل نطاق التاريخ الإنساني – داخل نطاق الفعل التوليدي للمجتمع الإنساني –» لكن المجتمع الذي طوّر تقنيةً ولغةً، اذا كان قد أصبح نتاجاً لتاريخه ذاته، فليس لديه وعيٌ سوى بحاضر أبدي. هنا نجد أن كل معرفة، محدودة بذاكرة أكبر الناس سناً، يحملها دائماً **أحياء**. ولا يُفهم الموت ولا التناسل كقانون للزمن. يظل الزمن ساكناً، مثل فضاء مُقفل. وحين يصبح مجتمعٌ أكثر تعقيداً على وعي بالزمن، فإنه يكرس جهده لنفيه، لأنه لايرى في الزمن ما يمضي، بل ما يعود. يُنظّم المجتمعُ السكونيُ الزمنَ وفق خبرته المباشرة بالطبيعة، على شكل زمن دوري.

(١٢٧)

يسود الزمن الدوري خبرة الأقوام الرُّحّل، لأنهم يجدون نفسَ الظروف تتكرر في كل لحظات تنقّلهم : وقد لاحظ هيجل أن «تجوال الرحل شكليٌ فقط، لأنه محدود بفضاءات متجانسة». والمجتمع الذي يثبّتُ نفسه مكانياً، فيعطي الفراغ مضموناً عن طريق ترتيب الأماكن الفردية الطابع، يجد نفسه بذلك حبيس هذا الموضع. الآن تتحول العودة الزمنية الى أماكن متشابهة الى عودة خالصة للزمن في نفس المكان، الى تكرار لسلسلة من الايماءات. يمثل الانتقال من حياة الارتحال الرعوية الى

زراعة الاستقرار نهاية الحرية الكسولة دون مضمون، وبداية العمل. ان نمط الإنتاج الزراعي عموماً، المحكوم بإيقاع الفصول، هو أساس الزمن الدوري المكتمل البناء. والأبدية داخلية فيه : إنها عودة نفس الشيء هنا على الأرض. والأسطورة هي البناءُ الموحَّد للفكر الذي يضمن كلَّ النظام الكوني المحيط بالنظام الذي أنجزه هذا المجتمع داخل حدوده.

(١٢٨)

يتم التملُّك الاجتماعي للزمن، إنتاج الإنسان من خلال العمل الإنساني، داخل مجتمع منقسم إلى طبقات. والسلطة التي تقيم نفسها فوق الفقر المدقع لمجتمع الزمن الدوري، الطبقة التي تنظِّم العمل الاجتماعي وتتملك فائض القيمة المحدود، تملك كذلك فائض القيمة الزمني لتنظيمها للعمل الاجتماعي: إنها تملك لنفسها فقط زمن الأحياء الذي لايقبل الانعكاس. الثروة الوحيدة التي يمكن أن توجد مُركَّزةً في مجال السلطة وتُنفق مادياً في احتفالات باذخة، تُنفَق كذلك في تبديد للزمن التاريخي فوق سطح المجتمع. فمالكو فائض القيمة التاريخي يملكون معرفة الأحداث المُعاشه والتمتع بها. هذا الزمن، المنفصل عن التنظيم الجماعي للزمن الذي يسود مع الإنتاج المتكرر عند قاعدة الحياة الاجتماعية، يطفو فوق نفس مجتمعه السكوني. إنه زمن المغامرة والحرب، حيث يتتبعُ سادةُ المجتمع الدوري دروب تاريخهم الشخصي، وهو كذلك زمنُ المواجهات مع المجتمعات الأجنبية، تشوش النظام الذي لايتغير للمجتمع. هكذا يمر التاريخ أمام البشر كأنه عنصر غريب، كأنه مالم يرغبوا فيه وظنّوا أنهم في مأمن منه.لكن عن طريق هذا الالتفاف يعود القلق Linquiétude السلبي الإنساني، الذي كان كامناً في أصل كل التطور الذي غلبه النعاس.

(١٢٩)

الزمن الدوري هو في ذاته زمنٌ دون صراع. لكن الصراع مزروع في طفولة الزمن هذه: يناضل التاريخُ أولاً لكي يصبح تاريخاً في النشاط العملي للسادة. وهذا التاريخ يخلقُ بشكل سطحي مالايقبل الانعكاس؛ وحركته تؤسس نفس الزمن الذي يستهلكه، داخل الزمن غير القابل للاستهلاك للمجتمع الدوري.

(١٣٠)

«المجتمعات الباردة» هي تلك التي أبطأت إلى آخر مدى نشاطها التاريخي؛ وأبقت تعارضها مع الوسط المحيط الطبيعي والإنساني، ومعارضتها الداخلية، في اتزان دائم. وإذا كان التنوّع البالغ للمؤسسات المقامة لهذا الغرض يشهد على مرونة الخلق - الذاتي للطبيعة الإنسانية، فإن هذه الشهادة لاتبدو بديهية الأبالنسبة للمراقب الخارجي، بالنسبة للعالم الإثنولوجي العائد من الزمن التاريخي، ففي كل واحدٍ من هذه المجتمعات، نجد أن بنيةً محددة قد استبعدت التطور. والامتثالية المطلقة للممارسات الاجتماعية القائمة، التي تتماهى معها كل الإمكانات الانسانية على الدوام، ليس لها حد نهائي خارجي سوى الخوف من معاودة الوقوع في الحيوانية العديمة الشكل. هنا، لكي يظلَّ البشر بشراً، لابد لهم أن يظلوا على ماهم عليه.

(١٣١)

إن مولد السلطة السياسة، الذي يبدو مرتبطاً بآخر الثورات التكنولوجية الكبرى، مثل صهر الحديد، على مشارف فترة لن تشهد صدمات عميقة حتى ظهور الصناعة، يحدد كذلك اللحظة التي تبدأ فيها روابط القرابة في التحلل. ومنذ ذلك الحين، يترك تتابعُ الأجيال دائرة الطبيعة الدورية الخالصة لكي يصبح تتابعاً للسلطات توجهه الأحداث. الآن يصبح الزمن غير القابل للانعكاس زمنَ من يحكمون؛ والسلالات الحاكمة هي مقياسه الأول. والكتابة هي سلاحه. في الكتابة، تصل اللغة إلى واقعها المستقل الكامل كتوسُّط بين الأفهام. لكن هذا الاستقلال مماثل للاستقلال العام للسلطة المنفصلة كتوسُّط يؤسس المجتمع. مع الكتابة يظهر وعي لم تعد تحمله وتتقله العلاقة المباشرة بين الأحياء: إنه ذاكرة لاشخصية، هي ذاكرة إدارة المجتمع. «الكتابات هي أفكار الدولة؛ والأرشيفات هي ذاكرتها». (نوفاليس Novalis).

(١٣٢)

التقويم الزمني La chronique هو التعبير عن زمن السلطة غير القابل للانعكاس، وهو كذلك الأداة التي تحافظ على التقدمُ الإرادي لهذا الزمن ابتداءً من سابقه. لأن هذا التوجيه للزمن ينهار مع انهيار كل سلطةٍ محددة؛ ويعاود السقوط في النسيان اللامبالي للزمن الدوري، الزمن الوحيد الذي تعرفه الجماهير الفلاحية والذي لايتغيّر أبداً خلال انهيار الامبراطوريات وتقاويمها الزمنية. لقد وضع مالكو التاريخ في الزمن معنى: اتجاهاً هو دلالةٌ أيضاً. لكن هذا التاريخ ينهض ويسقط على حدَة؛ تاركاً المجتمع الواقع أسفله دون تغيير، لأن هذا التاريخ هو على وجه الدقة مايظل منفصلاً عن الواقع المشترك، وهذا هو السبب في أننا نختزل تاريخ امبراطوريات الشرق إلى تاريخ الديانات: فهذه التقاويم الزمنية التي تحولت إلى حُطام لم تُخلّف سوى التاريخ المستقل ظاهرياً للأوهام التي كانت تغلفها. والسادة الذين يستحوذون، على الملكية الخاصة للتاريخ، تحت حماية الاسطورة، يستحوذون، بالدرجة الأولى، على الملكية الخاصة لنمط الوهم: ففي الصين وفي مصر امتلكوا لزمن طويل احتكار خلود الروح؛ كما أن سلالاتهما الحاكمة الأولى هي الترتيب الخيالي للماضي. إلا أن الامتلاك الوهمي للسادة يمثل كذلك كل الملكية الممكنة، في تلك اللحظة، لتاريخ مشترك ولتاريخهم الخاص. ويترافق توسيع سلطتهم التاريخية الفعلية مع تعميم شعبي للملكية الأسطورية الوهمية. وينبع هذا كله من الحقيقة البسيطة القائلة بأنه بقدر ما يأخذ السادة على عاتقهم أن يضمنوا أسطورياً استمرار الزمن الدوري، مثلما في الطقوس الموسمية لأباطرة الصين، فإنهم يتحررون، هم أنفسهم، من الزمن الدوري.

(١٣٣)

التقويم الزمني الجاف دون تفسير للسلطة المتألهة التي تخاطبُ خُدامها، والتي لاتودُ أن تُفهَم إلا بوصفها تنفيذاً أرضياً لوصايا الأسطورة، هذا التقويم حين يمكن تجاوزه ويصبح تاريخاً واعياً، فإن ذلك يتطلب أن تكون مجموعات واسعة قد عاشت المشاركة الفعلية في التاريخ. ومن هذا التواصل العملي بين من يعترفون ببعضهم على أنهم مالكون لحاضر فريد، خَبِروا الثراء النوعي للأحداث بوصفه نشاطهم وموقع حياتهم - أي حقبتهم -، تُولد اللغة العامة للتواصل التاريخي. هنا يكتشفُ

من وُجد الزمنُ غيرُ القابل للانعكاس بالنسبة لهم الشيء الجدير بالتَذكُّر وكذلك خطر النسيان في آن واحد :«هنا يقدم هيرودوت من هاليكارناسوس نتائج استقصائه، حتى لايُبطِلَ الزمن أعمال البشر...»

(١٣٤)

التفكير في التاريخ هو، على نحو لاينفصل، **تفكيرٌ في السلطة**. وقد كانت اليونان هي تلك اللحظة التي جرت فيها مناقشة السلطة وتغيُّرها، إنها **ديمقراطية سادة المجتمع**. كانت شروط الإغريق هي عكس الشروط التي تعرفها الدولة الاستبدادية، حيث لاتسوي السلطة حساباتها أبداً إلا مع نفسها، داخل الظلمة المتعذِّرة البلوغ لأكثر نقاطها كثافة: عن طريق **ثورة القصر**، التي يضعها النجاح أو الإخفاق خارج المناقشة على حد سواء. إلا أن السلطة التي تتشارك فيها المجتمعات الإغريقية لم تكن موجودة إلا في **إنفاق** حياةٍ اجتماعية ظلَّ انتاجها منفصلاً وسكونياً داخل الطبقة الخاضعة. إذ لايحيا سوى الذين لايعملون. وفي الانقسام بين المجتمعات الإغريقية، وفي الصراع لاستغلال المدن الأجنبية، فإن مبدأ الانفصال الذي كان يشكل داخلياً أساس كل مجتمع منها، اكتسب طابعاً. ان اليونان التي حَكَمت بالتاريخ الكوني، لم تنجح في التوحد في مواجهة الغزو - أو حتى في توحيد روزنامات مدنها المستقلة. في اليونان، أصبح الزمن التاريخي واعياً، لكنه ليس واعياً بذاته بعد.

(١٣٥)

بعد اختفاء الشروط المواتية محليّاً والتي عرفتها المجتمعات الإغريقية، لم تكن عودةُ الفكر التاريخي الغربي مصحوبةً بإعادة إقامة التنظيمات الأسطورية القديمة. ومن المواجهات بين شعوب المتوسِّط، ومن تَشكُّل وانهيار الدولة الرومانية، ظهرت **ديانات شبه - تاريخية** صارت عوامل أساسية للوعي الجديد بالزمن، والدرع الجديد للسلطة المنفصلة.

(١٣٦)

كانت الديانات التوحيدية حلاً وسطاً بين الأسطورة والتاريخ، بين الزمن الدوري الذي مازال يحكم الإنتاج وبين الزمن غير القابل للانعكاس حيث تتواجه الأقوام وتتشكَّل من جديد. فالديانات التي نبعت من اليهودية هي الاعتراف الكلّي المجرَّد بالزمن غير القابل للانعكاس الذي صار ديمقراطياً، مفتوحاً للجميع، لكن في نطاق الوهم. الزمن موجَّهٌ بكامله صوب حدثٍ نهائي وحيد: «مملكة الرب قريبة» وقد وُلدت هذه الديانات على أرض التاريخ، وأسَّست نفسها هناك. لكنها مازالت هناك تحافظ على معارضتها الجذرية للتاريخ. فالديانة شبه - التاريخية تُقيم نقطة انطلاقٍ نوعيةٍ في الزمن، هي ميلادُ المسيح، أو هجرةُ محمد، لكن بإدخالها تراكماً يمكن أن يأخذ في الإسلام شكلَ الفتح، أو في مسيحية عصر الاصلاح شكلَ نمو رأس المال، فإن زمنها غير القابل للانعكاس يكون قد انقلب في الفكر الديني ليصبح **عداً تنازلياً**: إنه الأمل في دخول العالم الآخر الأصيل قبل انقضاء الزمان، إنه انتظار يوم الحساب. لقد خرجت الأبديةُ من الزمن الدوري. وهي ماوراء الزمن الدوري، إنها العنصر الذي يوقف لاانعكاسية الزمن، العنصر الذي يكبت التاريخ داخل التاريخ ذاته، بوضعها

لنفسها على الجانب الآخر للزمن غير القابل للانعكاس، بوصفها عنصرَ توقيت خالص عاد إليه الزمن الدوري وألغى نفسه. وسوف يقول بوسويه Bossuet : «وعن طريق الزمن الذي ينقضي، ندخل الى الأبدية التي لاتنقضي».

(١٣٧)

العصر الوسيط، هذا العالم الأسطوريُ غيرُ المكتمل، الذي يقعُ كمالُه خارجَه، هو اللحظةُ التي يخضعُ فيها التاريخُ حقاً الزمنَ الدوري، الذي مازال ينظّم الجزءَ الأكبرَ من الإنتاج. يتم الإقرار فردياً لكل شخص بزمنية معينة غير قابلة للانعكاس، في تتابع مراحل العمر، في اعتبار الحياة بمثابة رحلةٍ، مرورٍ بلاعودة خلال عالم يقع معناه في مكان آخر؛ والحاجُ هو الإنسان الذي يخرج من هذا الزمن الدوري ليصبح فعلاً ذلك الرحالة الذي يمثّل رمزياً كلَّ شخص. مازالت الحياة التاريخية الشخصية تجد تحققها في دائرة السلطة، في المشاركة في الصراعات التي تقودها السلطة وفي الصراعات حول السلطة المتنازَع عليها؛ لكن زمن السلطة غير القابل للانعكاس يتم اقتسامه الى مالانهاية، وتحت التوحيد العام للزمن الموجَّه للحقبة المسيحية، في عالم من الإيمان المسلح، تدور فيه لعبة السادة حول الولاء، والنزاع حول الولاء المُستَحَق. هذا المجتمع الإقطاعي، الذي وُلد من التقاء «البنية التنظيمية للجيش الفاتح كما تطوَّرت خلال الفتح» و«القوى الإنتاجية التي وُجدت في البلد المفتوح» (الإيديولوجيا الالمانية)- ويجب أن نحسب ضمن تنظيم هذه القوى الإنتاجية لغتها الدينية- هذا المجتمع قد قسَّم السيطرة على المجتمع بين الكنيسة وبين سلطة الدولة، المقسَّمة فرعياً بدورها في العلاقات المعقّدة للسيادة الاقطاعية suzeraineté والتبعية الإقطاعية vassalité في حيازة الأراضي والمجتمعات الحَضَرِيّة. في هذا لتنوع من الحياة التاريخية الممكنة، فإن الزمنَ غيرَ القابل للانعكاس الذي فازَ في صمتٍ بمجتمع القاع، الزمنَ الذي تحياه البورجوازية في إنتاج السلع، في إنشاء وتوسيعَ المدن، في الاكتشاف التجاري للكرة الأرضية - التجريب العلمي الذي دمرَّ الى الأبد كل تنظيم أسطوري للكون - هذا الزمن قد تكشَّف ببطء عن كونه العملَ المجهولَ لهذه الحقبة، حين انهار المشروع التاريخي الرسمي العظيم لهذا العالم مع الحملات الصليبية.

(١٣٨)

خلال انحطاط العصر الوسيط، عرف الوعي المرتبطُ بالنظام القديم الإحساسَ بالزمن غير القابل للانعكاس الذي يجتاحُ المجتمعَ، في شكلِ هاجسِ الموت. إنها سوداوية تحلُّل عالم، هو آخر عالم كان فيه أمان الأسطوره مازال يوازن كفّة التاريخ؛ وبالنسبة لهذه السوداوية يتجه كل ماهو دنيوي صوب فساده. كذلك فإن التمردات الكبرى للفلاحين الأوربيين هي محاولتهم للردّ على التاريخ الذي كان ينتزعهم بعنف من السُبات البطريركي الذي ضمن لهم الوصاية الإقطاعية. في اليوتوبيا الألفية النزعة لتحقيق الفردوس الأرضي، يعود إلى مكان الصدارة ما كان يكمن في أصل الديانة شبه- التاريخية، حين كانت الجماعات المسيحية، مَثَلُها مَثَلُ نزعة الخلاصية messianisme اليهودية التي نشأت هذه الديانة عنها، تستجيب لمتاعب وتعاسة حقبتها بالتطلع الى التحقق الوشيك لمملكة الرب وتبرز بذلك عاملاً مُقلقاً وتخريبياً في المجتمع العتيق. وحين بلغت المسحية نقطة اقتسام السلطة في الامبراطورية، فإنها كذَّبت ماتبقىّ من هذا الأمل بوصفه مجرَّد خرافة: وهذا هو معنى

التأكيد الأوغسطيني، الذي هو النموذج الأصلي لكل امتلاءٍ مُكتمل satisfecit للإيديولوجيا الحديثة، والذي كانت الكنيسة القائمة، طبقاً له، ومنذ زمن بعيد هي هذه المملكة التي جرى الحديث عنها. ويُعْرفُ التمردُ الاجتماعي للفلاحينَ ذوي النزعة الألفية نفسه بشكل طبيعي وبالدرجة الأولى على أنه رغبة في تدمير الكنيسة. لكن النزعة الألفيّة تنتشر داخل العالم التاريخي، وليس على أرض الأسطورة. وليست التطلعاتُ الثوريةُ الحديثةُ متابعات لاعقلانية للعاطفة الدينية للنزعة الألفية، كما ظن نورمان كون Norman Cohn أنه أوضح في كتابه **السعي وراء الألفية** La Poursuite du Millénium وعلى العكس تماماً، فان النزعة الألفية، نضال الطبقة الثورية التي تتكلم لآخر مرة بلغة الدين، هي بالفعل اتجاهٌ ثوريٌ حديث، مازال يفتقر إلى **الوعي بأنه تاريخي ليس إلا**. كان لابد للألفيين أن يخسروا لأنهم لم يستطيعوا إدراك الثورة على أنها من صنعهم. وحقيقة أنهم انتظروا علامةً خارجية على قرار الرب لكي يتحركوا، هي ترجمةٌ لإحدى ممارسات الفلاحين المتمردين الى فكرة، تلك الممارسة التي يتبعون فيها زعماءَ من خارج صفوفهم، لم تستطيع طبقة الفلاحين بلوغ وعيٍ دقيق بأداء المجتمع، وبالطريقة التي تقود بها نضالها الخاص: لأنها كانت تفتقر الى هذه الشروط للوحدة في عملها وفي وعيها، فإنها عبّرت عن مشروعها وقادت حروبها وفق الصورة الخيالية للفردوس الأرضي.

(١٣٩)

إن النهضة، هذا الامتلاك الجديد للحياة التاريخية، التي تجد في العصر العتيق ماضيها ومشروعيتها ، تحمل معها قطيعةً بهيجةً مع الأبدية. وزمنها غير القابل للانعكاس هو زمن التراكم اللانهائي للمعارف، أما الوعي التاريخي الناشيء عن خبرة المجتمعات الديمقراطية وعن القوى التي تدمرّها، فسوف يتناول، مع ميكافيللي، تحليل السلطة التي انتُزع عنها طابعها المقدّس، وسوف يقول مالايجوز قوله عن الدولة. في الحياة الجياشة للمدن الإيطالية، في فن الاحتفالات، يخبُر الناس الحياةَ بوصفها استمتاعاً بعبور الزمن. لكن متعة العبور هذه لابد أنها هي نفسها متعةٌ عابرة. وأغنية لورنزو دي ميديتشي، التي يعتبرها بوركهارت Burckhardt التعبير عن «روح النهضة ذاتها»، هي الرثاء الذي ألقاه احتفالُ التاريخ الهشُ هنا عن نفسه: «ما أجمل الصبا – الذي سرعان ما ينقضي».

(١٤٠)

إن الحركة المستمرة لاحتكار الحياة التاريخية من جانب دولة الملكيّة المطلقة، التي هي شكل انتقاله نحو السيطرة الكاملة للطبقة البورجوازية تُظهِرُ بوضوح زمنَ البورجوازية الجديد غير القابل للانعكاس. فالبورجوازية ترتبط بزمن العمل، المتحرر لأول مرة من الزمن اللدوري. مع البورجوازية، يصبح العمل عملاً **يغيّرُ الشروطَ التاريخية**. فالبورجوازية، التي تُلغي كل امتياز، التي لاتعترف بأية قيمة لاتنبع من استغلال العمل، قد طابقت بين العمل وبين قيمتها هي كطبقة حاكمة، وجعلت من تقدّم العمل تقدمها الخاص. إن الطبقة التي تُراكم السلع ورأس المال تُعدّل الطبيعة باستمرار عن طريق تعديل العمل ذاته، عن طريق تحرير إنتاجيته. كانت كل حياة اجتماعية قد تركزت فعلاً داخل البؤس التزييني للبلاط، داخل بهرجة الإدارة الباردة للدولة التي تبلغ ذروتها في

«مهنة الملك»؛ وسلّمت كل حرية تاريخية نوعية بهزيمتها. وقد استُهلكت حرية لعبة النبلاء الإقطاعيين الزمنية غير القابلة للانعكاس في معاركهم الأخيرة الخاسرة، حروب الفروند Fronde، وانتفاض الاسكتلنديين من أجل تشارلز – ادوارد. لقد تغيّر العالمُ من أساسه.

(١٤١)

انتصار البورجوازية هو انتصار الزمن التاريخي بعمق، لأنه زمن الانتاج الاقتصادي الذي يُغيّر المجتمع، بشكل دائم ومن قمّته الى أدناه. فطالما ظل الإنتاج هو النشاط الرئيسي، فإن الزمن الدوري الذي يظل موجوداً في قاعدة المجتمع يُغذّي القوى المتكلّسة للتقاليد التي تعوق كلّ حركة. لكن زمنَ الاقتصاد البورجوازي غيرَ القابل للانعكاس يمحو هذه البقايا في كل ركن من أركان العالم. والتاريخ الذي بدا حتى ذلك الحين أنه مجرد حركة الأفراد من الطبقة الحاكمة، وكُتب بالتالي على أنه تاريخ أحداث، أصبح يُفهم الآن على أنه الحركة العامة، وفي هذه الحركة القاسية تتم التضحية بالأفراد. إن هذا التاريخ الذي يكتشفُ قاعدته في الاقتصاد السياسي يعلَم الآن بوجود ما كان يُمثّل وعيه الباطن، الذي يظل وعياً باطناً لايمكن بعد إخراجه إلى النور. وما جعلهُ الاقتصادُ السلعي ديمقراطياً هو ماقبل – التاريخ الأعمى ذاك، هذه القدرية الجديدة التي لايُسيطر عليها أحد.

(١٤٢)

يجبل التاريخ الموجود في كل أعماق المجتمع إلى الضياع عند السطح. وانتصار الزمن غير القابل للانعكاس هو أيضاً تحوّله إلى زمنٍ للأشياء، لأن سلاح انتصاره كان على وجه الدقة إنتاج الأشياء بالجملة، طبقاً لقوانين السلعة. الناتج الأساسيُ الذي نقلهُ التطورُ الاقتصادي من الندرة الباذخة الى الاستهلاك اليومي هو التاريخ إذن، لكن فقط في شكل تاريخ الحركة المجرّدة للأشياء التي تحكم كل استخدام نوعي للحياة. وبينما شكّل الزمنُ الدوري السابق دعامةً لجزء متزايد من الزمن التاريخي يعيشه أفراد ومجموعات، فإن سيطرة الزمن غير القابل للانعكاس للإنتاج يجبل، اجتماعياً، إلى محو هذا الزمن المُعاش.

(١٤٣)

هكذا أظهرت البورجوازية للمجتمع وفرضت عليه زمناً تاريخياً غير قابلٍ للانعكاس، لكنها حجبت استخدامه عن المجتمع. «كان ثمة تاريخ، لكنه لم يعد موجوداً»، لأن طبقة مالكي الاقتصاد، التي لايمكنها إحداث قطيعة مع التاريخ الاقتصادي، لابد لها كذلك أن تكبح كل استخدام آخر غير قابل للانعكاس للزمن باعتباره تهديداً مباشراً لها. ان الطبقة الحاكمة، المكوّنة من أخصائيين في ملكية الأشياء هم أنفسهم، من ثم، ملكيةٌ للأشياء، لابد لها أن تربط مصيرها بالحفاظ على هذا التاريخ المُتَشَيّئ، بدوام سكونيةٍ جديدة داخل التاريخ. للمرة الأولى لم يعد العامل، في قاعدة المجتمع، غريباً عن التاريخ مادياً، لأن القاعدة الآن هي التي تحرك المجتمع على نحو غير قابل للانعكاس. وفي مطالبة البروليتاريا بأن تحيا الزمن التاريخي الذي تصنعه، تجد البروليتاريا المركزَ البسيطَ غير قابلٍ للنسيان لمشروعها الثوري؛ وكل محاولة من المحاولات التي أجهضت حتى الآن لانجاز هذا المشروع تمثّلُ نقطةَ انطلاقٍ ممكنة للحياة التاريخية الجديدة.

(١٤٤)

كان الزمنُ غير القابل للانعكاس للبورجوازية في السلطة قد قدّمَ نفسه أولاً باسمه الخاص، كأصل مطلق، العام الأولَ للجمهورية. لكن الإيديولوجيا الثورية للحرية العامة التي دمّرت آخر بقايا التنظيم الأسطوري للقيم، وكل تقنين تقليدي للمجتمع، أظهرت بالفعل الإرادة الحقيقية التي سربلتها بزيٍّ روماني: **أي حرية التجارة المعمّمة**. المجتمع السلعي، الذي يكتشف الآن أن عليه إعادة بناء السلبية التي هزها بعمق من أجل إقامة حُكمه الخاص، «يجد في المسيحية بعقيدتها في الإنسان المجرَّد... المكمِّل الديني الأنسب» (رأس المال). هكذا أجرت البورجوازية حلاً وسطاً مع هذا الدين يعبِّر عن نفسه أيضاً في تقديم الزمن: فقد تخلّت البورجوازية عن روزنامتها الخاصة، وعاد زمنُها غير القابل للانعكاس ليتحلّ داخل إطار الحقبة المسيحية التي تواصل البورجوازية متابعتها.

(١٤٥)

مع تطور الرأسمالية، يصبح الزمنُ غير القابل للانعكاس **مُوَحّداً على مستوى العالم**. يصبح التاريخُ الكليُّ حقيقةً واقعة، لأن العالم بأسره مُتجمِّع في ظل تطور هذا الزمن. لكن هذا التاريخ، الذي هو نفس التاريخ في كل مكان في نفس الآن، ليس بعدُ سوى رفضٍ التاريخ داخلَ التاريخ نفسه. وما يبدو أنه نفس اليوم في كل أنحاء العالم، هو زمن الإنتاج الاقتصادي، المُقسَّم إلى شذرات مجرّدة متساوية. إن الزمن الموحَّد غير القابل للانعكاس هو زمن **السوق العالمية**، وبالتالي زمن الاستعراض العالمي.

(١٤٦)

الزمن غير القابل للانعكاس للإنتاج هو بالدرجة الأولى مقياس السلع. ومن ثم، فإن الزمن الذي يتم تأكيده رسمياً في كل أنحاء العالم على أنه **الزمن العام للمجتمع**، لايشير إلا إلى المصالح المتخصّصة التي تُشكّله، ليس سوى زمنٍ خاص.



(٦)

الزمن الاستعراضي

" إننا لا نملك شيئاً يخصّنا سوى الزمن، الذي يتمتع به نفس أولئك الذين لا مأوى لهم."

بالتازار جراسيان

(رجل البلاط)

(١٤٧)

زمن الإنتاج، زمن – السلعة، هو تراكمٌ لا نهائي لفترات زمنية متكافئة. إنه تجريدُ الزمن غير القابل للانعكاس، الذي يجب أن تُثبِتَ كلُّ أجزائه على الكرونومتر مجرد تساويها الكميّ. وهذا الزمن، في واقعه الفعلي، يمثّل مايمثّله في طابعه **القابل للتبادل**. في هذه السيطرة الاجتماعية لزمن – السلعة نجد أن «الزمن هو كل شيء، والإنسان لاشيء»؛ فهو الهيكل العظمي للزمن على الأكثر» (بؤس الفلسفة). إنه زمنٌ خُفِضَت قيمته، العكسُ التام للزمن بوصفه «مجال التطور الإنساني».

(١٤٨)

الزمن العام للأ-تطوّر الإنساني يوجد أيضاً في الشكل **المُتمِّم لزمن قابل للاستهلاك** يعود الى الحياة اليومية للمجتمع، بدءاً من هذا الانتاج المحدَّد، بوصفه **زمناً دورياً – زائفاً**.

(١٤٩)

الزمن الدوري – الزائف ليس في الحقيقة سوى **التَنَكُّر القابل للاستهلاك** لزمن- السلعة الإنتاجي. وهو يحتوي على السمات الأساسية لزمن السلعة، أي الوحدات المتجانسة القابلة للتبادل وكبح البعُد النوعي. لكنه لما كان نتاجاً- ثانوياً لهذا الزمن الذي يستهدف تأخر الحياة اليومية العينية والحفاظ على هذا التأخر، فلابد أن يكون مشحوناً بتقييمات- زائفة وأن يظهر في تتابع من اللحظات المكتسبة للطابع الفردي الزائف.

(١٥٠)

الزمن الدوري- الزائف هو زمن استهلاك احتياجات البقاء الاقتصادي الحديث، البقاء المُوسَّع، حيث يظل المُعاشُ اليومي محروماً من القرار وخاضعاً، ليس للنظام الطبيعي، بل للطبيعة- الزائفة التى تطوَّرت داخل العمل المُستَلَب؛ وهكذا يُعيدُ هذا الزمن، **بشكل طبيعي تماماً**، الإيقاع الدوري القديم الذي كان يُنظِّم شروط بقاء المجتمعات قبل- الصناعية. يرتكز الزمن الدوري- الزائف على البقايا الطبيعية للزمن الدوري، وكذلك يستخدمها في تركيب توليفات مماثلة: الليل والنهار، العمل والراحة الأسبوعية، التكرار الدوري لفترات الإجازات.

(١٥١)

الزمن الدوري - الزائف هو زمنٌ قد حَوّلته الصناعة. الزمن الذي يجد قاعدته في إنتاج السلع هو نفسه سلعة قابلة للاستهلاك، تتضمن في داخلها كا ماصار في السابق، خلال مرحلة تحلُّل المجتمع الموحَّد القديم،متمايزاً إلى حياة خاصة، وحياة اقتصادية، وحياة سياسية. يتم التعامل مع كل الزمن القابل للاستهلاك للمجتمع الحديث باعتبارة مادةً أولية لمنتجات جديدة متنوعة تفرض نفسها على السوق بوصفها استخدامات للزمن المُنظّم اجتماعياً. «إن مُنتَجاً يوجد فعلاً في شكل يجعله ملائماً للاستهلاك يمكنه رغم ذلك أن يُصبح بدوره مادةً أوليةً لمُنتجٍ آخر» (رأس المال).

(١٥٢)

تتّجه الرأسمالية المكثّفة، في قطاعها الأكثر تقدماً، الى بيع حُزَم زمنية «كاملة التجهيز»، تمثل كل واحدة منها سلعةً واحدةً موحَّدة، تشتمل على عدد معين من السلع المختلفة. وهكذا تنشأ، في اقتصاد «الخدمات» وأوقات الفراغ الآخذ في التوسُّع، صيغةُ الدفع المحسوب على أساس «شامل»: للوسط الاستعراضي المحيط، وللانتقالات الجماعية الزائفة لقضاء الإجازات، وللاشتراكات في الاستهلاك الثقافي، ولبيع المودّة الاجتماعية ذاتها في «المحادثات المشبوبة» و «اللقاءات مع الشخصيات». وهذا النوع من السلع الاستعراضية، الذي لايمكن بالطبع أن يجد رواجاً إلاّ بسبب البؤس المتزايد للوقائع المناظرة له، ظهر كذلك بالطبع بين السلع- الرائدة لتقنيات البيع الحديث، لأنه قابلٌ للدفع بالأجل.

(١٥٣)

الزمن الدوري - الزائف القابل للاستهلاك هو الزمن الاستعراضي، بوصفه زمن استهلاك الصُوَر، بالمعنى الضيق، وكذلك بوصفه صورةَ استهلاك الزمن، بأوسع المعاني. وزمن استهلاك الصور، وسيطُ médium كل السلع، هو، على نحو لاينفصم، المجال الذي تعمل فيه أدوات الاستعراض بكل قوتها، وكذلك الهدف الذي تقدمه هذه الأدوات بشكل شامل، على أنه الموقع والشكل الرئيسي لكل استهلاك توعي: والمعروف أن توفير الوقت الذي يسعى إليه المجتمع الحديث على الدوام- سواءً في سرعة المركبات أو في استخدام الشوربة المجفّفة في عبوات- يجد ترجمته العينية، بالنسبة لسكان الولايات المتحدة، في حقيقة أن مشاهد التليفزيون وحدها تحتل من هذا الوقت، في المتوسط، ما بين ثلاث وست ساعات يومياً. أمّا الصورة الاجتماعية لاستهلاك الزمن، فتحكُّمها بشكل حصري بدورها لحظاتُ الفراغ والإجازات، وهي لحظاتٌ مُمَثَّلةٌ عن بُعد ومرغوبةٌ بالتعريف، مَثَلُها مَثَلُ كل سلعة استعراضية. هنا تُقدَّم هذه السلعة بوضوح على أنها لحظة الحياة الحقيقية، والمقصود هو انتظار عودتها الدورية. لكن حتى في نفس هذه اللحظات المُخصَّصة للحياة، فإن الاستعراض، من جديد، هو ما يُقدَّم للمشاهدة ويُعاد انتاجه، ليصبح أشدَّ كثافة. إن ماجرى تمثيله على أنه هو الحياةُ الحقيقية، يتكشّف ببساطةٍ عن كونه الحياة الاستعراضية حقاً.

(١٥٤)

هذه الحقبة، التي تعرضُ زمنَها لنفسها على أنه بالأساس بمثابة العودة المفاجئة للاحتفالات المتعدِّدة، هي كذلك حقبةٌ بلاعيد. وما كان، في الزمن الدوري،، لحظةَ مشاركة الجماعة commu

nauté في الإنفاق الباذخ للحياة، هو أمرٌ مستحيل بالنسبة للمجتمع المجرد من الجماعة ومن البذخ. واحتفالاته- الزائفة المُبتذلة، التي هي محاكياتٌ ساخرة للحوار وللهديّة، حين تحفزُ على فائض من الإنفاق الاقتصادي، فإنها لاتقود الاّ إلى الخداع الذي يُعوّضُه دائما الوعدُ بخداع جديد.في الإستعراض، كلمّا انخفضت القيمة الاستعمالية لزمن البقاء survie الحديث، كلّما زاد تمجيده الى درجة أعلى. لقد تم استبدال واقع الزمن بالإعلان عن الزمن.

(١٥٥)

بينما كان استهلاك الزمن الدوري في المجتمعات القديمة متمشّياً مع العمل الفعلي لتلك المجتمعات، فإن الاستهلاك الدوري- الزائف للاقتصاد المتطوّر يتناقض مع الزمن المجرد غير القابل للانعكاس لإنتاجه. بينما كان الزمن الدوريُ هو زمن الوهم الساكن، المُعَاش واقعياً، فإن الزمن الاستعراضي هو زمن الواقع الذي يتغيّر، والمُعاش وهمياً.

(١٥٦)

الجديد باستمرار في عملية إنتاج الأشياء لايوجد في الاستهلاك، الذي يظلّ هو التكرارُ الموسّعُ لنفس الشيء. ولأن العمل الميّت يظل يحكم العمل الحيّ، فإن الماضي يحكم في الزمن الاستعراضي.

(١٥٧)

ثمة جانب آخر من النقص الذي يعتور الحياة التاريخية العامة، هو أن الحياة الفردية ليس لها تاريخٌ بعد. فالأحداث - الزائفة التي تتدافع في التمثيلات الدرامية الاستعراضية لم يَعشْها من يُبلّغونَ بها؛ وفضلاً عن ذلك، فإنها تضيع في غمرة إحلالها السريع، مع كل نبضة من نبضات الآلة الاستعراضية. ومن جهة أخرى، فإن ما هو مُعاشٌ فعلاً لاعلاقة له بالزمن الرسمي غير القابل للانعكاس للمجتمع، ويقفُ في تناقض مباشر مع الايقاع الدوري- الزائف للناتج- الثانوي القابل للاستهلاك لهذا الزمن. هذه الخبرةُ المُعاشة الفردية للحياة اليومية المنفصلة تظل دون لغة، ودون مفهوم، ودون تناول نقدي لماضيها الخاص الذي يُسجّل في أي مكانٍ على الإطلاق. هذه الخبرة المُعاشة لايمكن توصيلُها. إنها لاتُفهم، ثم تُنسى، لصالح الذاكرة الاستعراضية الزائفة لما هو غيرُ جدير بالتذكُر.

(١٥٨)

الاستعراض، بوصفة التنظيمَ الاجتماعيَ الحاليّ لشلل التاريخ والذاكرة، للتخلي عن التاريخ، المبني على قاعدة الزمن التاريخي، **هو الوعي الزائف بالزمن.**

(١٥٩)

كان الشرط الأولي لنقل العمال إلى مرتبة المنتجين والمستهلكين «الأحرار» لزمن السلعة، هو تجريدهم العنيف من ملكية زمنهم الخاص. ولم تَعدْ العودةُ الاستعراضيةُ للزمن ممكنةً إلاّ ابتداءً من هذا النزع الأول لِلملكية المُنتج.

(١٦٠)

الجزء البيولوجي الذي لايمكن اختزاله والذي يظل قائماً في العمل، سواء في الاعتماد على الدورة الطبيعية للصحو والنوم أو في وجود الزمن غير القابل للانعكاس في إنفاق الحياة الفردية، هو مجرد ملحق ثانوي accessoire من وجهة نظر الإنتاج الحديث؛ وهذه العناصر، بوصفها كذلك، يتم تجاهلها في البيانات الرسمية عن حركة الإنتاج، وفي الغنائم القابلة للاستهلاك والتي هي الترجمة المتاحة لهذا الانتصار المتّصل. ووعيُ المُشاهد، المجمّدُ في سكون في المركز المزيّف لحركة عالمه، لايعودُ يدركُ أن حياته بمثابة مَر نحو تحققه ونحو موته. فمن تخلّى عن استخدام حياته لايعود بإمكانه الاعتراف بموته. ولاتوحي إعلانات التأمين على الحياة إلا بأنه مُذنب بجريرة الموت دون تأمين إنتظام النسق بعد هذه الخسارة الاقتصادية. أمّا الإعلانات عن **الطريقة الامريكية للموت** L'american way of death فتؤكد على قدرته على الحفاظ في هذا اللقاء على أكبر قدرٍ من مظاهر الحياة. وعلى بقيّة جبهات القصف الإعلاني، يكون من المحظور تماماً أن يشيخ المرء. وحتى «رأسمال- الشباب» الذي يتم تدبيره لكل فرد وللجميع، لايمكنه أن يزعم اكتساب واقع استمرار وتراكم رأس المال المصرفي، لأن رأسمال- الشباب هذا لايُستَخدم إلاّ استخداماً تافهاً. إن هذا الغياب الاجتماعي للموت مطابقٌ للغياب الاجتماعي للحياة.

(١٦١)

الزمن، كما أوضح هيجل، هو الاستلاب الضروري، هو الوسط المحيط الذي تتحقّق فيه الذات بأن تفقد نفسها، الذي تصبح فيه الذات آخراً لكي تصبح هي نفسها حقاً. لكن العكس تماماً صحيح بالنسبة للاستلاب السائد، الذي يعانيه مُنتج حاضرٍ غريبٍ عنه. ففي هذا **الاستلاب المكاني**، نجد أن المجتمع الذي يفصلُ الذات جذرياً عن النشاط الذي ينتزعُه منها، يفصلها أولاً عن زمنها ذاته. وهذا الاستلاب الاجتماعي القابل للتجاوز هو بالضبط ما حَظر وكلّس إمكانات ومخاطر الاستلاب الحيّ والزمن.

(١٦٢)

تحت الموضات الظاهرة التي تختفي وتُعاود الظهور على السطح العقيم للزمن الدوري- الزائف موضوع البحث، فإن **الأسلوب العظيم** للعصر يكمن على الدوام فيما تُوجّهه الضرورة البديهية والسرّية للثورة.

(١٦٣)

إن القاعدة الطبيعيةللزمن، الخبرة المحسوسة لمرور الزمن، تصبح إنسانيةً واجتماعية بأن توجد **من أجل الإنسان**. والحالة المُقيِّدة للممارسة الإنسانية، أي العمل في مراحل مختلفة، هي التي اكسبت الزمن حتى الآن الطابع الإنساني، ونزعت كذلك طابعه الإنساني، بوصفه زمناً دورياً وزمناً منفصلاً غير قابل للانعكاس للإنتاج الاقتصادي. والمشروع الثوري لمجتمع بلا طبقات، لحياة تاريخية مُعمّمة، هو مشروعُ ذبولِ المقياس الاجتماعي للزمن، لصالح نموذج لَعِبي للزمن غير القابل للانعكاس للأفراد والجماعات، وهو نموذجٌ تكون حاضرةً فيه في نفس الوقت **أزمنةً مستقلةً مُتّحِدة**. إنه

برنامج تحقيقٍ كلي، في سياق الزمن، للشيوعية التي تكبح «كلَّ مايوجدُ مستقلاً عن الأفراد».

(١٦٤)

إن العالم يملك بالفعل حلماً بزمنٍ لابد أن يملك الآن الوعيَ به لكي يحياه فعلاً.



(٧)

ترتيب الحيِّز المكاني

"ومن يُصبح حاكماً لمدينة اعتادت أن تحيا حُرَّةً ولايُدمِّرها،
فليتوقع أن تُدمِّره هي، فلَديها دائماً اسم الحرِّية
وعاداتها القديمة لتلوذ بهما في تمرداتها، ولن يُنسيها إياهما
لاطول الزمن ولا أي عمل طيِّب. ومهما
فعل المرء هناك أو قدَّم، مالم يكن ملاحقة سكانها
وتشتيتهم، فلن ينسوا أبداً ذلك الاسم ولاتلك العادات..."

مكيافيللي

(الأمير).

(١٦٥)

وحّدَ الإنتاجُ الرأسمالي الفضاءَ، الذي لم تعد تَحُدُّه المجتمعاتُ الخارجية. وهذا التوحيدُ هو، في نفس الوقت، عمليةٌ واسعة ومكثفة لنشر الابتذال. وتراكم السلع المُنتَجة بالجملة من أجل الفضاء المجرّد للسوق، الذي كان عليه أن يُسقط كلّ الحواجز الإقليمية والقانونية، وكل تقييدات العصر الوسيط الإدماجية- الفئوية التي حافظَت على نوعية الإنتاج الحرفي، كان عليه أيضاً أن يُدمّر استقلال ونوعية الأماكن. إن قوة فرض التجانس هذه هي المدفعية الثقيلة التي هدمت كلّ الأسوار الصينية.

(١٦٦)

لكي يصبح الفضاء الحر للسلعة أكثر تطابقاً مع نفسه على الدوام، لكي يصبح أقرب مايكن إلى الرتابة الساكنة، فإنه يتعدّل ويُعاد بناؤه باستمرار.

(١٦٧)

هذا المجتمع الذي يُلغي المسافة الجغرافية يستعيدُ المسافة داخليا على هيئة انفصال استعراضي.

(١٦٨)

السياحةُ، دورةُ البشر المأخوذة على أنها استهلاك، والتي هي الناتج- الثانوي لدورة السلع، تمثل أساساً ترف الذهاب لرؤية ما صار مبتذلاً. والتنظيم الاقتصادي للزيارات إلى الاماكن المختلفة أصبحَ في ذاته الضمانَ لتساوي هذه الأماكن. إن نفس التحديث الذي ألغى الزمن من الرحلة، قد ألغى كذلك واقعيةَ الفضاء.

(١٦٩)

طوّرَ المجتمعُ، الذي يصوغ كلّ مايحيط به، تقنيةً خاصة لتشكيل أرضه الخاصة، التي هي القاعدة الصلبة لهذه المجموعة من المهام. والعُمران الحضري L'urbanisme هو امتلاك الوسط المحيط الطبيعي والبشري من جانب الرأسمالية، التي بتطوّرها منطقياً الى سيطرة مطلقة، أصبح بإمكانها ومن واجبها أن تعيد تشكيل مجمل الفضاء ليصبح ديكورها الخاص.

(١٧٠)

الحاجة الرأسمالية التي يُشبعُها العمران الحضري، على شكل تجميد مرئي للحياة، يمكن التعبير عنها - باستخدام مصطلحات هيجلية- بأنها السيادة المطلقة «للتعايش السكوني للفضاء» على «السيرورة القلقة للزمن».

(١٧١)

إذا كان لابد لنا أن نفهم كل القوى التقنية للاقتصاد الرأسمالي على أنها أدوات لصُنع مختلف أنواع الانفصال، فإننا في حالة العمران الحضري في مواجهة معدات أساسها العام، في مواجهة تمهيد الأرض الذي يناسب انتشارها، في مواجهة نفس تقنية **الانفصال**.

(١٧٢)

العمران الحضري هو الإنجاز الحديث للمهمة المتّصلة لحماية السلطة الطبقية: مهمة الحفاظ على تذرّي العمال الذين جمّعتهم بصورة خطرة الشروطُ الحضرية للإنتاج. النظام الدائم الذي توجَّب خوضه ضد كل شكلٍ ممكن من أشكال التقائهم يجد ساحته الأثيرة في العمران الحضري. فبعد خبرات الثورة الفرنسية، نجد أن جهد كل السلطات القائمة لزيادة وسائل الحفاظ على النظام في الشوارع، قد انتهى في النهاية بكبت الشارع. «مع وجود وسائل الاتصال الجماهيرية من مسافات بعيدة، أثبتت عزلة السكان أنها وسيلة أشد فعالية للسيطرة عليهم»، هكذا يقول لويس ممفورد Lewis Mumford في كتابه **المدينة عبر التاريخ** La Cité `a trarers L'histoire ،وهو يصف «عالماً ذا اتجاه واحد على الدوام». لكن الحركة العامة للعزلة، التي هي حقيقة العمران الحضري، لابد لها أن تتضمن كذلك إعادة تكاملٍ خاضعة للضبط للعمال، وفق الاحتياجات القابلة للتخطيط للإنتاج والاستهلاك. فتكامل النظام يتطلّبُ إعادة التقاط الأفراد المعزولين بوصفهم أفراداً **معزولين معاً**: فالمصانع ودور الثقافة، المنتجعات السياحية وكذلك «التجمعات السكنية الضخمة»، كلها مُنظّمةٌ خصّيصا لتخدم هدف هذه الجماعية- الزائفة التي تُصاحب الفردَ المنعزل إلى داخل **خلية الأسرة**. ويتيح الاستخدامُ الواسع النطاق لأجهزة استقبال الرسالة الاستعراضية للفرد أن يملأ عزلته بالصور السائدة، تلك الصور التي لاتستمد كامل قوتها إلاّ من هذه العزلة.

(١٧٣)

للمرة الأولى تُوجَّهُ إلى **الفقراء** مباشرةً عمارةٌ جديدة، كانت في كل حقبةٍ من الحقبِ السابقة قاصرةً على ارضاء الطبقات الحاكمة. والبؤس الشكلي والانتشار الهائل لخبرة السُكنى الجديدة هذه ينبعان كلاهما من طابعها الجماهيري، المتضمّن سواءً في المستهدفين منها أو في الشروط الحديثة للبناء. وبديهي أن مركز هذه الشروط الحديثة للبناء يكمن القرار التسلطي، الذي ينظم الحيز المكاني تجريداً على هيئة حيّز مكاني للتجريد. في كل مكان يبدأ فيه تصنيع البلدان المتخلفة في هذا الصدد، تظهر نفسُ العمارة بوصفها مجالاً مناسباً لطراز جديد من الوجود الاجتماعي يجري زرعه هناك. والعتبة التي يعبرها نمو القوة المادية للمجتمع، وتأخُّر السيطرة الواعية للمجتمع على هذه القوة، يبرزان في العمران الحضري بقدر بروزهما في مشكلاتٍ مثل التسليح النووي أو تحديد

النسل- الذي يبلغ حد إمكان التلاعب بالوراثة.

(١٧٤)

اللحظة الراهنة هي لحظة التدمير - الذاتي للوسط الحضري المحيط. وانفجار المدن التي تغطي الريف «بأكوام لاشكل لها من المخلفات الحضرية، تحكمه بشكل مباشر متطلبات الاستهلاك. أما ديكتاتورية السيارة، الناتج- الرائد للمرحلة الأولى من الازدهار السلعي، فقد نقشتها على وجه الأرض سيطرةُ الطريق السريع، الذي يزيح المراكز الحضرية القديمة عن مواضعها ويتطلب تبعثراً أوسع باستمرار. وفي نفس الوقت، فإن مراحل إعادة التنظيم غير المكتمل للنسيج الحضري تتمحور مؤقتاً حول «مصانع التوزيع»، التي تمثلها متاجر السوبر ماركت العملاقة المقامة فوق أرض عارية، فوق أماكن انتظار السيارات؛ هذه المعابد للاستهلاك المحموم، بعد أن تنتج إعادة ترتيب جزئية للاختناقات، سرعان ماتتطاير هي نفسها بفعل حركة الطرد المركزي، التي تلفظها فور أن تصبح بدورها مراكز ثانوية مُثقلة بالأعباء. لكن التنظيم التقني للاستهلاك ليس سوى العنصر الأول من التحلل العام الذي أوصل المدينة إلى درجة استهلاك نفسـها.

(١٧٥)

التاريخ الاقتصادي، الذي تطوّر بكامله حول التعارض بين الريف والمدينة، بلغ الآن مستوىً من النجاح يلغي الطرفين كليهما. والشلل الراهن للتطور التاريخي الكلي، لصالح مجرد استمرار الحركة المستقلة للاقتصاد، بشكل اللحظة التي تبدأ فيها المدينة والريف في الاختفاء، ليس لحظة تجاوز الانقسام بينهما، بل لحظة انهيارهما المتزامن. أما التآكل المتبادل للمدينة وللريف، الذي هو نتاج إخفاق الحركة التاريخية التي كان يجب تخطّي الواقع، الحضري الراهن من خلالها، فيتبدّى في هذا الخليط المتنافر لعناصرهما المتحللة، التي تغطي المناطق الصناعية الأكثر تقدماً.

(١٧٦)

وُلد التاريخُ الكلّي في المدن، وبلغ سنّ الرُشد في لحظة الانتصار الحاسم للمدينة على الريف. ويعتبر ماركس أن أحد المزايا الثورية الكبرى للبورجوازية هو «إخضاعها الريفَ للمدينة»، حيث الهواء يُحَرِّرُ. لكن إذا كان تاريخ المدينة هو تاريخ الحرية، فإنه أيضاً تاريخ الطغيان، تاريخ ادارة الدولة التي تسيطر على الريف وعلى المدينة ذاتها. فالمدينة لم تمثّل حتى الآن سوى ساحةَ صراع من أجل الحرية التاريخية، وليس امتلاكاً لها. المدينة هي موضعُ التاريخ، لأنها تمثّل الوعي بالماضي، وكذلك تركّز السلطة الاجتماعية، الذي يجعل المشروعَ التاريخي ممكناً. هكذا، فإن الميل الراهن الى تحلّل المدينة ليس سوى تعبير آخر عن التأخر في اخضاع الاقتصاد للوعي التاريخي، وفي توحيد المجتمع بتولّيه من جديد السلطات التي انتُزعت منه.

(١٧٧)

«يُظهرُ الريفُ العكسَ تماماً: الانعزال والانفصال» (الإيديولوجيا الألمانية). والعمران الحضري، الذي يُدمّر المدن، يُقيمُ من جديد ريفاً- زائفاً، يفتقر الى العلاقات الطبيعية للريف القديم وكذلك إلى العلاقات الاجتماعية المباشرة التي طرحتها المدينةُ التاريخية للتساؤل مباشرةً. وتُعيد

شروط السُكنى والسيطرة الاستعراضية في «الحيِّز المكاني المُنظَّم» الحالي خلقَ طبقية فلاحية مُصطنعة: فالتبعثر الجغرافي وضيق الأفق، اللذان منعا طبقة الفلاحين دائماً من القيام بعمل مستقل ومن تأكيد ذاتها كقوة تاريخية خلاّقة، يعودان الآن ليصبحا السِّمتين المُميّزتين للمنتَجين: تظلُّ حركة العالم الذي يصنعونه بأنفسهم بعيدةً تماماً عن متناولهم مثلما كان الايقاع الطبيعي للأعمال بالنسبة للمجتمع الزراعي. لكن هذه الطبقة الفلاحية، التي كانت بمثابة الأساس الراسخ «للاستبداد الشرقي»، والتي استدعى تفكُّكُها نفسُه قيامَ المركزة البيروقراطية، حين تعاودُ الظهورَ كنتاج لشروط نمو بيروقراطية الدولة الحديثة، فلا بد للامبالاتها الآن أن تُصنعَ ويتم الحفاظ عليها تاريخياً؛ أفسح الجهل الطبيعي مكانه للاستعراض المنظَّم للخطأ. و«المُدُن الجديدة» للطبقة الفلاحية- الزائفة التكنولوجية تنقش فوق المشهد قطيعتها مع الزمن التاريخي الذي بُنيت على أساسه؛ ويمكن أن يكون شعارها:«في هذه البقعة، لن يحدث شيءٌ أبداً، ولم يحدث شيء على الإطلاق». ولأن التاريخ، الذي يجب أن يتحرَّر في المدن، لم يتحرَّر بعد، فمن البديهي أن قوى الغياب التاريخي تبدأ في تشكيل مشهدها الحضري القاصر عليها.

(١٧٨)

إن التاريخ، الذي يتهدَّدُ هذا العالمَ الغَبَشي هو كذلك القوةُ التي يمكنها إخضاع الفضاء للزمن المُعاش. والثورة البروليتارية هي هنا النقد للجغرافيا البشرية الذي من خلاله يكون على الأفراد والمجتمعات أن يخلقوا مواقع وأحداثاً تلائم تملُّكهم لتاريخهم الكلي، وليس لعملهم فقط. وفي الفضاء المتغير لهذه اللعبة، وفي التنويعات المنتقاة بحرية لقواعد اللعب، يمكن إعادة اكتشاف استقلال المكان، دون الارتباط الحصري بالأرض من جديد، ومن هنا يعود واقع الرحلة، وواقع الحياة مفهوماً على أنها رحلة تحمل في داخلها معناها الكامل.

(١٧٩)

إن أعظم فكرة ثورية تتعلق بالعُمران الحضري ليست هي نفسها عُمرانية، ولاتكنولوجية ولا جمالية. إنها قرارُ إعادة إنشاء متكاملة للحيِّز المكاني وفق احتياجات سلطة المجالس العمالية، الديكتاتورية المضادة- للدولة للبروليتاريا، وفق احتياجات الحوار القابل للتنفيذ exécutaire. وسلطة المجالس، التي لايمكن أن تكون فعّالة الا بتغييرها للشروط القائمة برمتها، لايمكن أن تعهد لنفسها بمهمة أقلّ من هذه إذا أرادت أن يُعترَف بها وأن تتعرف هي على نفسها في عالمها.



(٨)

النفي والاستهلاك في الثقافة

"هل سنعيش ما يكفي لكي نرى ثورةً سياسية؟ نحن، المعاصرون لأولئك الألمان؟ يا صديقي، إنك تعتقد ما تشاء ... فحين أحكم على ألمانيا بعد تاريخها الحالي، فلن تعارضني في أن كل تاريخها مزيف وكل حياتها العامة الراهنة لا تمثل الحالة الحقيقية للشعب. إقرأ الصحف التي تريد، وكن على اقتناع بأن المرء لا يتوقف -وستوافقني على أن الرقابة لا تمنع أحداً من التوقف- عن الاحتفاء بالحرية والرفاهية القومية اللتين نملكهما."

روجه

(خطاب إلى ماركس، مارس ١٨٤٣)

(١٨٠)

الثقافة، في المجتمع التاريخي المنقسم إلى طبقات، هي المجال العام للمعرفة ولتمثيلات ماهو مُعاش؛ مما يعني القول بأنها هذه القدرة على التعميم التي توجد على حدة، بوصفها تقسيماً للعمل الذهني وعملاً ذهنياً للانقسام. وتنفصل الثقافة عن وحدة مجتمع الأسطورة، «حين تختفي قوة التوحيد من حياة الإنسان وتفقد الأضداد علاقتها وتفاعلاتها الحية وتكتسب الاستقلال...» (مبحث هيغل في الاختلافات بين نسقي فيشته وشيللينغ). بإحرازها لاستقلالها، تبدأ الثقافة حركة إثراء إمبريالية تعني في نفس الوقت تدهورَ استقلالها. والتاريخ الذي يخلق الاستقلال النسبي للثقافة، والأوهام الإيديولوجية عن هذا الإستقلال، يعبر عن نفسه كذلك بوصفه تاريخاً للثقافة. ويمكن فهم كل التاريخ الظافر للثقافة بوصفة تاريخ إيْضاح عدم كفايتها، بوصفة مسيرةً باتجاه كبتها- الذاتي. الثقافة هي موضع البحث عن الوحدة الضائعة. وفي هذا البحث عن الوحدة، تكون الثقافة بوصفها مجالاً منفصلاً مضطرةً لنفي نفسها.

(١٨١)

لايمكن مواصلة الصراع بين التقاليد والتجديد، الذي هو مبدأ التطور الداخلي للثقافة في المجتمعات التاريخية، إلاّ عبر الانتصار الدائم للتجديد. إلاّ أن التجديد الثقافي لاتحمله سوى الحركةُ التاريخية الكلّية، التي باكتسابها للوعي بكلّيتها، تميل إلى إبطال افتراضاتها الثقافية المسبقة، وتمضي باتجاه إلغاء كلّ انفصال.

(١٨٢)

ان نمو المعرفة بالمجتمع، التي تتضمن فهم التاريخ باعتباره لُبّ الثقافة، هذا النمو يستمدُّ من نفسه معرفةً لارجعة فيها، يُعبّر عنها تحطيمُ الإله. لكن هذا «الشرط الأولّ لكل نقد» هو كذلك الالتزام الأولّ لنقد بلانهاية. فحيث لايعود بالإمكان التمسّك بأي قاعدةٍ للسلوك، نجد أن كل نتيجةٍ للثقافة تجعلها تتقدم باتجاه تحلّلها. ومثل الفلسفة في لحظة إحرازها لاستقلالها الكامل، فإن كل مذهب صار مستقلاً لابد أن ينهار، أولاً بوصفه ادعاءً بتفسير متماسك للكلّية الاجتماعية، وفي النهاية بوصفه أداةً جزئية يمكن استخدامها داخل حدودها الخاصة. إن افتقاد العقلانية في الثقافة المنفصلة هو العنصر الذي يحكُم عليها بالاختفاء، لأن انتصار ماهو عقلاني موجود فيها فعلا بوصفه

مطلباً.

(١٨٣)

نبعت الثقافة من التاريخ الذي ألغى طريقة حياة العالم القديم. لكنها بصفتها مجالاً منفصلاً لاتعدو بعدُ أن تكونَ ذكاءً وتواصلاً محسوساً، يظلأن جزئيين في مجتمع تاريخي جزئياً. إنها معنى عالم يكاد يكون بلامعنى.

(١٨٤)

تتبدى نهايةُ تاريخ الثقافة في جانبين متعارضين: مشروع تجاوزها في التاريخ الكلي، وتنظيم الإبقاء عليها، بوصفها موضوعاً ميتاً، في التأمل الاستعراضي. وقد ربط أولى هاتين الحركتين مصيرها بالنقد الاجتماعي، بينما ربطته الثانية بالدفاع عن السلطة الطبقية.

(١٨٥)

يوجد كلُّ جانبٍ من جانبيّ نهاية الثقافة في شكل موحَّد- في كل مجالات المعرفة مثلما في كل مجالات التمثيلات المحسوسة- فيما كان يعينه الفن بأوسع معانيه. في الحالة الأولى[حالة المعرفة]، نجد أن التراكم في المعارف المفتَّتة، التي تصير غير صالحة للاستخدام لأن الموافقة على الشروط القائمة لابد في النهاية أن تتنكر لمعارفها ذاتها، هذا التراكم يُواجه نظرية الممارسة التي تملك وحدها حقيقة هذه المعارف لأنها وحدها تملك سر استخدامها. وفي الحالة الثانية[حالة التمثيلات]، نجد أن التدمير- الذاتي النقدي للغة العامة القديمة للمجتمع يُواجه إعادة تشكيلها الاصطناعية في الاستعراض السلعي، الذي هو التمثيلُ الوهمي لما ليس حياً.

(١٨٦)

بفقدان الجماعة الإنسانية لمجتمع الأسطورة، لابد للمجتمع أن يفقد كلَّ إحالة إلى لغة مشتركة فعلاً حتى اللحظة التي يمكن فيها تجاوزُ التمزق داخلَ الجماعة الإنسانية الخاملة عن طريق بلوغ الجماعة الإنسانية التاريخية الحقة. ومنذ أن يصبح الفنُّ، الذيّ كان يمثل اللغة المشتركة للخمول الاجتماعي، مستقلاً بالمعنى الحديث، ويخرج من عالمه الديني الأول ليصبح إنتاجاً فردياً لأعمال منفصلة، فإنه يَخْبَرُ بدوره الحركة التي تحكم تاريخ مجمل الثقافة المنفصلة. وتأكيد استقلاله هو بداية تحلله.

(١٨٧)

يجد فقدانُ لغة التواصل التعبيرَ الإيجابي عنه في حركة التحلل الحديث لكل الفنون، في تصفيتها الشكلية. أمَّا ماتعبر عنه هذه الحركة سلبياً، فهو حقيقة أن من الضروري إعادة اكتشاف لغة مشتركة - ليس في النتيجة الأحادية الجانب التي كانت تصل دائماً متأخرةً، بالنسبة لفن المجتمع التاريخي، مُتحدثةً لآخرين عما كان مُعاشاً دون حوار حقيقي، ومُسلِّمةً بهذا العيب في الحياة-. بل لابد من إعادة اكتشافها في الممارسة، التي تجمع في داخلها بين النشاط المباشر ولغته. المشكلة هي أن تمتلك فعلاً الجماعة الانسانية للحوار واللعب مع الزمن اللذين مثّلتهما الأعمال

الشعرية- الفنية.

(١٨٨)

حين يُصوِّر الفن، الذي أصبح مستقلاً، عالمه في ألوانٍ زاهية، تكون لحظةٌ من الحياة قد شاخت ولا يمكن استعادة شبابها بألوانٍ زاهية. إن عَظَمة الفن لاتبدأ في الظهور إلاّ عند غروب الحياة.

(١٨٩)

عبّر الزمنُ التاريخي، الذي يتغلغلُ في الفنِ، عن نفسه أولاً في مجال الفن ذاته، ابتداءً من **الباروك** baroque . الباروك: هو فَنُّ عالمٍ فقدَ مركزَه؛ فقد انهار آخر نظام أسطوري أقرّ به العصر الوسيط، في الكون وفي الحكومة الأرضية- ألاوهو وحدةُ المسيحية وسرابُ الامبراطورية. وعلى فن التغيُّر أن يحمل في داخله المبدأ السريع الزوال الذي يكتشفه في العالم. لقد إختار، كما يقول يوجينيو دورس Eugenio d'Ors ، «الحياة ضد الأبدية»، والمسرح والاحتفال، الاحتفال المسرحي، هما الإنجازان البارزان للباروك، وفيهما لايكتسب أي تعبير فني معيَّن معناه الاّ في علاقته بديكور مكانٍ مبني، في علاقته ببناءٍ يمثّل بالنسبة لنفسه مركز التوحيد؛ وهذا المركز هو المَمر passage ، المُسَجَّلُ بوصفه إتزاناً مُهدَّداً في الفوضى الدينامية لكل شيء. والأهمية، المبالغ فيها أحياناً، التي تُعزى الى مفهوم الباروك في النقاش الجمالي المعاصر، تُعبِّر عن الوعي باستحالة قيام كلاسيكية فنية: إذ أن الجهود لتحقيق كلاسيكية أو كلاسيكية- جديدة معيارية، طوال ثلاثة قرون، لم تكن سوى بناءات مصطنعة قصيرة الأجل تتحدث اللغة الخارجية للدولة، لغة الحُكم المطلق أو لغة البورجوازية الثورية المُتَّشحة بالزي الروماني. ما تلى المسار العام للباروك، من الرومانسية الى التكعيبية، هو في نهاية الأمر فنٌّ للنفي ذو طابع شخصي متزايد باستمرار، يجدِّد نفسه على الدوام الى درجة التبعثر والنفي الكاملين للمجال الفني. كما أن اختفاء الفن التاريخي الذي ارتبط بالتواصل الداخلي لجماعة نخبة، والذي وجد قاعدته الاجتماعية شبه- المستقلة في الشروط اللُّعبيَّة جزئياً والتي كانت تعيشها آخر الارستقراطيات، يُعبِّر كذلك عن حقيقة أن الرأسمالية تلك أول سلطة طبقية تعترف بأنها مجرَّدة من أي ميزة أنطولوجية؛ وهي سلطة تعني كذلك فقدان كل سيطرة إنسانية maîtrise، لأن جذرها يكمن في مجرد ادارة الاقتصاد. والمجموع الباروكي المتآلف، الذي يمثّل هو نفسه وحدة الإبداع الفني التي طال فقدانها، يُعاد اكتشافه على نحوٍ ما في الاستهلاك الحالي لمجمل الماضي الفني. فحين يتم الإدراك والقبول التاريخيين لكل فن الماضي، ويُعاد بناؤه استرجاعياً على هيئة فنٍ عالمي، يكتسب هذا الفن طابعاً نسبياً ويتحوّل إلى فوضى شاملة تُقيم بدورها بناءً باروكياً على مستوى أعلى، بناءً يمتزج فيه نفس إنتاج الفن الباروكي مع كل انبعاثاته. للمرة الأولى، يصبح بإمكان فنون جميع الحضارات وجميع العصور أن تكون كلها معروفةً ومقبولةً معاً. وحين تُصبح هذه «المجموعة من التذكارات» لتاريخ الفن ممكنةً، فذلك يعني أيضاً نهاية عالم الفن. في عصر المتاحف هذا، حين لم يعد أي تواصل فني ممكناً، أصبح بالإمكان قبول كل لحظات الفن السابقة على قدم المساواة، لأن أياً منها لم يعد يعاني من فقدان شروط توصيلها النوعية، في الفقدان العام لشروط التواصل.

(١٩٠)

الفن في عصر تحلُّله، باعتباره حركةً سلبية تسعى إلى تجاوز الفن في مجتمع تاريخي لم يصبح التاريخُ فيه مُعاشاً بعد، هو، في آن واحد، فن تغيير والتعبير الخالص عن استحالة التغيير. وكلما زاد طموحه عظمةً، كلما كان تحققه الحقيقي خارجاً عن نطاقه. هذا الفن، بالضرورة، فن طليعي، وليس كذلك. فطليعته هي اختفاؤه.

(١٩١)

الدادائية والسوريالية هما التياران اللذان يُحدِّدان نهاية الفن الحديث. فهما معاصرتان، ولو بطريقة واعية نسبياً فقط، لآخر هجوم كبير للحركة الثورية البروليتارية؛ وانتحار هذه الحركة، الذي تركهما سجينتين في نفس الحقل الفني الذي أعلنتا تداعيه، هو السبب الرئيسي لجمودهما. الدادائية والسوريالية مرتبطتان ومتعارضتان تاريخياً في آن واحد. وفي هذا التعارض، الذي تعتبره كل واحدة منهما أهم وأكثر إسهاماتها جذرية، يتجلى النقص الكامن لنقدهما، الذي طورته هذه وتلك بطريقة أحادية الجانب. فقد أرادت الدادائية **إبطال الفن دون تحقيقه**؛ بينما أرادت السوريالية تحقيق الفن دون إبطاله. وقد أوضح الموقف النقدي الذي طوّره **الموقفيّون** situationnistes فيما بعد أن إبطالَ الفن وتحقيقه هما جانبان لاينفصمان لنفس تجاوز الفن.

(١٩٢)

الاستهلاكُ الاستعراضي الذي يحفظُ الثقافةَ الماضية المجمَّدة، ويتضمّن التكرار المستعادَ لتبدّياتها السلبية، يعكسُ بوضوحٍ في قطاعه الثقافي ما يمثّله ضمنياً في كلّيته: أي **توصيل مالايقبل التوصيل**. في هذا الإطار، يتم الاعترافُ بوضوحٍ بالتدمير الصارخ للّغة بوصفه قيمةً إيجابية رسمية، لأن المقصودَ هو إعلانُ المصالحةِ مع الوضع السائد للأمور، الذي يتم فيه بابتهاج إعلانُ غيابِ كلِّ تواصلٍ. وبديهي أنه يتم إخفاء الحقيقة النقدية لهذا التدمير، التي هي الحياة الفعلية للشعر والفن الحديثين، لأن الاستعراض، الذي له **وظيفة جعل التاريخ منسيّاً في الثقافة**، يُطبِّق في الجِدّة- الزائفة لوسائله الحداثية نفس الاستراتيجية التي تشكل جوهره. ومن هنا يمكن لمدرسةٍ للأدب- الجديد، تعترفُ ببساطةٍ بأنها تتأمل الكلمةَ المكتوبة لذاتها، أن تقدّم نفسها على أنها جديدة. وفضلاً عن ذلك، وإلى جانب الإعلان من البسيط عن الجمال الكافي لتحلّل ما يقبل التوصيل، فإن أحدث اتجاهات الثقافة الاستعراضية- وأشدها ارتباطاً بالممارسة القمعية للتنظيم العام للمجتمع- تسعى، عن طريق «أعمال جماعية»، إلى إعادة تشكيل وسطٍ محيطٍ فني- جديد مركّب انطلاقاً من عناصر متحلّلة؛ خصوصاً في محاولات العمران الحضري لفرض تكامل الأنقاض الفنية أو التهجينات الجمالية- التقنية. ويُعبِّر هذا، على مستوى الثقافة- الزائفة الاستعراضية، عن المشروع العام للرأسمالية المتطوِّرة الذي يستهدف الإمساك من جديد بالعامل المُفتَّت باعتباره «شخصية متكاملةً جيداً في الجماعة»، وهذا هو الميل الذي وصفه السوسيولوجيون الأمريكيون (ريزمان، ووايت، إلخ. Riesman, Whyte, etc.) إنه نفس المشروع في كل مكان: **إعادة البنية دون جماعة إنسانية**.

(١٩٣)

حين تصبحُ الثقافةُ مجردَ سلعة، لابد لها كذلك أن تصبح السلعةَ- النجمةَ للمجتمع الاستعراضي. وقد حسب كلارك كير Clark Kerr، أحد أكثر إيديولوجيي هذا الاتجاه تقدمّاً، أن العملية المعقّدة لإنتاج، وتوزيع، واستهلاك المعارف، تجلب ٢٩٪ من الناتج القومي السنوي في الولايات المتحدة؛ ويتنبأ بأن الثقافة، خلال النصف الثاني من هذا القرن، ستقوم بدور القوة الدافعة لتطور الاقتصاد، وهو الدور الذي قامت به السيّارة في النصف الأول من هذا القرن، والسكك الحديدية خلال النصف الثاني من القرن الماضي.

(١٩٤)

إن كل فروع المعارف التي تواصل تطورها الآن بوصفها فكر الاستعراض، عليها أن تبرّر مجتمعاً لامبرّر له، وأن تشكّل علماً عاماً للوعي الزائف. وهي مشروطةٌ تماماً بحقيقة أنها لاتستطيع ولاتريد التفكير في قاعدتها المادّية داخل النسق الاستعراضي.

(١٩٥)

يجد فكر النظام، فكر التنظيم الاجتماعي للتبدي، نفسه وقد أرقعه في الغموض نفس الاتصال- الناقص sous- communication المعمّم الذي يدافع عنه هذا الفكر. إنه لايعرف أن الصراع يكمن في أصل كل أشياء عالمه. وأخصائيو سلطة الاستعراض، السلطة المطلقة داخل نسقها للغة دون جواب، قد أفسدتهم تماماً خبرتهم في الاحتقار وفي نجاح الاحتقار؛ فهم يجدون تأكيد احتقارهم في معرفتهم للإنسان المثير للاحتقار الذي يمثله المشاهد حقاً.

(١٩٦)

داخل الفكر المتخصّص للنسق الاستعراضي، يعمل تقسيمٌ جديد للمهام بقدر مايطرحُ تحسين هذا النسق مشكلاتٍ جديدة: فمن جهة، نجد أن السوسيولوجيا الحديثة، التي تدرس الانفصال بمساعدة الأدوات المفهومية والمادية للانفصال، تتولى النقد الاستعراضي للاستعراض؛ ومن الجهة الثانية، يتأسس الدفاع عن الاستعراض في هيئة فكر اللافكر، في فقدان ذاكرة رسمي للممارسة التاريخية. إلاّ أن اليأس الزائف للنقد غير الجدلي والتفاؤل الزائف للدعاية الخالصة للنسق متماثلان في أنهما فكرٌ خاضع.

(١٩٧)

إن السوسيولوجيا التي بدأت، في الولايات المتحدة أولاً، في تركيز النقاش على شروط الحياة التي نتجت عن التطور الحالي، اذا كانت قد جمعت قدراً كبيراً من المعطيات الإمبيريقية، فإنها لم تدرك أبداً حقيقة موضوعها ذاته، لأنها لم تعثر فيه على النقد المحايث له. والنتيجة هي أن الاتجاه الاصلاحي عن إخلاص لهذه السوسيولوجيا قد لجأ الى الأخلاق، والحسّ السليم، وهي نداءات تخلو تماماً من الدلالة بالنسبة للمقاييس العملية، الى آخره. ولأن هذه الطريقة في النقد تجهل السلب الكامن في لبّ عالمها، فإنها لاتفعل سوى الإصرار على وصف نوع من فائض القيمة السلبي يبدو لها

مزعجاً على السطح بشكل يبعث على الأسف، كانتشار طفيلي لاعقلاني. هذه النيّة الطيبة الناقصة، حتى باعتبارها أصيلة، تنتهي بتوجه اللوم الى العواقب الخارجية للنسق فحسب، لكنها تعتبر نفسها نقدية، متناسية الطابع الدفاعي أساساً لافتراضاتها ومنهجها.

(١٩٨)

أولئك الذين يشجبون عبثيّة أو مخاطر التحريض على التبديد في مجتمع الوفرة الاقتصادية، لايفهمون جدوى التبديد. إنهم يُدينون بجحود، باسم العقلانية الاقتصادية، الحُماة اللاعقلانيين الطيّبين الذين بدونهم تنهار سلطة هذه العقلانية الاقتصادية. وعلى سبيل المثال، فإن بورستان-Boorstin، التي يصفُ في كتابه الصورة L'Image الاستهلاكَ السلعي للاستعراض الأمريكي، لايصل أبداً إلى مفهوم الاستعراض، لأنه يعتقد أن بإمكانه إبقاء الحياة الخاصة، أو مقولة «السلعة النزيهة»، خارج نطاق هذه المبالغة المشئومة. إنه لايدرك أن السلعة ذاتها قد صنعت القوانين التي لابد أن يؤدي تطبيقها «النزيه» إلى الواقع المختلف للحياة الخاصة وإلى استعادتها التالية من جانب الاستهلاك الإجتماعي للصُّوَر.

(١٩٩)

يصف بورستان تجاوزات عالمٍ أصبح غريباً عنّا، باعتبارها تجاوزات غريبة عن عالمنا. لكن القاعدة «العادية» للحياة الاجتماعية، التي يشير إليها ضمنياً حين يُحدّدُ ملامح السيطرة السطحية للصور، بأحكامٍ سيكولوجية وأخلاقية، على أنها نتاجٌ «لادعاءاتنا المفرطة»، ليس لها أي واقع، لافي كتابه ولا في عصره. وهو لايستطيع فهم مجتمع الصور بكل أعماقه، لأن الحياة الإنسانية الواقعية التي يتحدث عنها، تقع بالنسبة له في الماضي، وتتضمن ماضي التسليم الديني. إن حقيقة هذا المجتمع ليست سوى نفي هذا المجتمع.

(٢٠٠)

السوسيولوجيا التي تعتقد أن بإمكانها أن تعزل عقلانيةً صناعيةً تعمل على حدةٍ عن مجمل الحياة الاجتماعية، يمكنها المضيُّ الى حدٍّ أن تعزل تقنيات إعادة الانتاج والنقل عن الحركة الصناعية الكلّية. هكذا يجد بورستان أن سبب النتائج التي يُصوِّرها هو الالتقاء التعس، الذي يكاد يكون صُدَفيّاً، بين جهاز تقني مفرط الضخامة لنشر الصور وبين انجذاب مفرط الى الحسيّ- الزائف من جانب أناس عصرنا. ومن هنا سيكون الاستعراض ناشئاً عن حقيقة كون الإنسان الحديث متفرجاً أكثر مما ينبغي. ولا يفهم بورستان أن انتشار «الأحداث- الزائفة» السابقة- التجهيز، الذي يشجبه، ينبع من حقيقة بسيطة، هي أن الناس، في الواقع الشامل للحياة الاجتماعية، لايعيشون الأحداث بأنفسهم. لأن التاريخ نفسه يُطارد المجتمع كشبح، نجد أن التاريخ- الزائف يُقام في كل مستويات استهلاك الحياة، لكي يحافظ على التوازن المُهدَّد للزمن المُجمّد الراهن.

(٢٠١)

إن تأكيد الاستقرار النهائي لفترة تجميدٍ قصيرة للزمن التاريخي هو الأساس الذي لايقبل الإنكار، والمُعلن بصورة واعية ولاواعية، للميل الراهن الى القولبة النسقية البنيوية. ووجهة النظر

التي ينظرُ منها فكرُ البنيوية المعادي- للتاريخ هي وجهة نظر الحضور الأبدي لنسق لم يخلق قط ولن ينتهي أبداً. وقد أمكن، بشكل تعسفي، استخلاص حلم ديكتاتورية بنية موجودة سلفاً على كل ممارسة اجتماعية، من نماذج البنيات التي طوّرتها اللغويات والانثولوجيا (وحتى تحليل أداء الرأسمالية)، وهي نماذجُ أسيء فهمها فعلاً في هذا السياق، وذلك ببساطة لأن الفكر الأكاديمي للكوادر المتوسطة، الغارق والمتمترس تماماً في الحفاوة التوقيرية للنسق القائم، يختزل بوضوح كلّ واقع الى وجود النسق.

(٢٠٢)

مثلما هو الحال مع كل علم اجتماعي تاريخي، لابد لكي نفهم المقولات «البنيوية»، أن يظل ماثلاً في أذهاننا أن المقولات تعبّر عن أشكال وجود وشروط وجود. وبالضبط مثلما لايمكن للمرء تقدير قيمة شخص حسب المفهوم الذي لديه عن نفسه، فلا يمكن للمرء تقدير هذا المجتمع المحدد- والإعجاب به- بأخذ اللغة التي يتحدث بها الى نفسه على أنها حقيقة لاجدال فيها. « لايمكن للمرء تقدير عصور التغيير تلك وفق الوعي الذي تملكه؛ بل على العكس، يجب على المرء تفسير الوعي بمساعدة تناقضات الحياة المادية... ». البنية هي وليدة السلطة القائمة والبنيوية هي الفكر الذي تضمنه الدولة، والذي يعتبر الشروط القائمة «للاتصال» الاستعراضي شروطاً مطلقة. وطريقتها في دراسة شفرة الرسائل في ذاتها ليست سوى النتاج، والاعتراف، بمجتمع يوجد فيه الاتصال في شكل سلسلة من العلامات المراتبية. وبالتالي، فليست البنيوية هي التي تفيد في إثبات الصلاحية غير- التاريخية لمجتمع الاستعراض؛ بل على العكس، فإن مجتمع الاستعراض الذي يفرض نفسه كواقع شامل هو الذي يفيد في إثبات الحلم البارد للبنيوية.

(٢٠٣)

لاشك أن المفهوم النقدي للاستعراض يمكن ابتذاله هو أيضاً إلى صيغة سوقية فارغة للبلاغة السوسيولوجية- السياسية لتفسير وشجب كل شيء على نحو مجرد، وبذلك يخدم في الدفاع عن النسق الاستعراضي. فمن البديهي أن أية فكرة لايمكن أن تؤدي إلى تجاوز الاستعراض الماثل، بل فقط إلى تجاوز الأفكار الماثلة عن الاستعراض. ولتدمير مجتمع الاستعراض تدميراً فعلياً، يحتاج الأمر الى بشر يضعون قوةً عمليةً موضعَ الفعل. ولاتكون النظرية النقدية للإستعراض صحيحةً إلا في اتحادها مع التيار العملي للنفي في المجتمع، وهذا النفي، الذي هو استئناف النضال الطبقي الثوري، سوف يصبح واعياً بذاته عن طريق تطوير نقد الاستعراض، الذي هو نظريةُ شروطه الواقعية، أي الشروط العملية للاضطهاد الراهن، ويكشف عكسياً، عن السر الذي يمكن أن يكونه هذا النفي. هذه النظرية لاتنتظر من الطبقة العاملة معجزات. إنها تستشرف الصيغة والتحقق الجديدين للمتطلبات البروليتارية كمهمة طويلة المدى. وللتمييز بشكل مصطنع بين النضال النظري والنضال العملي- إذ على الأساس المحدّد هنا، لايمكن بعد تصوّر إقامة وتوصيل مثل تلك النظرية دون ممارسة صارمة-، فإن من المؤكد أن الطريق الغامض والصعب للنظرية النقدية لابد كذلك أن يكون من نصيب الحركة العملية التي تعمل على مستوى المجتمع.

(٢٠٤)

يجب توصيل النظرية النقدية بلغتها الخاصة. إنها لغة التناقض، التي يجب أن تكون جدلية في شكلها مثلما هي في مضمونها. إنها نقدٌ للمجموع الكلي ونقدٌ تاريخي. إنها ليست «درجة الصفر للكتابة» بل عكس ذلك. إنها ليست نفياً للأسلوب، بل أسلوب النفي.

(٢٠٥)

في أسلوبه ذاته، يمثّل عَرْضُ النظرية الجدلية فضيحةً واحتقاراً بالنسبة للغة السائدة، وللأذواق التي شكّلتها هذه اللغة، لأن هذا العَرْضَ حين يستخدم المفاهيم العينية الموجودة، يتضمّن في نفس الوقت الوعيَ بسيولتها المُكتَشَفَة من جديد، بتدميرها الضروري.

(٢٠٦)

هذا الأسلوب الذي يحتوي على نقده الخاص يجب أن يُعبّر عن سيطرة النقد الحالي على كل ماضيه. بالنسبة له يشهدُ نمطُ عرض النظرية الجدلية نفسُه على الروح السلبية الموجودة فيها. «الصدق ليس مثل المنتَج الذي لايعود المرء يجد فيه أي أثر للأداة التي صنعته.» (هيجل). هذا الوعي النظري بالحركة، الذي يجب أن يكون حاضراً فيه أثرُ الحركة ذاته، يتبدّى بواسطة قلب ren-versement العلاقات القائمة بين المفاهيم وبواسطة تحريف détournement كل مايحوزه النقد السابق. وقلبُ المضاف إليه هو هذا التعبير عن الثورات التاريخية، المنقول إلى شكل الفكر، والذى اعتُبر أنه الأسلوب الإبيجرامي لهيجل. أمّا ماركس الشاب، الذي أوصى بالتقنية التي استخدمها فويرباخ Feuerbach استخداماً مضطرداً، والمتمثلة في استبدال الفاعل بالمُسنَد، فقد حقّق الاستخدام الأكثر اتساقاً لهذا الأسلوب العصيّ الذي استخرج بؤس الفلسفة من فلسفة البؤس. ويؤدي التحريف إلى تخريب النتائج النقدية الماضية التي تجمّدت في حقائق محترمة، أى تحوّلت الى أكاذيب. فقد استخدمه كيركجارد Kierkgaard استخداماً متعمّداً، مضيفاً إليه استنكاره له: «لكن رغم كل اللفّ والدوران، فكما تعود المُربّى دائماً إلي خزانة الطعام، فإنك تنتهي دائماً بأن تنزلق منك كلمة صغيرة ليست لك وتزعجك بالذكرى التي توقظها». (شذرات فلسفية). إن الالتزام باتخاذ مسافة تجاه ماتم تزييفهُ إلى صدق رسميّ هو مايُحدّد هذا الاستخدامَ للتحريف، كما اعترف به كيركجارد في نفس الكتاب. «ملاحظة واحدة أخيرة على إشاراتك العديدة الموجهة جميعها الى الأسى الذي أمزجه باستشهاداتي بأقوال مُستعارة. إنني لا أنكره هنا ولن أخفي أنه كان بإرادتي وأنني في استكمال تال لهذه الكراسة، اذا قُدّر لي أن أكتبه، أنوي أن أسمّي الشيء باسمه الحقيقي وأن ألبس المشكلة ثوبها التاريخي».

(٢٠٧)

الأفكارُ تتحسّن، وتُسهم في ذلك معاني الكلمات. الانتحالُ ضروريٌ. والتقدمُ يتضمّنه. إنه يمسكُ بخناق عبارةٍ لمؤلف، ويُفيد من تعبيراته، ويمحو فكرةً زائفة، ويستبدلها بفكرة صحيحة.

(٢٠٨)

التحريف Le détournement **هو نقيض الاستشهاد** La citation ، **نقيض السلطة النظرية** التي تُزيَّف دوماً بمجرد أن تصبح استشهاداً - شذرةً منتزعةً من سياقها، ومن حركتها، وأخيراً من عصرها بوصفه الإطار المرجعي الشامل ومن الاختيار المحدّد الذي مثّله في داخل هذا الإطار، سواء أكان هذا الاختيار معترفاً به أو خاطئاً. التحريف هو اللغة المرنة لما هو ضد- الايديولوجيا. وهو يظهر في الاتصال، الذي لايمكنه الادعاء بأنه يحمل أي ضمان في ذاته وبشكل نهائي. وهو، في ذروته، اللغة التي لايمكن أن يؤكدها أي مرجع سابق أو فوق- نقدي. بل على العكس فإن تماسكه الخاص، في ذاته ومع الحقائق القابلة للتطبيق، هو الذي يمكن أن يؤكد نواة الصدق القديمة التي يحملها. إن التحريف لم يؤسس قضيته على أي شيء، خارجي عن صدقه الخاص بوصفه نقداً راهناً.

(٢٠٩)

إن مايُقدِّم نفسه بوضوح، في الصياغة النظرية، على أنه مُحرَّفٌ، مُنكِراً كل استقلال قابل للدوام لمجال التعبير النظري، بإدخاله، من **خلال هذا العنف**، للفعل الذي يُحلّ بكل نظام قائم ويُطيح به، يُذكِّرنا بأن وجودَ النظرية ليس شيئاً في ذاته، ولا يمكنه أن يعرف نفسه إلا من خلال الفعل التاريخي. **والتصحيح التاريخي** الذي هو صنوه الحقيقي.

(٢١٠)

النفي الحقيقي للثقافة هو وحده الذي يمكنه الحفاظ على معناها. ولم يعد يمكنه أن يكون **ثقافياً**. ومن هنا فإن هذا النفي هو ما يبقى، على نحوٍ معيّن، في مستوى الثقافة، لكن بمعنى مختلف تماماً.

(٢١١)

بلغة التناقض، يُقدِّم نقدُ الثقافة نفسَه باعتباره نقداً مُوحَّداً: من حيث أنه يحكمُ مجملَ الثقافة- المعرفة وكذلك الشعر- ، ومن حيث أنه لايعود ينفصل عن نقد الكلِّ الاجتماعي. **هذا النقد النظري الموحَّد** هو الذي يمضي وحده ليلتقي مع **الممارسة الاجتماعية الموحَّدة**.



(٩)

الايديولوچيا المتجسدة مادياً

"الوعي الذاتي - يوجد في ذاته ولذاته من حيث ولأنه يوجد في ذاته ولذاته بالنسبة لوعي ذاتي آخر؛ وهذا يعني أنه لايوجد إلا بقدر مايُعترَف به."

هيجل

(فينومنولوچيا الروح).

(٢١٢)

الايديولوجيا هي قاعدةُ فكر مجتمع طبقي في مسار التاريخ الحافل بالنزاعات. والحقائق الايديولوجية لم تكن أبداً مجرد أوهام، بل وعياً مشوّهاً بجوانب الواقع، تُمثّل، بوصفها كذلك، عواملَ واقعية تُحرك بدورها أفعالاً واقعيةً مشوّهة. ويتجلى ذلك بدرجة أكبر مع التجسُّد المادي للايديولوجيا، والناتج عن النجاح الملموس للإنتاج الاقتصادي ذي الطابع المستقل، فهذا التجسدُ المادي للايديولوجيا، في شكل الاستعراض، يقوم بالخلط عملياً بين الواقع الاجتماعي وبين ايديولوجيا قد كيّفَت كلَّ واقع على أساس نموذجها.

(٢١٣)

الايديولوجيا، التي هي الرغبةُ المُجَرّدة في الكلي، ووهمُه، حين تكتسبُ المشروعية بواسطة التجريد الكلي والديكتاتورية الفعلية للوهم في المجتمع الحديث، فإنها لاتعودُ تمثّل النضالَ الإرادي لما هو جزئي، بل انتصارَه. وعند هذه النقطة، يكتسب الادعاءُ الايديولوجيُ نوعاً من الدقّة الوضعية المسطّحة: فلم يُعد خياراً تاريخياً، بل حقيقة. في هذا النوع من التأكيد، اختفت الأسماء المحدّدة للايديولوجيات. وحتى دور العمل الايديولوجي النوعي في خدمة النسق فإنه لايعود يُعتبر أكثر من اعتراف «بأساس إبستمولوجي» يزعمُ أنه يتجاوز كلَّ الظواهر الايديولوجية. الايديولوجيا المتجسّدة مادياً هي نفسها بلاإسم، مثلما هي دون برنامج تاريخي يمكن التعبير عنه. وهذا يعني من جديد أن تاريخ الايديولوجيات قد انتهى.

(٢١٤)

الايديولوجيا، التي قادَ كلَّ منطقها الداخلي باتجاه «الايديولوجيا الكلّية»، بالمعنى الذي يقصده مانهايم Mannheim – أي استبداد الشذرة التي تفرض نفسها بوصفها معرفةً– زائفة بكلٍ مُتجمّد، بوصفها رؤية شمولية يتم الآن استكمالها في الاستعراض السكوني للّا– تاريخ. واكتمالها يعني أيضاً تحلُّلها في مجموع المجتمع. ومع التحلُّل العملي لهذا المجتمع، يجب أن تختفي الايديولوجيا، التي هي اللاعقل النهائي الذي يعوق الوصول إلى الحياة التاريخية.

(٢١٥)

الاستعراض هو الايديولوجيا بامتياز، لأنه يُوَضِّحُ ويَعرضُ بشكلٍ كامل جوهرَ كل نسق ايديولوجي: إفقار، وإخضاع، ونفي الحياة الواقعية. الاستعراض هو مادياً «التعبير عن الانفصال والتباعد بين الإنسان والإنسان». إنه «القوة الجديدة للخداع»، المُركَّزة في أساس الاستعراض في هذا الإنتاج، والتي بواسطتها «ينمو المجالُ الجديد للكائنات الغريبة التي يخضع لها الإنسان... مع نمو كتلة الأشياء». إنه المرحلة العليا من توسُّع وجْه الحاجة ضد الحياة. «الحاجة إلى النقود هي إذن الحاجة الحقيقية التي ينتجها الاقتصاد السياسي، والحاجة الوحيدة التي ينتجها.» (المخطوطات الاقتصادية- الفلسفية). يَمُدُّ الاستعراض إلى كل الحياة الاجتماعية المبدأ الذي يدركه هيجل، في **الفلسفة الواقعية** Realphilosophie لمرحلة يينا Iéna، على أنه مبدأ النقود؛ إنه «حياةُ ماهو ميِّت، التي تتحرك داخل ذاتها».

(٢١٦)

على نقيض المشروع المُلخَّص في **الأطروحات حول فويرباخ** Thèse sur Feuerbach (أي تحقُّق الفلسفة في الممارسة التي تتجاوز التعارضَ بين المثالية والماديّة)، فإن الاستعراضَ، في آنٍ واحد، يحفظُ ويفرضُ، داخل التماسك- الزائف لعالمه، السماتَ الايديولوجية للمادية والمثالية. يحقق في الاستعراض الجانبُ التأمّلي للمادية القديمة الذي يدرك العالم بوصفه تمثيلاً وليس نشاطاً- والذي يضفي، في النهاية، الطابع المثالي على المادة- حيث تصبح أشياءُ عينيةُ سيدةَ الحياة الاجتماعية تلقائياً. وفي المقابل، يتحقق في الاستعراض كذلك **النشاطُ الذي تحلم به المثالية**- والذي يُضفي، في النهاية، الطابعَ المادي على مثالٍ مجرد، عن طريق التوسُّط التقني للعلاقات والإشارات.

(٢١٧)

التوازي بين الايديولوجيا والفُصام [الشيزوفرينيا] والذي برهن عليه جابل Gabel (في **الوعي الزائف** La Fausse Conscience) يجب وضعُهُ ضمن هذه العملية الاقتصادية لتجسيد الايديولوجيا مادياً. إن ما كانتْهُ الإيديولوجيا، هو ما أصبحهُ المجتمع. وإزاحة الممارسة جانباً، والوعي الزائف ضد- الديالكتيكي المصاحب لذلك، هما ما يتم فرضهما في كل ساعة من ساعات الحياة اليومية تخضع للاستعراض؛ هذا الاستعراض الذي يجب فهمه على أنه تنظيمٌ منهجي «لإخفاق مَلَكة الالتقاء»، واستبدالٌ لها **بحقيقة اجتماعية هذيانية**: هي الوعي الزائف بالالتقاء، «وهم الالتقاء». ففي مجتمع لم يعد ممكناً فيه لأي شخص أن يكون معترفاً به من جانب الآخرين، يصبح كلُ فرد عاجزاً عن التعرف على واقعه الخاص. تكون الايديولوجيا في دارها؛ ويكون الانفصال قد شيّد عالمه.

(٢١٨)

يقول جابل، «في اللوحات البيانية الإكلينيكية للفُصام، يبدو اضمحلالُ ديالكتيك الكُلّية (الذي يكون شكلهُ الحدّي هو الانفصام) واضمحلالُ ديالكتيك الصيرورة (الذي يكون شكله الحدّي هو التصلّب الهيستيري (كاتاتونيا Catatonie) متلازمين بقوة. إن وعي المتفرج، سجين العالم

السَطْح، المتيَّد بشاشة الاستعراض، التي تُثبِّت خلفها حياتُه هو، لايعرف سوى المتحدثين الخياليين interlocuteurs Fictifs الذين يحوطونه من جانب واحد بسلعهم وبسياسة سلعهم. والاستعراض، في مجمله، هو «صورته المرآوية». هنا يجري فوق خشبة المسرح العرضُ الزائف للتوحّد المعمّم autisme.

(٢١٩)

الاستعراض، الذي هو محوٌ للحدود بين الأنا وبين العالم عن طريق سحق الأنا التي يحاصرها وجود- غياب العالم، هو أيضاً محوٌ للحدود بين ماهو صادق وبين ماهو زائف عن طريق كبت كل حقيقةٍ مُعاشة تحت الحضور الواقعي للزيف الذي يضمنه تنظيم التَبْدِّي. هكذا فإن من يقبل، على نحوٍ سلبي، بمصيره اليومي الغريب عنه، يجدُ نفسَه مدفوعاً إلى جنونٍ يمثل رد فعل وهمي على مصيره، باللجوء إلى تقنيات سحرية وقبولٌ واستهلاك السلع يكمنان في قلب هذه الاستجابة- الزائفة.رداً على اتصالٍ دون جواب. والحاجة إلى المحاكاة التي يحسها المستهلك هي بالضبط الحاجة الطفولية، المشروطة بكل جوانب نزع ملكيته الجوهري. وحسب التعبيرات التي أطلقها جابل على مستوىً مرضيٍ مختلف تماماً فإن «الحاجة غير العادية للتمثيل représentation تُعوِّض هنا إحساساً معذّباً بكون المرء على هامش الوجود».

(٢٢٠)

اذا كان منطق الوعي الزائف غير قادرٍ على معرفة نفسه بشكل حقيقي، لابد للبحث عن حقيقةٍ نقدية عن الاستعراض أن يكون نقداً حقيقياً. ولابد له أن يناضل عملياً في صفوف الأعداء الذين لايلينون للاستعراض، وأن يُسلِّم بغيابه حيثما غابوا. والرغبةُ المجردة في الفعالية الفورية تقبلُ بقوانين الفكر السائد، بوجهة النظر الشاملة للحاضر، حين تُلقي بنفسها في المساومات الإصلاحية أو في نفايات الأعمال المشتركة الثورية- الزائفة. وهكذا يعاود الجنونُ الظهور داخل نفس الموقف الذي يزعمُ محاربتَه. وعلى العكس، فإن على النقد الذي يتجاوز الاستعراض أن يعرف كيف ينتظر.

(٢٢١)

التحررُ من الأسس المادية للحقيقة المقلوبة، هذا هو مغزى التحرر- الذاتي لعصرنا. هذه«المهمّة التاريخية لوضع الصدق في العالم»، لايمكن أن يحقّقها لا الفرد المنعزل، ولا الزحام المُتَذَرِّي الخاضع للتلاعب، بل يمكن أن تحققها، الآن وفي المستقبل، الطبقة القادرة على إنجاز تحلُّل الطبقات، وذلك بوضعها كل السلطة في الشكل النازع- للاستلاب للديمقراطية المتحقّقة، أي شكل المجلس العمالي، الذي تتحكم فيه النظرية العملية في نفسها وترى أفعالها. وليس هذا ممكناً إلا هناك، حيث يكون الأفراد «مرتبطين مباشرة» بالتاريخ الكلي»؛ هناك فقط، حيث يتسلح الحوارُ ليجعل شروطه الخاصة تنتصر.



تعليقات

على

"مجتمع الاستعراض"

"إلى ذكرى جيرار ليبوفيتشي الذي اغتيل في باريس في ٥ مارس
١٩٨٤ في مكيدة ما زالت غامضة"

نشرت هذه التعليقات عام ١٩٨٨

Editions Gérard Lebovici, Paris

"لا تيأسوا من شيء، مهما بلغ من حرج الموقف والظروف التي تجدون أنفسكم فيها.

ففي المناسبات التي يبعث فيها كل شيء على الفزع، لا يجب الفزع من أي شيء. حين يكون المرء محاطا بكل أنواع المخاطر، عليه ألا يخشى أيا منها. حين لا تعود لدى المرء أية حيلة، عليه الاعتماد عليها جميعا. حين يكون المرء مباغتا: عليه أن يباغت العدو نفسه."

سون تسي "فن الحرب"

I

من المؤكد أن هذه **التعليقات** سرعان ما سيعرفها خمسون أو ستون شخصاً؛ وهذا كثير في الأيام التي نعيشها، وحين يتناول المرء أمورا بهذه الخطورة. لكن ذلك راجع أيضا إلى أنني أتمتع، في أوساط معينة، بسمعة كوني متعمقاً. كذلك يجب أن نضع في الاعتبار أن نصف هذه النخبة ممن سيهتمون، أو عددا يقرب كثيرا من النصف، يتكوّن من أناس يعملون في الحفاظ على نسق السيطرة الإستعراضية، والنصف الآخر من أناس سيصرُّون على عمل العكس تماماً. ومن ثم، فإنني إذ أضع في حسباني القرّاء المنتبهين تماما والمتنوِّعي التأثير، لا يمكنني بداهةً أن أتكلم بكل حرية. فلابد لي بالدرجة الأولى أن أحذر من أن أطلع أيا كان على أكثر مما يجب.

ستجبرني تعاسةُ الزمن، إذن، على الكتابة، مرةً أخرى، بطريقة جديدة. سأحذف طوعا عناصر معينة، بحيث يظل المخطط غير واضح تماماً. ويمكن أن يصادف المرء هنا بعض الأحابيل، مثل طابع الحقبة ذاتها. ولن يمكن للمعنى الكلّي أن يظهر إلاّ بشرط إضافة عديد من الصفحات الأخرى هنا وهناك: هكذا جرى، في أحيان كثيرة، إدراج بنود سرية في ما تطرحه الأبحاث صراحةً، وذلك بنفس الطريقة التي لا تكشف بها بعض العناصر الكيميائية عن جزء غير معروف من خصائصها إلاّ حين تتحد مع عناصر أخرى. وبخلاف ذلك، سيكون في هذا العمل الموجز، أكثر مما يجب من الأشياء التي ستكون، للأسف، سهلة الفهم.

II

في عام ١٩٦٧، أوضحت في كتاب، هو **مجتمع الإستعراض**، ما صار عليه الإستعراض الحديث فعليا من الناحية الأساسية: بلوغ السيطرة الأوتوقراطية للإقتصاد السلعي وضعا من السيادة اللا - مسئولة، ومجموع تقنيات الحكم الجديدة المصاحبة لهذه السيطرة. ولما لم تكن إضطرابات عام ١٩٦٨، التي استمرت في بلدان مختلفة خلال الأعوام التالية، قد قلبت في أي مكان التنظيم القائم للمجتمع، الذي ينبثق فيه هذا الإستعراض بصورة كأنها عفوية، فإن الإستعراض قد واصل في كل مكان تدعيم نفسه، أي أنه واصل انتشاره نحو الأطراف من كل الجهات، وزاد في نفس الوقت من كثافته في المركز. كذلك فإنه تعلم طرقا دفاعية جديدة، مثلما يحدث عادةً مع السلطات المعرضة للهجوم. حين بدأت نقد المجتمع الإستعراضي، لوحظ بالدرجة الأولى، بالنسبة للحظتها، المضمون الثوري الذي أمكن للمرء اكتشافه في هذا النقد، وشعر المرء، بالطبع، بأن هذا المضمون هو العنصر الأكثر إثارة للسخط. أما بالنسبة للموضوع نفسه، فقد إتُّهمتُ أحيانا بأنني قد اخترعته برمته، واتُّهمتُ دوما بأنني متورط في المبالغة في تقييمي لعمق ووحدة ذلك الاستعراض وعمله الفعلي. ولا بد أن أسلم بأن الآخرين، الذين نشروا، فيما بعد، كتب جديدة حول نفس الموضوع، قد أوضحوا تماما أن باستطاعة المرء تجنب

قول الكثير في هذا الشأن. فلم يكن عليهم سوى استبدال المجموع وحركته بتفصيل سكوني واحد من سطح الظاهرة، تغتبط أصالة كل مؤلف باختياره تفصيلا مختلفا، وبذلك يصبح أقل إزعاجا. ولم يشأ أي منهم إفساد التواضع العلمي لتفسيره الشخصي بمزجه بأحكام تاريخية مثيرة للفزع.

لكن مجتمع الإستعراض لم يتوقف في نهاية الأمر عن مواصلة مسيرته وهو يمضي بسرعة لأنه، في عام ١٩٦٧، لم يكن قد مضى عليه بالكاد سوى أربعين عاما، لكنه أعوام استخدمها بكفاءة. ومن خلال حركته ذاتها، التي لم يتجشم أحد عناء دراستها، أظهر فيما بعد، بإنجازات مذهلة، أن طبيعته الفعلية هي بالفعل ما كنت قد قلته. هذه النقطة التي تمت البرهنة عليها ليس لها مجرد قيمة أكاديمية: فلا مناص بلا شك من الإقرار بوحدة وتمفصل القوة الدافعة التي هي الإستعراض، لنتمكن انطلاقا من ذلك من بحث أية إتجاهات استطاعت هذه القوة التحرك فيها، بوصفها ما هي عليه. وهذه المسائل ذات أهمية كبرى: ففي تلك الشروط بالضرورة سنجري متابعة الصراع داخل المجتمع. وحيث أن الإستعراض، في هذه الأيام، أقوى بالتأكيد مما كان حتى الآن، فماذا يفعل بهذه القوة الإضافية؟ إلى أي مدى تقدّم، حيث لم يكن في السابق؟ ما هي، باختصار، **خطوط عمله** في هذه اللحظة؟ من الآن فصاعدا، أصبح منتشرا على نطاق واسع شعور غامض بأن الأمر يتعلق بنوع من الغزو السريع، الذي يجبر الناس على أن يحيوا حياة بالغة الاختلاف؛ لكن المرء يشعر بذلك مثل تغيّر لا تفسير له في المناخ أو في توازن طبيعي آخر، وهو تغير لا يدري الجهل في مواجهته سوى أنه ليس لديه ما يقوله. وأكثر من ذلك، يسلم الكثيرون بأنه غزو تمديني، حتمي الحدوث، بل ويرغبون في التعاون فيه. وهؤلاء يفضلون ألا يعرفوا فيم يفيد بالضبط هذا الغزو، ولا كيف يمضي.

سوف أذكر بعض **نتائج عملية**، غير معروفة جيدا حتى الآن، تنتج عن هذا الانتشار السريع خلال السنوات العشرين الأخيرة. ولا أنوي، في أي جانب من جوانب المسألة، الوصول إلى جدالات، أصبحت سهلة وغير مجدية بصورة مفرطة؛ ولا فائدة من الانتصار فيها. التعليقات الحالية لا تهتم بالوعظ الأخلاقي. إنها لا تتأمل فيما هو مأمول، أو فيما هو مُفضّل. بل تقتصر على ملاحظة ما هو قائم.

III

الآن، حين لم يعد باستطاعة أحد أن يتشكك على نحو معقول في وجود الإستعراض وقوته، يمكن للمرء بالمقابل أن يتشكك في معقولية إضافة شيء حول مسألة فصلت فيها الخبرة بطريقة قاطعة تماما. ففي عدد ١٩ سبتمبر ١٩٨٧، أوضحت صحيفة **اللوموند** بسعادة الصيغة التالية: "ما **هو موجود، لم يعد المرء إذن بحاجة للحديث عنه**"، هذا هو القانون الأساسي الحقيقي لهذه الأزمنة الإستعراضية الذي لم يتخلف عنه أي بلد، في هذا الصدد على الأقل: "أن يكون المجتمع المعاصر

مجتمع إستعراض، فهذا أمر مفهوم. يجب إذن ملاحظة تلك الأمور التي لا تسلم نفسها للملاحظة. ثم بعد المرء يحسب الأعمال التي تصف ظاهرة أصبحت تسم الأمم الصناعية دون أن تفلت منها البلدان المتخلفة عن عصرها. لكن مع ملاحظة هذه السخرة التي يجب بمقتضاها على الكتب التي تحلل تلك الظاهرة، لكي تشجبها عموما، أن تضحي، هي الأخرى، للإستعراض لكي تصبح معروفة". صحيح أن هذا النقد الإستعراضي للإستعراض، الذي جاء متأخرا وفضلا عن ذلك يرمد "أن يصبح معروفا" على نفس الأرض، يميل بالضرورة إلى التعميمات غير المجدية أو إلى التحسرات المنافقة؛ مثلما تبدو كذلك غير مجدية تلك الحكمة المتخلصة من الأوهام والتي تهزل في صحيفة.

إن النقاش الأجوف حول الإستعراض، أي حول ما يفعله مالكو العالم، يكون بذلك منظما **بواسطته هو نفسه**: يتم التأكيد على الوسائل الكبرى للإستعراض، بهدف عدم قول أي شيء عن استخدامها الكبير. وعادة ما يُفضَّل تسميته باسم الإعلام le médiatique، بدل اسم الإستعراض. وبهذه الطريقة، يراد تحديد أداة بسيطة، نوع من الخدمة العامة التي تدير بـ "إحترافية" نزيهة ثروة الاتصال الجديدة للجميع بواسطة **وسائل الإعلام الجماهيرية** mass media، إتصال يبلغ في النهاية مرتبة النقاء الأحادي الجانب، الذي يبعث الإعجاب الهادئ بالقرار الذي تم إتخاذه فعلا. إن ما يجري توصيله، هي **أوامر**؛ وبشكل متناغم تماما، فإن من أصدروا هذه الأوامر هم كذلك من سيقولون ما يفكرون فيه.

إن سلطة الإستعراض، التي هي من الناحية الأساسية موحَّدة، وفارضة للمركزية بقوة الأشياء ذاتها، واستبدادية تماما في روحها، كثيرا ما يغضبها أن ترى كيف تتأسس، تحت سيطرتها، سياسة - إستعراضية، وعدالة - إستعراضية، وطب - إستعراضي، وغير ذلك من "المبالغات الإعلامية" المدهشة على حد سواء. على هذا النحو لن يكون الاستعراض سوى مبالغة الإعلام، الذي يجري أحيانا حمل طبيعته، الطيبة بصورة لا تقبل الجدل حيث أنه يفيد في الإتصال، إلى حدود المبالغة. ويعلن سادة المجتمع بصورة متواترة أن مستخدميهم الإعلاميين يسيئون خدمتهم؛ وغالبا ما يلومون جمهور المشاهدين على ميلهم إلى العكوف دون ضابط، وعلى نحو حيواني تقريبا، على اللذات الإعلامية. على هذا النحو سيتم، خلف حشد يفترض أنه لانهائي من التنافرات* الإعلامية المزعومة، إخفاء ما هو على العكس تماما نتيجة تقارب** إستعراضي مقصود بإصرار ملحوظ. ومثلما يسيطر منطق السلعة على الطموحات التنافسية المتنافرة لكل التجار، أو كما يسود منطق الحرب دائما في التعديلات المتواترة للأسلحة، فإن المنطق الصارم للإستعراض يحكم في كل المجالات التنافرَ الغزير لضروب الشطط الإعلامي.

---

divergences *

convergence **

يكمن التغيير الذي له أكبر أهمية، في كل ما حدث منذ عشرين عاما، في نفس إستمرار الإستعراض. ولا ترتبط هذه الأهمية بالوصول بأدواته الإعلامية إلى حد الكمال. تلك الأدوات التي بلغت بالفعل حالة متقدمة جدا من التطور: فالأمر ببساطة هو أن السيطرة الإستعراضية قد إستطاعت تنشئة جيل خاضع لقوانينها. والشروط الجديدة بشكل إستثنائي والتي عاش فيها هذا الجيل فعلا، في مجموعه، تشكل ملخصا دقيقا وكافيا لكل ما يحول دونه الإستعراض من الآن فصاعدا؛ وكذلك لكل ما يسمح به.

IV

على المستوى النظري البسيط. لا يسعني أن أضيف إلى ما كنت قد صغته سابقا سوى تفصيل واحد، لكنه بعيد المدى. ففي عام ١٩٦٧، ميَّزتُ بين شكلين، متتابعين ومتباريين، من السلطة الإستعراضية، هما الشكل المركَّز والشكل المشتَّت. وكان هذا الشكل وذاك يخيمان على المجتمع الواقعي، بوصفهما هدفه وكذبته. الشكل الأول، الذي يضع في الصدارة الإيديولوجيا الملخَّصة حول شخصية ديكتاتورية، كان قد صاحب الثورة المضادة الشمولية، النازية وكذلك الستالينية. أما الشكل الآخر، الذي يحث المأجورين على الاختيار بحرية بين تنويعة ضخمة من السلع الجديدة التي تواجههم، فقد مثل هذه الأمركة للعالم، التي أرعبت في بعض جوانبها، لكنها أغوت كذلك، البلدان التي أمكن فيها الحفاظ زمنا أطول على شروط الديمقراطيات البورجوازية من الطراز التقليدي. ومنذ ذلك الحين، تأسس شكل ثالث، بالتوليف المحسوب بين الشكلين السابقين، وعلى القاعدة المشتركة لإنتصار ذلك الذي إتضح أنه الأقوى، أي الشكل المشتت. والأمر يتعلق هنا **بما هو إستعراضي متكامل،** الذي يميل من الآن فصاعدا إلى فرض نفسه عالميا.

إن المكان البارز الذي كان لروسيا وألمانيا في تشكُّل الإستعراض المركَّز، والذي كان للولايات المتحدة في تشكل الإستعراض المشتَّت، يبدو أنه أصبح من نصيب فرنسا وإيطاليا في لحظة إقامة الإستعراض المتكامل، بفعل سلسلة من العوامل التاريخية المشتركة: هي الدور الهام للحزب والنقابة الستاليتيين في الحياة السياسية والفكرية، والتقاليد الديمقراطية الواهنة، والإحتكار الطويل للسلطة من جانب حزب حاكم واحد، وضرورة الإجهاز على رد ثوري ظهر فجأة.

يتبدى ما هو إستعراضي متكامل بوصفه مركزا و مشتتا في آن واحد. ومنذ هذا التوحيد المثمر عرف كيف يستخدم بدرجة أكبر هذه الخاصية وتلك. وقد تغير نمط إستخدامهما السابق كثيرا. فبالنسبة للجانب المركز، أصبح المركز الذي يدير الأمور خفيا الآن: فلم يعد يوضع فيه أبدا رئيس معروف، ولا إيديولوجيا واضحة. وبالنسبة للجانب المشتت، لم يكن التأثير الإستعراضي قد طبع مطلقا إلى هذه الدرجة جملة السلوكات والأشياء التي يتم إنتاجها إجتماعيا على وجه

التقريب. فالمعنى النهائي للإستعراض المتكامل، هو أنه يصبح متكاملا في الواقع ذاته بقدر ما يتحدث عنه؛ وأنه يعيد بناءه كما تحدث عنه. بحيث أن هذا الواقع لا يعود في مواجهته الآن كشيء غريب عنه. حين كان الإستعراضي مركزا كان يفلت منه الجزء الأكبر من مجتمع الأطراف؛ وحين كان مشتتا، كان يفلت منه جزء ضئيل؛ واليوم لا يفلت منه شيء مطلقا. الإستعراض ممتزج بكل واقع، لأنه يُشعُّ هذا الواقع. ومثلما إستطاع المرء بسهولة أن يتوقع نظريا، فإن الخبرة العملية للتحقق المطلق العنان لإرادات المنطق السلعي سرعان ما ستكون قد أظهرت ودون إستثناء، أن تحوُّل التزييف إلى عالم كان كذلك تحولا للعالم إلى تزييف. وبإستثناء ميراث مازال مهما، لكنه مقضيٌّ عليه بالتناقص الدائم، من الكتب والمباني القديمة، التي فضلا عن ذلك يتزايد بإطراد إختيارها ووضعها في منظور يوافق مقتضيات الإستعراض، لم يعد يوجد شيء، في الثقافة ولا في الطبيعة، لم يتم تغييره، وتلويثه، وفق طرق ومصالح الصناعة الحديثة حتى الوراثة ذاتها أصبحت بكاملها في متناول قوى المجتمع السائدة.

إن حكومة الإستعراض، التي تحتفظ في الوقت الحاضر بكل وسائل تزييف مجموع الإنتاج وكذلك الإدراك، هي سيدٌ مطلقٌ للتذكارات مثلما هي سيد مُطلق العنان للمشروعات التي تشكل وجه المستقبل الأشد بعدا. إنها تسيطر وحدها في كل مكان؛ **وهي تنفذ أحكامها العاجلة**.

في مثل تلك الشروط يمكن أن يشهد المرء إنطلاقا مفاجئا، مصحوبا ببهجة كرنفالية، لنهاية ساخرة لتقسيم العمل؛ لا سيما لو تطابق ذلك مع الحركة العامة لإختفاء كل منافسة حقيقية. سيتجه مصرفي إلى الغناء، ويجعل محام من نفسه مرشدا للشرطة، ويعرض خبّاز تفضيلاته الأدبية، ويحكم ممثل، ويتفلسف طاه حول لحظات الطهي بإعتبارها معالم في التاريخ العالمي. يمكن لكل شخص أن يبرز داخل الإستعراض بهدف أن يعكف علنا على، وأحيانا لكي يصل سرا إلى، نشاط مختلف تماما عن التخصص الذي عُرف به في البداية. هنالك حيث إكتسب إمتلاك "مكانة إعلامية" أهمية أكبر بما لا يقاس من قيمة ما استطاع المرء أن يفعله حقا، يكون من الطبيعي أن تكون هذه المكانة قابلة للنقل بسهولة، وتمنح الحق في اللمعان، بنفس الطريقة، في أي مكان آخر. وغالبا ما تتابع هذه الجزيئات الإعلامية المنشّطة عملها البسيط في مهمتها المضمونة قانونا والمثيرة للإعجاب. لكن يحدث أن يقوم الإنتقال الإعلامي بدور **الغطاء** بين كثير من المشروعات، المستقلة رسميا، لكنها ترتبط سرا في الواقع بشبكات مختلفة **ملائمة** ad hoc لهذا الغرض. بحيث يحدث، أحيانا، أن التقسيم الإجتماعي للعمل، وكذلك التضامن المتوقع حاليا من إستخدامه، يعاودان الظهور تحت أشكال جديدة تماما؛ فمثلا، أصبح بإمكان المرء أن ينشر رواية من أجل الإعداد لجريمة إغتيال. هذه الأمثلة الصارخة توضح كذلك أن المرء لم يعد يمكنه الثقة في أي شخص في مهنته.

لكن الطموح الأسمى للإستعراض المتكامل، هو أن يتحول العملاء السريون إلى ثوريين، وأن

يتحول الثوريون إلى عملاء سريين.

V

تتميز المجتمعات التي بلغت من التحديث درجة الوصول إلى مرتبة الإستعراض المتكامل بالتأثير المتضافر لخمس سمات أساسية، هي: التجديد التكنولوجي المتصل؛ واندماج الإقتصاد - الدولة؛ والسر المعمَّم؛ والزيف دون جواب؛ والحاضر الدائم.

وحركة الإبتكار التكنولوجي مستمرة منذ زمن بعيد، وهي مؤسِّسة للمجتمع الرأسمالي، الذي يطلق عليه أحياناً المجتمع الصناعي أو ما بعد الصناعي. لكنه منذ إكتسب أحدث تسارع له (غداة الحرب العالمية الثانية)، أخذ يدعم السلطة الإستعراضية بصورة أفضل بكثير، إذ بواسطة هذه السلطة يكتشف كل شخص أنه قد سلّم نفسه تماما لمجموع الإخصائيين، لحساباتهم ولأحكامهم المُرْضية دائما على أساس تلك الحسابات. أما إندماج الإقتصاد - الدولة فهو أوضح ميل في هذا القرن؛ وقد أصبح على الأقل محرك التطور الإقتصادي الأحدث. إن التحالف الدفاعي والهجومي المبرم بين هاتين القوتين، الإقتصاد والدولة، قد ضمن لهما أكبر منافع مشتركة، في كل المجالات: إذ يمكن القول بأن كل واحدة منهما تملك الأخرى؛ ومن العبث أن تعارض إحداهما بالأخرى، أو أن نميز بين مبرراتهما ولا - مبرراتهما. وقد أظهر هذا الإتحاد أيضا أنه مواتٍ إلى أقصى حد لتطور السيطرة الإستعراضية، التي لم تكن تعني، منذ تشكلها، شيئا آخر، على وجه الدقة. أما السمات الثلاث الأخيرة فهي التأثيرات المباشرة لهذه السيطرة، في مرحلتها المتكاملة.

فالسر المعمم يكمن خلف الإستعراض، بوصفه التتمّة الحاسمة لما يعرضه ويوصفه، إذا غاص المرء إلى عمق الأشياء، أهم عمليات الإستعراض.

ومجرد حقيقة كون ماهو زائف دون جواب من الآن فصاعدا أضفت عليه صفة جديدة تماما. فما هو حقيقي هو الذي توقف عن الوجود في نفس الآن في كل مكان تقريبا، أو أنه في أفضل الأحوال وجد نفسه مختزلا إلى حالة إفتراض لا يمكن إثباته أبدا. وقد حقق الزيف دون جواب إختفاء الرأي العام، الذي وجد نفسه في البداية عاجزا عن جعل نفسه مفهوما؛ ثم، وبسرعة بالغة، وجد نفسه عاجزا عن مجرد التشكل. ويستتبع ذلك بالطبع نتائج هامة في السياسة، والعلوم التطبيقية، والعدالة، والمعرفة الفنية.

إن بناء حاضر تكون فيه الموضة ذاتها، من الملابس وحتى المغنّين، جامدة، حاضر يود نسيان الماضي ولم يعد يعطي الإنطباع بأنه يؤمن بمستقبل، يتم تحقيقه بواسطة المسار الدائري الذي لا يتوقف للمعلومات، والذي يعود من جديد في كل لحظة إلى قائمة شديدة الإيجاز من الترهات، التي يتم

الإعلان عنها بحرارة بإعتبارها أخبارا هامة؛ بينما لا تمر إلا نادرا. وفي إختلاجات قصيرة، الأخبار الهامة حقا، عن ما يتغير فعلا. وهذه الأخبار تتعلق على الدوام بالإدانة التي يبدو أن هذا العالم قد أصدرها ضد وجوده، بمراحل دماره - الذاتي المبرمج.

VI

كان القصد الأول للسيطرة الإستعراضية هو أن تختفي المعرفة التاريخية عموما؛ وفي البداية، أن تختفي تقريبا كل المعلومات وكل التعليقات المعقولة حول الماضي القريب جدا. ومثل هذه البداهة الصارخة لا تحتاج إلى شرح. فالإستعراض ينظّم بإقتدار الجهل بما يأتي، وبعد ذلك مباشرة، نسيان حتى ما استطاع أن يكون معروفا. فأشد الأمور أهمية هو أشدها خفاء. فمنذ عشرين عاما نجد أن لا شيء، أعيد حجبه بكل هذا القدر من الأكاذيب الموجّهة مثل تاريخ مايو عام ١٩٦٨. وقد أمكن مع ذلك إستخلاص دروس مفيدة من بعض الدراسات المتخلصة من الأوهام حول تلك الأحداث وأصولها؛ لكنه سر الدولة.

في فرنسا، منذ عشر سنوات، قام رئيسٌ للجمهورية، نُسيَ منذ ذلك الحين لكنه كان وقتها يطفو فوق سطح الإستعراض، بالإعراب بسذاجة عن السرور الذي كان يشعر به، « عارفين أننا سنحيا من الآن فصاعدا في عالم دون ذاكرة، فيه، مثلما فوق سطح الماء، تطارد الصورةُ الصورةَ بلا نهاية ». إنه لأمر مريح حقا لمن يدير الأمور؛ ويعرف كيف يبقى في موقعه. ونهاية التاريخ هي راحة سارة لكل سلطة حاضرة. فهي تضمن لهذه السلطة النجاح المطلق لمجمل مشروعاتها، أو ضوضاء النجاح على الأقل.

إن أي سلطة مطلقة تكبت التاريخ الذي تحمله بشكل أكثر جذرية لكي تنجز مصالح أو إلتزامات أشد إلحاحا، وبالأخص حسبما تكون قد وجدت بدرجة أو بأخرى التسهيلات العملية لتنفيذها. لقد أحرق تسين شي - هوانغ - تي الكتب، لكنه لم ينجح في جعلها تختفي جميعها. وفي قرننا ذهب ستالين إلى مدى أبعد في تحقيق مثل ذلك المشروع لكنه، رغم التواطؤات من كل نوع والتي إستطاع العثور عليها خارج حدود إمبراطوريته، ظلت منطقة شاسعة من العالم بعيدة عن متناول شرطته، يجري فيها الضحك على تدجيلاته. وقد أدى الإستعراض المتكامل أداء أفضل، بأساليب بالغة الجدة، وبالعمل هذه المرة على نطاق عالمي. فالحماقة التي تفرض إحترامها في كل مكان، لم يعد مسموحاً بالضحك منها؛ وعلى أية حال، أصبح من المستحيل معرفة أن المرء يضحك منها.

كان مجال التاريخ هو ما يقبل التذكُّر، مجموع الأحداث التي تتبدّى نتائجها لزمن طويل، وبشكل لا ينفصم. كانت المعرفة هي التي يجب أن تدوم، وتساعد، جزئيا على الأقل، على فهم ما

يأتي من جديد: « إنه مُلْكٌ دائم » كما يقول توسيديدس Thucydide#. من هنا كان التاريخ **مقياس** جدّة حقيقية؛ ومن يبيع الجدة له كل المصلحة في جعل وسيلة قياسها تختفي. حين يكتسب ما هو هام إعترافا إجتماعيا به بإعتباره ما هو لحظي، ثم يصبح كذلك أيضا في اللحظة التالية. شيئا آخر وهو هو نفس الشيء، ويحل بإستمرار محل أهمية لحظية أخرى، يكون باستطاعة المرء إذن أن يقول أن الوسيلة المستخدمة تضمن نوعا من الأبدية لهذه اللا - أهمية، التي تتحدث بكل هذا الصخب.

والميزة الثمينة التي إستخلصها الإستعراض من هذا **الوضع - للتاريخ - خارج - القانون**، من الحكم فعلا على كل التاريخ القريب بأن يصبح سريا، ومن النجاح في فرض النسيان العام للروح التاريخي في المجتمع، هذه الميزة هي في المقام الأول إخفاء تاريخه الخاص: إخفاء نفس حركة فتحه القريب للعالم. فقد بدا أن سلطته مألوفة فعلا، كأنها كانت موجودة منذ الأزل. كل المغتصبين أرادوا جعلنا ننسى **أنهم قد وصلوا للتوّهم**.

VII

مع تدمير التاريخ، فإن الحدث المعاصر نفسه هو الذي يتباعد على الفور إلى مسافة خيالية، بين حكاياته التي لا يمكن التحقق منها، وإحصاءاته التي لا يمكن التحكم فيها، وتفسيراته التي لا تقبل التصديق، وتعليلاته الواهية. وإزاء كل السخافات التي تقدّم إستعراضيا، ليس ثمة أبدا سوى وسائط إعلامية هي التي يمكن أن تجيب عليها، بتصحيحات أو تنبيهات محترمة، رغم أن هذه الوسائط تضن بذلك حتى، لأنها، بصرف النظر عن جهلها البالغ، فإن **تضامنها، المهني والقلبي**، مع السلطة العامة للإستعراض، ومع المجتمع الذي تعبر عنه، يلقي عليها واجبا، وكذلك متعة، عدم الإبتعاد أبدا عن هذه السلطة، التي لا يجب العيب في ذاتها الملكية. فلا يجب نسيان أن كل وسيط إعلامي، سواء بحكم الأجر أو بحكم تعويضات أو ترضيات أخرى، له دائما سيد، وأحيانا عدة سادة؛ وأن كل وسيط إعلامي يعرف أنه قابل للإستبدال.

كل الخبراء إعلاميون - دولاتيون، ولا يُعترف بأنهم خبراء إلا عن هذا الطريق. وكل خبير يخدم سيده، لأن كل إمكانيات الإستقلال القديمة قد إختزلتها شروط تنظيم المجتمع الراهن إلى لا شيء تقريبا. والخبير الذي يخدم على أفضل نحو هو، بالتأكيد، الخبير الذي يكذب. ومن هم بحاجة إلى الخبير هم، لدوافع مختلفة، المُزيِّف والجاهل. فحيث لم يعد الفرد يتحقق من شيء بنفسه، سيقوم الخبير بضمانته رسميا. من قبل، كان من الأمور العادية أن يوجد خبراء في فن الإتروسكيين؛ وكانوا أكفاء على الدوام، لأن الفن الإتروسكي ليس مطروحا في السوق. لكن حقبة تجد أن من المربح، على سبيل المثال، أن تغش كيميائيا عددا من الأنبذة الشهيرة، لن تستطيع بيع هذه الأنبذة إلا إذا أعدت

خبراء في الأنبذة سوف يجعلون الأقبية تحت عطورهم الجديدة، القابلة للتحقق منها بدرجة أكبر. يلاحظ تريفنس أنه «تحت معطف سيء، عادة ما يجد المرء سكيرا جيدا». إن من يعرف النبيذ عادة ما يجهل قواعد الصناعة النووية؛ لكن السيطرة الإستعراضية تقدّر أنه، ما دام أحد الخبراء ينال السخرية بشأن الصناعة النووية، فإن خبيرا آخر يمكنه أن ينال السخرية بشأن النبيذ. ويعرف المرء، على سبيل المثال، كم يضطر خبير الأرصاد الجوية الإعلامية، الذي يعلن درجات الحرارة أو الأمطار المتوقعة خلال الأربع والعشرين ساعة المقبلة، إلى إلتزام الكثير من التحفظات لإرتباطه بالحفاظ على توازنات إقتصادية، وسياحيّة، وجهوية، حين يسير كل هؤلاء الناس بهذه الكثرة على كل تلك الطرق، بين أماكن متماثلة في كآبتها؛ بحيث يكون عليه أن ينجح بسرعة في مهمته باعتباره مسلّيا.

يتبدى أحد جوانب إختفاء كل معرفة تاريخية موضوعية فيما يخص السمعة الشخصية مهما كانت، فقد أصبحت طيعة وقابلة للتصحيح وفق مشيئة من يتحكمون في كل المعلومات، تلك التي يتم جمعها وكذلك تلك الشديدة الإختلاف، التي يتم نشرها؛ حيث أن لديهم تصريح كامل بالتزييف. فالدليل التاريخي الذي لا يريد الإستعراض أن يكون له شأن به لا يعود دليلا. وحيث لم يعد لأي شخص سوى الشهرة التي تسبتها إليه، كأنها حظوة، أريحية محكمة إستعراضية، فإن الشقاء يمكن أن يعقبها على الفور. إن الشهرة المضادة - للإستعراض تصبح شيئا بالغ الندرة. وأنا نفسي أحد آخر الأحياء الذين يملكون مثل هذه الشهرة؛ لأنني لم يكن لي غيرها أبدا. لكنها كذلك تصبح مشكوكا فيها بدرجة غير عادية. إن كون المرء معروفاً خارج العلاقات الإستعراضية أصبح يعادل كونه معروفاً بوصفه عدوا للمجتمع.

من المسموح قلب ماضي أي شخص رأسا على عقب، وتعديله بشكل جذري، وإعادة صنعه على غرار محاكمات موسكو؛ ودون حتى اللجوء إلى مشقة المحاكمة. فباستطاعة المرء أن يُقتل بتكاليف أقل. إن شهود الزور، الذين ربما كانوا حمقى - لكن أي قدرة على الشعور بهذه الحماقة يمكن أن تكون لدى المشاهدين الذين سيكونون شهودا على إنجازات أولئك الشهود الزور؟ - والوثائق الزائفة، الممتازة دوما، لا يمكن أن تنقص أولئك الذين يتحكمون في الإستعراض المتكامل، ولا أصدقاءهم. لم يعد من الممكن، إذن، تصديق أي شيء، عن أي شخص، إلا ما عرفه المرء بنفسه، ومباشرة. لكن، في الحقيقة، لم يعد المرء غالبا بحاجة إلى توجيه إتهام زائف إلى شخص ما. فمن لحظة أن يوقف المرء الآلية التي تحكم التحقق الإجتماعي الوحيد الذي يحظى بالإقرار الكامل والشامل، فإنه يقول ما شاء. وتثبت حركة البرهنة الإستعراضية نفسها ببساطة بالسير في دائرة؛ بالعودة، وبتكرار نفسها، وبمواصلة التوكيد فوق الأرضية الوحيدة التي يستقر عليها من الآن فصاعدا ما يمكن توكيده علنا، وجعل الناس تصدقه، فعليه وحده سيكون الجميع شهودا. كذلك يمكن للسلطة الإستعراضية أن تنفي أي شيء كان، مرة، وثلاثا، وأن تقول أنها لن تعاود الحديث عنه، وتتحدث عن شيء آخر؛ وهي على يقين من أنها لم تعد تخاطر باحتمال وقوع هجوم مضاد على مجالها الخاص، ولا على أي مجال آخر. فلم يعد ثمة ميدان عام agora، ولا جماعة عامة؛ ولا حتى جماعات قاصرة على هيئات وسيطة أو على

مؤسسات مستقلة ذاتياً، على صالونات أو مقاه، على عمال شركة واحدة؛ ليس ثمة أي مكان يستطيع فيه السجال حول الحقائق التي تخص الموجودين أن يتخطى بشكل دائم الحضور الساحق للخطاب الإعلامي، ولمختلف القوى المنظّمة لكي تحل محله. لم يعد ثمة وجود، الآن، لحكم، مضمون له الإستقلال النسبي، لأولئك الذين كانوا يشكلون عالم الحكماء: لأولئك الذين، على سبيل المثال، أن طوا كبرياءهم، ذات حين، بقدرتهم على التحقق من الأمور، ممنوحين الإقتراب مما كان يسمى التاريخ النزيه للوقائع، والإيمان على الأقل بأنه جدير بأن يُعرف. كذلك لم تعد ثمة حقيقة ببليوجرافية لا تقبل الجدل، والملخصات المبرمجة معلوماتيا لبطاقات دور الكتب القومية سيمكنها أن تخفي الآثار بشكل أفضل بكثير. وسوف يضل المرء وهو يفكر فيما كان عليه، منذ عهد قريب، القضاة، والأطباء، والمؤرخون، وفي الإلتزامات الضرورية التي كانوا يقرون، عادة، بأنها تدخل في حدود صلاحياتهم: **إن البشر يشبهون زمنهم أكثر مما يشبهون آباءهم.**

إن ما يستطيع الإستعراض أن يتوقف عن الحديث عنه لمدة ثلاثة أيام يصبح كأنه غير موجود. لأنه عندئذ يتحدث عن شيء آخر، وهذا الشيء إذن هو، باختصار، ما يوجد، منذ تلك اللحظة. ومن الواضح أن النتائج العملية لذلك هائلة.

جرى الإعتقاد بأن التاريخ قد ظهر في اليونان، مع ظهور الديمقراطية. وبالإمكان البرهنة على أنه إختفى من العالم مع إختفائها.

على أننا يجب أن نضيف، إلى هذه القائمة لإنتصارات السلطة، محصلة سلبية بالنسبة لها: فالدولة، التي يكمن في إدارتها بشكل دائم عجز ضخم في المعارف التاريخية، لا يعود بالإمكان توجيهها إستراتيجيا.

VIII

يبدو من المسلم به في كل مكان أن المجتمع الذي يعلن أنه ديمقراطي، حين يبلغ حالة الإستعراض المتكامل، هو **تحقق كمال هش**. بحيث أنه لم يعد من الواجب أن يتعرض للهجمات، لأنه هش؛ ومن جهة أخرى فإنه لم يعد قابلا للهجوم، لأنه بلغ من الإكتمال ما لم يبلغه أي مجتمع من قبل. إنه مجتمع هش لأنه يعاني صعوبة ضخمة في التحكم في توسعه التكنولوجي الخطير. لكنه مجتمع مكتمل لكي يُحكم؛ والدليل على ذلك هو أن كل من يطمحون إلى الحكم يريدون أن يحكموه، بنفس الأساليب، وأن يحافظوا عليه كما هو تماما على وجه التقريب. إنها المرة الأولى، في أوربا المعاصرة، التي لم يعد فيها أي حزب أو جزء من حزب يحاول مجرد التظاهر بأنه يسعى إلى تغيير أي شيء ذي أهمية. لم يعد بإمكان أي شخص إنتقاد السلعة: لا بوصفها نسقا عاما،

ولا حتى بوصفها تلك البضاعة الرخيصة المحددة التى يكون قد تراءى لرؤساء الشركات طرحها فى السوق الآن.

فى كل مكان يسود فيه الإستعراض، تكون القوى الوحيدة المنظمة هى تلك التى تريد الإستعراض. لم يعد إذن بإستطاعة أحد أن يكون عدوا لما هو موجود، ولا أن ينتهك **قانون الصمت»** l'omertà الذى يحيط بكل شىء. تم وضع نهاية لذلك المفهوم المقلق، الذى ظل سائدا خلال أكثر من مائتى عام، والذى وفقا له يمكن لمجتمع أن يكون قابلا للنقد وللتغيير، للإصلاح أو التثوير. ولم يتم التوصل إلى ذلك عن طريق ظهور حجج جديدة، بل ببساطة لأن الحجج قد أصبحت عديمة الجدوى. وبالوصول إلى هذه النتيجة، لن يقيس المرء الرقابة العامة، بل القوة المرعبة لشبكات الإستبداد.

لم تكن ثمة أبدا رقابة بهذا الكمال. ولم يكن أبدا رأى أولئك الذين ما زالوا يعتقدون، فى بعض البلدان، أنهم ما زالوا مواطنين أحرارا، أشد بعدا عن الترخيص له بأن يعرف، فى كل مرة يتعلق فيها الأمر بإختيار سوف يؤثر على حياتهم الواقعية. ولم يكن مسموحا أبدا بالكذب عليهم على هذا النحو بمثل هذا الغياب الكامل للعواقب. فالمشاهد يُفترض فيه فقط أن يكون جاهلا بكل شىء، وغير مستحق لشىء. فمن ينظر دائما، ليعرف ما يتلو، لن يتصرف أبدا: وهكذا يجب أن يكون المشاهد. كثيرا ما يسمع المرء إستثناء الولايات المتحدة، حيث إنتهى الأمر بنيكسون ذات يوم إلى المعاناة من سلسلة من التلطيخات البالغة الحماقة فى كليتها؛ لكن هذا الإستثناء المحلى تماما، والذى كانت له بعض الأسباب التاريخية القديمة، لم يعد صحيحا بشكل واضح، حيث أن ريجان إستطاع مؤخرا فعل نفس الشىء دون عقاب. وكل ما لا يعاقَبُ عليه أبدا هو أمر مسموح به حقا. الحديث عن فضيحة إذن هو أمر عفا عليه الزمن. وتُنسب إلى رجل دولة إيطالى من الدرجة الأولى، كان فى آن واحد يشغل مكانا فى الوزارة وفى الحكومة الموازية المسماة ب ـ ٢، **بوتيرى دوى»** P.2, potere Due، تُنسب إليه كلمة تلخص بأعمق ما يكون الفترة التى دخلها العالم بأسره، بعد إيطاليا والولايات المتحدة بقليل: «كان ثمة فضائح، لكنها لم تعد توجد».

فى **الثامن عشر من برومير لويس بونابرت**، وصف ماركس الدور الكاسح للدولة فى فرنسا الإمبراطورية الثانية، التى كانت تتمتع عندئذ بنصف مليون موظف: «هكذا أصبح كل شىء موضوعا للنشاط الحكومى، من الجسر، ودار المدرسة، والملكية الشاعية لإحدى القرى إلى السكك الحديدية، والملكيات القومية والجامعات الإقليمية». وكانت المسألة الشهيرة الخاصة بتمويل الأحزاب السياسية مثارة فعلا فى ذلك الحين، إذ يلاحظ ماركس أن «الأحزاب التى كانت، بالدور، تناضل من أجل الغلبة، رأت فى الإستيلاء على هذا البنيان الضخم الغنيمة الرئيسية للمنتصر». إلا أن هذا يبدو رعويا بعض الشىء، وعفا عليه الزمن، كما يقال، حيث أن مضاربات الدولة اليوم تضم كذلك المدن الجديدة والطرق السريعة، حركة المرور فى الأنفاق وإنتاج الطاقة الكهرو ـ نووية، الأبحاث البترولية

والحاسبات الإلكترونية، إدارة البنوك والمراكز الإجتماعية - الثقافية، تحسينات "المشهد السمعي-البصري" وصادرات السلاح السرية، الترويج العقاري والصناعة الدوائية، الزراعة ، الغذائية وإدارة المستشفيات، الإعتمادات العسكرية والمخصصات السرية للإدارة، التي تتضخم طول الوقت، والتي يجب أن تدير خدمات حماية الدولة العديدة. على أن ماركس ظل راهنا لزمن طويل جدا لسوء الحظ. فهو يرسم في نفس الكتاب صورة تلك الحكومة «التي لا تتخذ بالليل القرارات التي تود تنفيذها بالنهار، لكنها تقرر بالنهار وتنفذ بالليل».

IX

هذه الديمقراطية البالغة الكمال تصنع هي ذاتها عدوها الذي لا يُتصور، ألا وهو الإرهاب. إنها تود ، فعليا ، **الحكم عليها وفق أعدائها وليس وفق نتائجها**. وتاريخ الإرهاب تكتبه الدولة؛ لذا فإنه تربوي. فمجموع المشاهدين لا يمكنهم بالتأكيد معرفة كل شيء عن الإرهاب، لكن بإمكانها دائما معرفة ما يكفي لإقناعها بأن كل ما عداه لابد، بالنسبة لذلك الإرهاب، أن يبدو لها بالأحرى مقبولا ، أكثر عقلانية وأكثر ديمقراطية على أية حال.

أفضى تحديث القمع، في التجربة الإيطالية الرائدة أولا، إلى أن أوصل إلى حد الكمال، تحت إسم "التائبين"، **موجهي الإتهام المحترفين** الذين أقسموا اليمين؛ أولئك الذين أطلق عليهم عند بداية ظهورهم في القرن السابع عشر، زمن إضطرابات الفروند la Fronde، إسم "الشهود الموثقين". هذا التقدم الإستعراضي للعدالة ملأ السجون الإيطالية بعدة آلاف من المدانين الذين يكفّرون عن حرب أهلية لم تقع، عن نوع من التمرد المسلح الواسع النطاق الذي تصادف أن ساعته لم تأت أبدا، عن نزعة إنقلابية منسوجة من مادة الأحلام.

يمكن ملاحظة أن تفسير أسرار الإرهاب يبدو أنه قد أدخل تعادلا بين رأيين متناقضين؛ كأن الأمر يتعلق بمدرستين فلسفيتين تُعلّمان بنائين ميتافيزيقيين متعارضين تماما. فالبعض قد لا يرون في الإرهاب سوى بضع تلاعبات واضحة من جانب أجهزة المخابرات؛ بينما يعتبر آخرون أنه لا يجب، على العكس، لوم الإرهابيين إلا على إفتقارهم التام للحس التاريخي. لكن إستخدام قليل من المنطق التاريخي يمكن أن يتيح لنا أن نستنتج بسرعة أنه ليس ثمة تناقض في إعتبار أن أشخاصا يفتقرون إلى كل حس تاريخي يمكن التلاعب بهم على حد سواء؛ بل وأسهل كثيرا من التلاعب بغيرهم. كذلك فإن من الأسهل أن تحمل على "التوبة" شخصا يمكن أن نبين له أننا كنا نعرف كل شيء، مقدما، عما إعتقد أنه يفعله بحرية. وأحد الآثار الحتمية للأشكال التنظيمية السرية من الطراز العسكري، هو أنه يكفي إختراقها ببضعة أفراد عند نقاط معينة من الشبكة لجعل أشياء كثيرة تعمل، وتسقط. ويجب على النقد، في هذه الأمور المتعلقة بتقييم الصراعات المسلحة، أن يحلل أحيانا واحدة من عملياتها بالتحديد، دون أن يضلله التشابه العام الذي تكون كل العمليات قد إكتسبته. كذلك يجب أن نتوقع،

كما هو محتمل منطقيا ، أن نفكر أجهزة حماية الدولة في إستخدام كل المزايا التي تجدها على أرض الإستعراض، الذي تم تنظيمه منذ زمن بعيد لهذا الغرض بالضبط؛ وعلى العكس، فإن صعوبة تنبهها لذلك هي التي تكون مدهشة. ولا تبدو عادلة.

تتلخص المصلحة الراهنة للعدالة القمعية في هذا المجال، في التعميم بأسرع ما يمكن بالتأكيد. فالمهم في هذا النوع من السلعة هو التغليف، أو بطاقة التصنيف: بطاقات التشفير. كل عدو للديمقراطية الإستعراضية يساوي الآخر، مثلما تتساوي كل الديمقراطيات الإستعراضية. من هنا، يجب إلغاء حق اللجوء للإرهابيين، وإذا لم يتم توبيخهم على كونهم قد صاروا إرهابيين، فسوف يصبحون إرهابيين بالتأكيد. وهكذا يفرض تسليم المتهمين نفسه. وفي نوفمبر ١٩٧٨، بصدد قضية جابور ڤنتر Gabor Winter، عامل الطباعة الشاب المتهم أساسا، من قبل حكومة جمهورية ألمانيا الإتحادية، بتحرير بطبع منشورات ثورية، سرعان ما أوضحت الآنسة نيكول پرادان، ممثلة وزارة الشئون العامة أمام غرفة إتهام محكمة النقض بباريس، أن "الدوافع السياسية"، التي هي السبب الوحيد لرفض تسليم المتهمين المنصوص عليه في الإتفاقية الفرنسية-الألمانية بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٩٥١، لا يمكن الرجوع إليها: «جابور ڤنتر ليس جانحا سياسيا، بل إجتماعيا. فهو يرفض الضوابط الإجتماعية. والجانح السياسي الحقيقي لا يكون لديه حس بالرفض تجاه المجتمع. إنه يهاجم البنيات السياسية وليس البنيات الإجتماعية، كما يفعل جابور ڤنتر». إن مقولة المخالفة السياسية المحترمة لم يعترف بها في أوربا إلا بعد أن هاجمت البورجوازية بنجاح البنيات الإجتماعية القائمة قبلها. ولم يكن يمكن فصل نوعية المخالفة السياسية عن مختلف مقاصد النقد الإجتماعي. كان هذا صحيحا بالنسبة لبلانكي* Blanqui، وڤارلان Varlin، ودوروتي Durruti. يتم التظاهر الآن، إذن، بالرغبة في الحفاظ، كترف قليل القيمة، على المخالفة السياسية الخالصة، التي من المؤكد أن فرصة إرتكابها لن تتاح أبدا لأي شخص. فلم يعد أي شخص مهتما بالأمر، باستثناء محترفي السياسة أنفسهم، الذين لا يتم أبدا على وجه التقريب تعقُّب مخالفاتهم، بل ولم تعد هذه المخالفات توصف بأنها سياسية. كل المخالفات والجرائم إجتماعية فعليا. لكن من بين كل الجرائم الإجتماعية، لا يجب النظر إلى أي منها على أنها أسوأ من الإدعاء الذي لا محل له بالرغبة في تغيير بضعة أشياء في هذا المجتمع، الذي يعتقد أنه قد أظهر حتى الآن أكثر مما يجب من الصبر والطيبة؛ لكنه لم يعد يرغب في أن يُلام.

X

تم تحقيق تحلل المنطق، طبقا للمصالح الأساسية لنظام السيطرة الجديد، بوسائل مختلفة عملت دائما عن طريق الدعم المتبادل فيما بينها. ويتصل العديد من هذه الوسائل بالأدوات التقنية التي إختبرها وعممها الإستعراض؛ لكن بعضها أشد إرتباطا بسيكولوجيا الخضوع الجماعية.

على مستوى التقنيات، حين تصبح الصورة التي بناها واختارها **شخص آخر** هي الصلة الأساسية للفرد بالعالم الذي كان من قبل ينظر إليه بنفسه، من كل مكان يمكنه الذهاب إليه، فإن المرء لا يجهل بالطبع أن الصورة ستحتمل كل شيء؛ ففي داخل نفس الصورة يمكن المقابلة دون تناقض بين أي شيء كان. فيض الصور يحمل كل شيء، وبالمثل فإن شخصا آخر هو الذي يتحكم على هواه في ذلك الموجز المبسط للعالم المحسوس، هو الذي يختار إلى أين سيمضي هذا الدفق، وكذلك إيقاع ما يجب أن يتبدى، وكأنه مفاجأة تعسفية دائمة، دون رغبة في ترك أي وقت للتأمل، وباستقلال تام عما يمكن للمشاهد أن يفهمه أو يفكر فيه. في هذه الخبرة العينية للخضوع الدائم، يكمن جذر سيكولوجيا القبول العام بما هو قائم؛ والذي يبلغ حد الإعتراف له **بحكم الواقع** ipso facto بقيمة كافية. وبالطبع، يُخرس الخطاب الإستعراضي، باستثناء ما هو سري بالتعريف، كل ما لا يناسبه. وهو يعزل دائما، عما يعرضه، الوسط المحيط، والماضي، والمقاصد، والنتائج. إنه إذن لا منطقي تماما. ولأن أحدا لم يعد يستطيع مناقضته، فإن للإستعراض الحق في مناقضة نفسه بنفسه، في تعديل ماضيه. والموقف المتعجرف لخدمه حين يشرعون في نشر طبعة جديدة، ربما كانت أكثر كذبا بكثير، لأحداث معينة، هو التعديل الفظ للجهل والتفسيرات السيئة المنسوبة إلى جمهورهم، بينما كانوا هم أنفسهم الذين جهدوا عشية ذلك في نشر هذا الخطأ، بثقتهم المعتادة.

هكذا يبدو، دون وجه حق، أن تعليم الإستعراض وجهل مشاهديه عنصران متناحران بينما ينبعان أحدهما من الآخر. كذلك فإن اللغة الثنائية للكومبيوتر تمثل حافزا لا يقاوم على التسليم في كل لحظة، ودون تحفظات، بما تمت برمجته كما أراد شخص آخر، وما يؤخذ على أنه المنبع اللازمني لمنطق أعلى، نزيه وكلي. يا له من مكسب كبير في السرعة، وفي المفردات، للحكم على كل شيء! ما هو سياسي؟ ما هو إجتماعي؟ يجب الإختيار. ما هو هذا لا يمكن أن يكون ذاك. واختياري يفرض نفسه. تتم مناداتنا بالصفير كالكلاب، ومعروف من أجل من تكون تلك البنيات. ليس من المدهش، إذن، أن يشرع تلاميذ المدارس، منذ الطفولة، في البدء، بسهولة، وبحماس، بالمعرفة المطلقة للمعلوماتية: في الوقت الذي يظلون فيه على جهل أكبر بالقراءة، التي تتطلب ملكة حكم حقيقية في كل سطر؛ والتي يمكنها بهذه الطريقة وحدها أن توصل إلى الخبرة الإنسانية قبل - الإستعراضية الواسعة. فالحوار قد مات تقريبا، وسرعان ما سيلحق به الكثيرون ممن كانوا يحسنون الكلام.

على مستوى وسائل تفكير الجموع المعاصرة، يرتبط السبب الأول للإنحطاط بوضوح بحقيقة أن كل خطاب يعرضه الإستعراض لا يترك أي مكان للجواب؛ بينما لم يتشكل المنطق إجتماعيا إلا في الحوار. لكن كذلك، حين ينتشر إحترام من يتحدث في الإستعراض، من يعد مهما، وغنيا، وذا مكانة، من **هو السلطة ذاتها**، ينتشر كذلك بين المشاهدين الميل إلى الرغبة في أن يكونوا لا منطقيين مثل الإستعراض، لإبراز رد فعل فردي على هذه السلطة. وأخيرا، فإن المنطق ليس سهلا، ولم يشأ أي شخص أن يعلمهم إياه. وما من شخص تحت تأثير المخدرات يدرس المنطق؛ فلم يعد بحاجة إليه، ولم تعد لديه إمكانية لذلك. وكسل المشاهد هذا هو أيضا كسل أي كادر ثقافي مهما كان، كسل

المتخصص الذي جرى تكوينه على عجل، والذي سيحاول في كل الحالات إخفاء الحدود الضيقة لمعارفه بالتكرار الدوجمائي لحجة من حجج السلطة اللامنطقية.

XI

يسود الإعتقاد على نطاق واسع بأن أولئك الذين أظهروا أكبر قدر من العجز بشأن المنطق هم على وجه الدقة من أعلنوا أنهم ثوريون. هذا اللوم غير المبرر يأتي من حقبة سابقة، حين كان الجميع تقريباً يفكرون بحد أدنى من المنطق، مع إستثناء صارخ يمثله الحمقى والمناضلون، ولدى هؤلاء الأخيرين عادة ما كان يختلط بذلك الإيمان الفاسد، المرغوب لأن من المعتقد أنه مفيد، لكن لم يعد بالإمكان اليوم تجاهل حقيقة أن الإستخدام المكثَّف للإستعراض قد حول غالبية المعاصرين، كما كان متوقع، إلى إيديولوجيين، حتى ولو كان ذلك عن طريق الهزات والشذرات فقط. إن الإفتقار إلى المنطق، أي فقدان إمكانية التعرف الفوري على ما هو مهم وما هو ثانوي أو خارج الموضوع؛ على ما يتنافر مع الموضوع أو يمكن على العكس أن يكون مكمِّلا له؛ على كل ما ينطوي على نتيجة معينة وعلى ما تنفيه تلك النتيجة، في نفس الآن: هذا المرض تم حقنه عمدا في السكان بجرعة ضخمة بواسطة **خبراء التخدير - التنشيط** التابعين للإستعراض. ولم يكن من يردُّون أشد لا عقلانية من الخاضعين بأية حال. كل ما هنالك أن هذه اللاعقلانية العامة تبدو، لديهم، أشد كثافة، لأنهم بإشهارهم مشروعهم، قد حاولوا القيام بمهمة عملية؛ حتى ولو لم تكن سوى قراءة نصوص معينة ليبينوا أنها تتضمن معنى. لقد إلتزموا بإلتزامات مختلفة لإمتلاك المنطق، وحتى الإستراتيجية، التي هي بالضبط المجال الكامل لنشر المنطق الجدلي للصراعات؛ بينما هم كالآخرين تماماً، محرومون بشدة من القدرة البسيطة على الإسترشاد بالأدوات العتيقة غير المكتملة للمنطق الشكلي. ولا يشك المرء في ذلك بصددهم؛ فالمرء لا يكاد يفكر في سواهم.

إن الفرد، الذي وسمه بعمق هذا التفكير الإستعراضي الفقير، بدرجة **أكبر من أي عنصر آخر في تكوينه**، يجد نفسه على هذا النحو في خدمة النظام القائم من بداية اللعبة، حتى لو كان قصده الذاتي متناقضاً تماما مع هذه النتيجة. فسوف ينتهج لغة الإستعراض من الناحية الجوهرية، لأنها اللغة الوحيدة المألوفة له: تلك التي تعلَّم داخلها الكلام. سيود دون شك إظهار عدائه لبلاغتها؛ لكنه سيستخدم النحو الخاص بها. وهذه إحدى أهم النقاط في النجاح الذي أحرزته السيطرة الإستعراضية.

وليس الإختفاء البالغ السرعة للمفردات الموجودة من قبل سوى إحدى لحظات هذه العملية. وهي تفيدها.

يقترن إنمحاء الشخصية حتما بشروط الوجود الخاضع عينيا للمعايير الإستعراضية، وبذلك يكون دوما أشد إنفصالا عن إمكانات معرفة خبرات تكون أصيلة، وبالتالي عن إكتشاف تفضيلاته الفردية. إذ يتوجب على الفرد، بشكل متناقض، أن يتنكر لذاته على نحو دائم، إذا أراد أن ينال بعض الإعتبار في مثل ذلك المجتمع. فهذا الوجود يطرح فعليا ولاء دائم التقلب، تتابعا من الإنتسابات الخادعة ذات النتائج البائسة. الأمر مرتبط بالركض بسرعة وراء تضخم علامات للحياة طرأ على قيمتها تخفيض كبير. وتعين المخدرات على التماشي مع هذا التنظيم للأمور؛ كما يعين الجنون على الفرار منه.

في كل أنواع الشئون العامة لهذا المجتمع، حيث يكون توزيع الثروات مركّزا على نحو يجعل منها سيدة، بطريقة معلنة وبطريقة سرية في آن واحد، تتآت تعريف ما يمكن أن يكون حسنا، يحدث أن تُنسب لأشخاص بعينهم خصائص، أو معارف، أو حتى رذائل في بعض الأحيان، خيالية تماما، ليتم عن طريق تلك الأسباب تفسير التطور المَرْضي لمشاريع معينة؛ وذلك بهدف وحيد هو إخفاء، أو التمويه بأكثر ما يمكن على، وظيفة **التواطؤات التي تُقرِّر في كل شيء**.

في هذه الأثناء، فإن المجتمع الراهن، رغم عزمه المتكرر، ووسائله الثقيلة، لتسليط الضوء على المدى الكامل لعديد من الشخصيات التي تُعدُّ بارزة، يُبدي في الأغلب نقيض ذلك، ليس فقط عن طريق كل ما حل اليوم محل الفنون، ولا عن طريق خطاباته بهذا الصدد: إذ يصطدم العجز الكامل بعجز آخر مماثل؛ العجزان يصيبهما الخُبال. والأمر أمر أيهما سينهزم أمام الآخر. يحدث أن محاميا، ينسى أنه لا يمثل في محاكمة إلا ليدافع عن قضية بعينها، يترك نفسه ليتأثر بإخلاص بحجة المحامي الخصم؛ مع أن تلك الحجة قد تكون مماثلة في تهافتها لحجته هو. كذلك يحدث أن متهما، بريئا، يعترف في التو بجريمة لم يرتكبها؛ لسبب وحيد هو أنه قد تأثر **بمنطق** فرضية واش شي، أن يعتقد أنه مذنب (قضية الدكتور أرشمبو Archambeau، في بواتييه، عام ١٩٨٤).

إن ماكلوهان McLuhan نفسه، الداعم الأول عن الإستعراض، الذي بدا أنه أكثر الحمقى إقتناعا في قرنه، قد غير رأيه حين إكتشف في النهاية، عام ١٩٧٦، أن "ضغط **وسائل الإعلام الجماهيرية** يدفع نحو اللاعقلانية"، وأنه يصبح من الملحّ الإعتدال في إستخدامها. لقد قضى مفكر تورنتو قبل ذلك عدة عقود في الإندهاش إزاء الحريات المتعددة التي كانت تحملها تلك "القرية الكوكبية" والمتاحة فوريا للجميع دون كلل. لكن القرى، على نقيض المدن، كانت محكومة على الدوام بالإمتثال، والعزلة، والمراقبة الدنيئة، والسأم، والشائعات المتكررة دوما حول نفس العائلات بعينها. وعلى هذا النحو يتمثل من الآن فصاعدا إبتذال الكوكب الإستعراضي، حيث لم يعد ممكنا تمييز سلالة جريمالدي - موناكو Grimaldi-Monaco، أو بوربون - فرانكو Bourbons-Franco، عن تلك السلالة التي إحتلت مكان سلالة ستيوارت Stuart. وفي هذه الأثناء، يحاول

خَواربون جاحدون اليوم أن ينسونا ماكلوهان، وأن يعيدوا الشباب إلى مكتشفاته الأولى، واجدين بدورهم مهنة لأنفسهم في المديح الإعلامي لكل تلك الحريات الجديدة التي يمكن أن تكون معروضة "للاختبار" إحتياط في الأمور العابرة. وربما تنكروا لأنفسهم أسرع مما فعل ملهمُهم.

XIII

لا يخفي الإستعراض سوى بعض المخاطر المحدقة بالنظام الرائع الذي أقامه. فتلوُّث المحيطات وتدمير الغابات الإستوائية يهدِّدان تجدد الأكسجين على كوكب الأرض؛ وطبقة الأوزون لا تستطيع مقاومة التقدم الصناعي؛ والإشعاعات النووية المصدر تتراكم بصورة لا تقبل الإنعكاس. ولا يستنتج الإستعراض سوى أن هذا لا أهمية له. إنه لا يود النقاش إلا حول التوقيتات والجرعات. وفي هذا الصدد فقط، يتوصل إلى تهدئة روعنا؛ الأمر الذي كان ذهنٌ قبل - إستعراضي سيعتبره مستحيلاً.

تتمتع أساليب الديمقراطية الإستعراضية بليونة كبيرة، على عكس الشراسة الواضحة للإملاء الشمولي. إذ يمكن الإبقاء على الاسم حين يكون الشيء قد تغير سراً (اسم بيرة، أو لحم بقر، أو فلسفة). كما يمكن أيضاً تغيير الاسم حين يكون الشيء مستمراً سراً: ففي إنجلترا، على سبيل المثال، إضطر مصنع معالجة النفايات النووية في ويندسكيل Windscale إلى تسمية موقعه باسم سيلافيلد Sellafield لتضليل الشكوك بشكل أفضل، في أعقاب حريق كارثي عام ١٩٥٧. لكن إعادة معالجة اسم الموقع هذه لم تمنع تزايد الوفيات بسبب السرطان والليوكيميا في المناطق المحيطة به. كانت الحكومة الإنجليزية وقتها، كما عُرف بشكل ديمقراطي بعد ثلاثين عاماً، قد قررت آنذاك فرض السرية على تقرير عن الكارثة إعتبرت، ولذلك سبب وجيه، أنه سيزعزع الثقة التي أولاها الجمهور للطاقة النووية.

تتطلب الممارسات النووية، العسكرية أو المدنية، جرعة من السرية أقوى منها في أي مكان آخر؛ حيث توجَّب فرض الكثير منها بالفعل كما هو معروف. ومن أجل تسهيل حياة، أي أكاذيب، العلماء الذين إنتخبهم سادة هذا النظام، تم إكتشاف جدوى تغيير المقاييس أيضاً، جدوى تنويعها طبقاً لعدد أكبر من وجهات النظر، وتنميقها بهدف التمكن من الشعوذة، حسب الحالات، بعديد من أرقامها التي يصعب تحويلها إلى بعضها. وهكذا، يمكن لتقدير درجة الإشعاع، التصرف في وحدات القياس التالية: الكوري، والبكريل، والرونتجن، والراد، الملقب باسم السنتيجراي، والريم، دون إغفال المليراد البسيط والسيفير، الذي ليس سوى وحدة من ١٠٠ ريم. وهذا يعيد للأذهان التقسيمات الفرعية للعملة الإنجليزية، التي لم يكن الأجانب يستوعبون تعقيدها بسرعة، حين كانت سيلافيلد لا تزال تسمى ويندسكيل.

يمكن إدراك الصرامة والدقة التي يمكن أن يكون قد بلغها، في القرن التسع عشر، تاريخ الحروب، وبالتالي، منظرو الإستراتيجية، إذا كان المرء مضطراً عادة، بهدف عدم تقديم معلومات بلغة السرية للمعلقين المحايدين أو المؤرخين المعادين، إلى إعطاء كشف حساب عن حملة بالعبارات التالية: «تشكل المرحلة التمهيدية سلسلة من الإشتباكات التي تصطدم فيها، من جانبنا، طليعة صلبة، مكونة من أربعة جنرالات والوحدات الموضوعة تحت إمرتهم، بفيلق معاد تعداده ١٢ ألف سونكي. وفي المرحلة التالية تتطور معركة مواجهة منسقة، تطول المقارعة فيها، ويخوضها كل جيشنا، بمدافعه البالغ عددها ٢٩٠ وخيالته القوية المكونة من ١٨ ألف سيف؛ بينما دفع الخصم في مواجهته بقوات تضم ما لا يقل عن ٣٦٠٠٠ ملازم مشاة، وأربعين نقيب خيالة وأربع وعشرين فارس مدرع. وبعد تبادل الإخفاقات والنجاح بين جانب وآخر، يمكن في النهاية إعتبار المعركة غير حاسمة. أما خسائرنا، الأقل بالأحرى عن الرقم المتوسط الذي يسجل عادة في المعارك ذات المدة والكثافة المماثلتين، فهي تفوق بدرجة ملحوظة خسائر الإغريق في ماراثون، لكنها تظل أدنى من خسائر البروسيين في يينا!!" وفق هذا المثال، ليس من المستحيل على إخصائي تكوين فكرة مبهمة عن القوات المتحاربة. لكن يُضمن لتطور العمليات أن يظل فوق مستوى أي حكم.

في يونيو عام ١٩٨٧، عرض بيير باشيه Pierre Bacher، المدير المساعد للتجهيزات في هيئة كهرباء فرنسا .E.D.F، آخر مذهب للأمْن في المحطات النووية. فعند تزويدها بصمامات ومرشحات، يصبح أسهل بكثير تجنب الكوارث الكبرى، التصدع أو إنفجار قلب المحطة، التي يمكن أن تضر "إقليما" بأسره. وهذا ما يحدث إذا أراد المرء حصر الأمور أكثر مما يجب. ومن الأفضل، كلما أبدت الآلة دلائل على زيادة سرعة المحرك، تخفيف الضغط برفق، ليصب في منطقة جوار ضيقة مداها بضعة كيلومترات، منطقة جوار ستمتد في كل مرة بصورة بالغة الإختلاف والإعتباطية بفعل تقلُّب الرياح. وهو يكشف النقاب عن أن التجارب المتكتمة التي أجريت في كادارش Cadarache، بإقليم الدروم Drôme، خلال العامين السابقين، «قد أظهرت بشكل عيني أن المخلفات - الغازية أساسا - لا تتجاوز بضع أجزاء في الألف، وفي أسوأ الحالات واحدا في المائة من الإشعاع السائد في قلب المحطة». هذا الأسوأ يظلُّ إذن معتدلا جدا: واحدا في المائة. من قبل، كان من المؤكد عدم وجود أي مخاطرة، إلا في حالة وقوع حادث، مستحيل منطقيا. وقد غيرت سنوات الخبرة الأولى هذا الإستدلال كما يلي: لما كان الحادث ممكنا على الدوام، فإن ما يجب تجنبه، هو أن يبلغ الحادث عتبة الكارثة، وهذا ميسور. إذ يكفي التلويث بالإشعاع مرة إثر مرة وبإعتدال. فمنذا الذي لا يشعر بأنه أكثر صحة بما لا يقاس بالإقتصار خلال بضع سنوات على تجرع ١٤٠ سنتيلتر من الفودكا يوميا، بدل الإنغماس في السكر على الفور مثل البولنديين؟

من المؤسف بالتأكيد أن يواجه المجتمع الإنساني مشكلات ملتهبة إلى هذا الحد في اللحظة التي أصبح فيها من المستحيل ماديا إسماع أدنى إعتراض على الخطاب السلعي؛ في اللحظة التي تجد فيها أن السيطرة، بالضبط لأن الإستعراض يحميها من أي جواب على قراراتها وتبريراتها المتشظية

أو الهذيانية، **تعتقد أنها لم تعد بحاجة إلى التفكير**؛ وهي في الحقيقة لم تعد قادرة على التفكير. مهما بلغ من صلابة الشخص الديمقراطي، أما كان يُفضّل لو إختير له سادة أكثر ذكاء؟

في مؤتمر الخبراء الدولي الذي عقد في جنيف في ديسمبر ١٩٨٦، كانت المسألة ببساطة هي فرض حظر عالمي على إنتاج الكلورو - فلورو - كاربون، الغاز الذي يتسبب منذ زمن قصير، لكن بزيغ بالغ السرعة، في إختفاء الطبقة الرقيقة من الأوزون التي كانت - كما سنتذكر - تحمي هذا الكوكب ضد التأثيرات الوبيلة للأشعة الكونية. وقد قاد دانييل فيريله Daniel Verilhe، ممثل شركة المنتجات الكيميائية التابعة لمؤسسة إلف - أكتين Elf- Aquitaine، والذي يشارك بهذه الصفة في وفد فرنسي معارض بحزم لهذا الحظر، قام بإبداء ملاحظة مليئة بالمعنى: «لابد على الأقل من ثلاث سنوات لاستكمال إعداد بدائل محتملة وربما تضاعفت التكاليف أربعة أضعاف.» والمعروف أن هذه الطبقة المراوغة من الأوزون على كل هذا الإرتفاع، لا تخص أحداً، وليس لها أية قيمة سلعية. هكذا أمكن للإستراتيجي **الصناعي** أن يبين لعارضيه المدى الذي بلغه إستهتارهم الإقتصادي غير المفهوم، بهذا التذكير بالواقع: «إنه لأمر بالغ الخطورة أن نقيم إستراتيجية صناعية على أساس إعتبارات بيئية.»

إن أولئك الذين شرعوا، منذ زمن طويل مضى، في إنتقاد الإقتصاد السياسي معرِّفين إياه بأنه «النفي المتحقق للإنسان»، لم يكونوا مخطئين. فسوف يُعرَف بهذه الخاصية.

XIV

يسمع المرء القول بأن العلم خاضع الآن لمتطلبات الربح الإقتصادي؛ لقد كان هذا صحيحا على الدوام. أما الجديد، فهو أن يكون الإقتصاد قد شن حربا مكشوفة على البشر؛ ليس فقط على إمكانات حياتهم، بل كذلك على إمكانات بقائهم. إختار الفكر العلمي إذن، ضد جزء كبير من ماضيه الخاص المناهض - للعبودية، أن يخدم السيطرة الإستعراضية. قبل الوصول إلى هذا الحد، كان العلم يتمتع باستقلال ذاتي نسبي. كان يعرف إذن كيف يفكر في نصيبه من الواقع؛ وعلى هذا النحو إستطاع أن يسهم إسهاما ضخما في توسيع وسائل الإقتصاد. وحين أصبح الإقتصاد الكلي - القدرة مجنونا، **وليست الأزمنة الإستعراضية سوى ذلك**، فقد قمع آخر آثار الإستقلال الذاتي العلمي، على المستوى المنهجي، وكذلك بشكل لا ينفصم، على مستوى الشروط العملية لنشاط "الباحثين". لم يعد يُطلبُ من العلم أن يفهم العالم، أو أن يحسّن أي شيء فيه. بل يُطلبُ منه التبرير الفوري لكل ما يجري عمله. إن السيطرة الإستعراضية، الحمقاء في هذا المجال مثلما هي في كل المجالات الأخرى، التي تستغله بأكبر قدر من عدم التبصُّر المدمِّر، قد أسقطت الشجرة العملاقة للمعرفة العلمية بهدف وحيد هو أن تسوّي من خشبها مطرقة. ومن أجل إطاعة هذا **المطلب** الإجتماعي النهائي لتبرير من

الواضح أنه مستحيل، فإن من الأجدر عدم معرفة كيف نفكر، بل، على النقيض، التدرب جيدا على سلع الخطاب الإستعراضي. وفي هذه المهنة في الحقيقة، برشاقة وبكثير من الإستعداد، وجد العلم المتعهِّر لهذه الأيام المثيرة للغثيان، أحدث تخصصاته.

ظهر علم التبرير الكاذب بالطبع منذ الأعراض الأولى لإنحطاط المجتمع البورجوازي، مع الإنتشار السرطاني للعلوم- الزائفة المسماة "علوم الإنسان"؛ لكن الطب الحديث، مثلا، إستطاع، لفترة، أن يظهر أنه مفيد، وكان أولئك الذين هزموا الجدري أو البرص قوما آخرين غير أولئك الذين رضخوا بدناءة أمام الإشعاعات النووية أو الكيمياء الزراعية - الغذائية. ويلاحظ المرء بسرعة أن الطب اليوم لم يعد له، بالتأكيد، الحق في الدفاع عن صحة السكان ضد الوسط المسبِّب للمرض، لأن هذا سيعني معارضة الدولة، أو مجرد معارضة الصناعة الدوائية.

لكن النشاط العلمي الراهن يعترف بما أصبح عليه، ولا يرجع ذلك فقط إلى إضطراره للصمت. بل يرجع ذلك أيضا إلى أنه كثيرا ما يتمتع ببساطة أن يتحدث. ففي نوفمبر عام ١٩٨٥، وبعد تجارب دامت ثمانية أيام على أربعة مرضى، أعلن الأستاذان إڤين وأندريو Even et Andrieu، من مستشفى لاينيك Laënnec، أنهما ربما يكونا قد إكتشفا علاجا ناجعا ضد مرض نقص المناعة المكتسب (الإيدز)، وبعد يومين، وكان المرضى قد ماتوا، أثارا بعض التحفظات من جانب أطباء كثيرين، أقل تقدما أو ربما يشعرون بالغيرة، على طريقتهما البالغة التعجل في الإسراع بتسجيل ما لم يكن سوى مظهر خادع للإنتصار؛ وقبل ساعات قليلة من الإنهيار. أما هذان فدافعا عن أنفسهما دون إضطراب، مؤكدين أنه «في نهاية المطاف، فإن الآمال الكاذبة أفضل من عدم وجود أمل على الإطلاق». وكانا أجهل من أن يعرفا أن هذه الحجة، في ذاتها، بمثابة نفي كامل للروح العلمي؛ وأنها كانت تفيد، تاريخيا، على الدوام في تغطية أحلام يقظة المهرجين والسحرة، في الزمن الذي لم يكن يعهد إليهم فيه بإدارة المستشفيات.

حين يبلغ العلم الرسمي حد أن يدار على هذا النحو، مثله مثل مجمل بقية الإستعراض الإجتماعي الذي، في تقديم جرى تحديثه وإثراؤه ماديا، لم يفعل سوى إستعادة التقنيات البالغة القدم لمنصات الباعة الجائلين - **الدجالين، والمنادين، ورفاق السوء** -، لا يدهش المرء أن يرى أي قدر ضخم من السلطة يستعيده بصورة موازية، وفي كل مكان تقريبا، السحرة والطوائف الدينية، الزن المغلَّف بالخواء أو لاهوت طائفة المورمون. إن الجهل، الذي أفاد القوى القائمة جيدا، دائما ما جرى إستغلاله بدرجة فائقة من جانب المشروعات البارعة التي تقف على هامش القوانين. أية لحظة أكثر مواتاة من تلك التي تقدمت فيها الأمية كل هذا التقدم؟ لكن هذا الواقع ينفيه بدوره عرْض آخر لأعمال الشعوذة. فقد تبنت منظمة اليونسكو، منذ إنشائها، تعريفا علميا، شديد الدقة، للأمية التي أخذت المنظمة على عاتقها محاربتها في البلدان المتخلفة. وحين رأت المنظمة نفس الشيء

الواضح أنه مستحيل، فإن من الأجدر عدم معرفة كيف نفكر، بل، على النقيض، التدرب جيدا على سلع الخطاب الإستعراضي. وفي هذه المهنة في الحقيقة، برشاقة وبكثير من الإستعداد، وجد العلم المتعهِّر لهذه الأيام المثيرة للغثيان، أحدث تخصصاته.

ظهر علم التبرير الكاذب بالطبع منذ الأعراض الأولى لإنحطاط المجتمع البورجوازي، مع الإنتشار السرطاني للعلوم- الزائفة المسماة "علوم الإنسان"؛ لكن الطب الحديث، مثلا، إستطاع، لفترة، أن يظهر أنه مفيد، وكان أولئك الذين هزموا الجدري أو البرص قوما آخرين غير أولئك الذين رضخوا بدناءة أمام الإشعاعات النووية أو الكيمياء الزراعية - الغذائية. ويلاحظ المرء بسرعة أن الطب اليوم لم يعد له، بالتأكيد، الحق في الدفاع عن صحة السكان ضد الوسط المسبِّب للمرض، لأن هذا سيعني معارضة الدولة، أو مجرد معارضة الصناعة الدوائية.

لكن النشاط العلمي الراهن يعترف بما أصبح عليه، ولا يرجع ذلك فقط إلى إضطراره للصمت، بل يرجع ذلك أيضا إلى أنه كثيرا ما يتمتع ببساطة أن يتحدث. ففي نوفمبر عام ١٩٨٥، وبعد تجارب دامت ثمانية أيام على أربعة مرضى، أعلن الأستاذان إڤين وأندريو Even et Andrieu، من مستشفى لاينيك Laënnec، أنهما ربما يكونا قد إكتشفا علاجا ناجعا ضد مرض نقص المناعة المكتسب (الإيدز)، وبعد يومين، وكان المرضى قد ماتوا، أثارا بعض التحفظات من جانب أطباء كثيرين، أقل تقدما أو ربما يشعرون بالغيرة، على طريقتهما البالغة التعجل في الإسراع بتسجيل ما لم يكن سوى مظهر خادع للإنتصار؛ وقبل ساعات قليلة من الإنهيار. أما هذان فدافعا عن أنفسهما دون إضطراب، مؤكدين أنه «في نهاية المطاف، فإن الآمال الكاذبة أفضل من عدم وجود أمل على الإطلاق». وكانا أجهل من أن يعرفا أن هذه الحجة، في ذاتها، بمثابة نفي كامل للروح العلمي؛ وأنها كانت تفيد، تاريخيا، على الدوام في تغطية أحلام يقظة المهرجين والسحرة، في الزمن الذي لم يكن يعهد إليهم فيه بإدارة المستشفيات.

حين يبلغ العلم الرسمي حد أن يدار على هذا النحو، مثله مثل مجمل بقية الإستعراض الإجتماعي الذي، في تقديم جرى تحديثه وإثراؤه ماديا، لم يفعل سوى إستعادة التقنيات البالغة القدم لمنصات الباعة الجائلين - **الدجالين، والمنادين، ورفاق السوء** -، لا يدهش المرء أن يرى أي قدر ضخم من السلطة يستعيده بصورة موازية، وفي كل مكان تقريبا، السحرة والطوائف الدينية، الزن المغلَّف بالخواء أو لاهوت طائفة المورمون. إن الجهل، الذي أفاد القوى القائمة جيدا، دائما ما جرى إستغلاله بدرجة فائقة من جانب المشروعات البارعة التي تقف على هامش القوانين. أية لحظة أكثر مواتاة من تلك التي تقدمت فيها الأمية كل هذا التقدم؟ لكن هذا الواقع ينفيه بدوره عرض آخر لأعمال الشعوذة. فقد تبنت منظمة اليونسكو، منذ إنشائها، تعريفا علميا، شديد الدقة، للأمية التي أخذت المنظمة على عاتقها محاربتها في البلدان المتخلفة. وحين رأت المنظمة نفس الشيء

يعاود الظهور بغتة، لكن على جانب البلدان المسماة متقدمة هذه المرة، مثل شخص آخر*، بينما كان يتوقع جروشي Grouchy، برغ أمامه في المعركة بلوشر Blûcher، كان كافيا إعطاء إشارة الخطر للخبراء؛ وسرعان ما استولوا على الصيغة بهجوم واحد كاسح؛ مستبدلين **مصطلح الأمية** analphabétisme بمصطلح العجز عن القراءة illettrisme: مثلما يمكن لـ "وطني زائف" أن يبدو في حينه أنه يؤيد قضية قومية جيدة. ولتأسيس صلاحية المصطلح المستحدث على الصخر، بين التربويين، تم بسرعة تمرير تعريف جديد، كأنه كان مسلما به منذ القدم، وبمقتضاه، بينما كان الأمي، كما هو معروف، هو من لم يتعلم القراءة مطلقاً، فإن العاجز عن القراءة illettré [تترجم أيضا بـ: الأمي - المترجم] بالمعنى الحديث هو، على العكس تماما، ذلك الذى تعلم القراءة (بل **وتعلمها أفضل** من ذى قبل، كما يشهد ببروده على الفور ألمع المنظرين والمؤرخين الرسميين للتربية)، لكنه بالصدفة **نسيها تماما**. هذا التفسير المدهش يخاطر بأن يُقلق أكثر مما يُطمئن، إذا لم تكن لديه براعة أن يتجنب، بالحديث خارج الموضوع وكأنه لا يرى العاقبة، النتيجة الأولى التى يمكن أن تخطر على ذهن الجميع فى فترات أكثر علمية: ألا وهى أن هذه الظاهرة الأخيرة تستحق هى نفسها أن تفسَّر، وتحارَب، حيث أنها لم يمكن ملاحظتها أبدا، ولا حتى تخيلها، فى أى مكان كان، قبل التقدم الحديث فى الفكر الفاسد؛ حين يرافق إنحطاط التفسير خطوة بخطوة إنحطاط الممارسة.

XV

منذ أكثر من مائة عام عرف **قاموس المترادفات الفرنسى الجديد** Nouveau Dictionnaire des Synonymes francais تأليف أ. ل. ساردو d' A.-L. Sardou ظلال المعانى التى يجب إلتقاطها بين الكلمات:

fallacieux, trompeur, imposteur, séducteur; insidieux; captieux (**مُضلِّل، مُخادِع، محتال، مُغوٍ، مُخاتِل، مُغرِّر**) والتى تشكل اليوم معا نوعا من مجموعة الألوان التى تناسب صورة لمجتمع الإستعراض. ولم يكن مما يخص عصره، ولا خبرته بوصفه متخصصا، أن يشرح بوضوح أيضا المعانى المجاورة، لكن الشديدة الإختلاف، للمخاطر التى يجب أن تتوقع مواجهتها عادة كل جماعة تعكف على التخريب، متتبعا على سبيل المثال هذا التدرج:

égaré, provoqué, infiltré, manipulé, usurpé, retourné (مُربَك، مُستَفَز، مُخترَق، مُتلاعَبٌ به، مُغتَصَب، مُستعاد) وهذه الظلال الملحوظة للمعانى لا تظهر مطلقا، على أية حال، لدى معتنقى "النضال المسلح".

"**مُضلِّل** fallacieux، من اللاتينية Fallaciosus، بارع أو معتاد على الخداع، مليئ بالمكر؛ ونهاية هذه الصفة تعادل أفعل تفضيل كلمة trompeur **مُخادع**. ومن يخدع أو يدفع إلى الخطأ بأية طريقة مهما كانت، هو **مُخادع** trompeur؛ ومن هو مصنوع من أجل الخداع، وإساءة الإستغلال، والدفع إلى الخطأ بواسطة نية مبيتة للخداع بالحيلة والوسيلة بما يتيح إساءة الإستخدام بأفضل ما يمكن، هو **مُضلِّل** fallacieux. ومخادع trompeur هي كلمة تصنيفية عامة وملتبسة؛ فكل أصناف العلامات والتبديات غير المؤكدة **مخادعة** trom-peurs؛ والمضلل تشير إلى الزيف والمكر، والإحتيال المدروس؛ الخطابات، والإحتجاجات، والتعليلات السفسطائية، كلها **مضللة** fallacieux. وهذه الكلمة لها إرتباطات مع كلمات **مُحتال** imposteur، **ومُغو** séducteur، **ومُخاتل** insidieux، **ومُغرر** captieux، لكن ليس لها معادل. فكلمة **محتال**imposteur تشير إلى كل أصناف التبديات الزائفة، أو الحبكات المنسقة من أجل إساءة الإستغلال أو إيقاع الضرر؛ من قبيل النفاق وتشويه السمعة، إلى آخره. أما كلمة **مغو** séducteur فتعبر عن نفس فعل الإستحواذ على شخص ما، فعل إرباكه بوسائل حاذقة ومليئة بالتلميحات. بينما **مخاتل** insidieux لا تشير إلا إلى فعل زرع الفخاخ بحذق والدفع إلى السقوط فيها. أما **مغرر** captieux فتقتصر على الفعل البارع لمباغتة شخص ما وجعله يسقط في الخطأ. لكن **مضلل** fallacieux تجمع الجزء الأكبر من هذه الخصال."

XVI

مفهوم **تشويه المعلومات** désinformation، الذي مازال فتيا، تم إستيراده من روسيا مؤخرا، مع الكثير من المبتكرات الأخرى المفيدة في إدارة الدول الحديثة. ودائما ما يستخدم جهارا من جانب سلطة، أو بالتبعية من جانب أناس يستحوذون على كسرة من السلطة الإقتصادية أو السياسية، من أجل الحفاظ على ماهو قائم؛ ودائما بإسناد وظيفة **الهجوم - المضاد** إلى هذا الإستخدام. فمن يستطيع معارضة حقيقية رسمية واحدة لا بد أن يشكل بالضرورة تشويها للمعلومات صادرا عن قوى معادية، أو على الأقل عن خصوم، وستكون هذه الحقيقة قد زُيِّفت عمدا بفعل سوء النية. لن يكون تشويه المعلومات مجرد نفي واقعة تناسب السلطات، أو مجرد تأكيد واقعة لا تناسبها: فهذا يسمى ذهان. على نقيض الكذب الخالص، فإن تشويه المعلومات يجب حتما، وهنا تكمن أهمية هذا المفهوم بالنسبة للمدافعين عن المجتمع السائد، أن يحتوي على جزء معين من الحقيقة، لكنه مُشوهٌ عن عمد بواسطة عدو بارع. فالسلطة التي تتحدث عن تشويه المعلومات لا تعتقد أنها هي نفسها خالية تماما من العيوب، لكنها تعرف أنها ستستطيع أن تنسب إلى كل نقد دقيق هذه التفاهة المفرطة المتضمنة في طبيعة تشويه المعلومات؛ وأنها على هذا النحو لن يكون

عليها أبدا أن تُقرّ بعيب محدد.

بإختصار، سيكون تشويه المعلومات هو الإستخدام السئ للحقيقة. ومن يطلقه مذنب، ومن يصدقه أحمق. لكن من سيكون إذن العدو البارع؟ هنا، لا يمكن أن يكون هذا العدو هو الإرهاب، الذي لا يخاطر "بتشويه معلومات" أي شخص، لأنه مكلف بأن يمثل أنطولوجياً الخطأ الأشد بلادة والأقل قبولا. بفضل التطور، وبفضل الذكريات المعاصرة للمواجهات المحدودة التي وضعت في موضع التعارض، نحو منتصف القرن، الشرق والغرب، الإستعراض المركز والإستعراض المشتت، فإن رأسمالية الإستعراض المتكامل ما زالت اليوم تتظاهر بأنها تعتقد أن رأسمالية البيروقراطية الشمولية - التي تقدم أحيانا باعتبارها القاعدة الخلفية للإرهابيين أو إلهامهم - تظل هي عدوها الأساسي، مثلما ستقول الثانية بدورها نفس الشيء عن الأولى؛ رغم الدلائل التي لا تحصى على تحالفهما وتضامنهما العميقين، وفي الحقيقة، فإن كل القوى القائمة، برغم بعض الخصومات المحلية الواقعية، ودون رغبة منها في قول ذلك على الإطلاق، تفكر باستمرار فيما عرف كيف يُذكِّر به ذات يوم، من على جانب التخريب ودون نجاح كبير في حينه، أحد الأمميين الألمان النادرين بعد أن بدأت حرب ١٩١٤: « العدو الأساسي هو في بلدنا. » تشويه المعلومات هو في النهاية المعادل لما كان يمثل، في خطاب الحرب الإجتماعية للقرن التاسع عشر، "العواطف السيئة". إنه كل ما هو غامض ويهدد بالرغبة في معارضة الرفاهية غير العادية التي يفيد بها هذا المجتمع، كما هو معروف جيدا، أولئك الذين يضعون ثقتهم فيه؛ الرفاهية التي لن يكون ثمنا باهظا لها مختلف المخاطرات أو المرارات التافهة. وكل من يرون هذه الرفاهية في الإستعراض يسلمون بأنه يجب بذل كل نفيس وغال إلى جانبه؛ بينما يقوم الآخرون بتشويه المعلومات.

الميزة الأخرى التي يتيحها شجب تشويه خاص جدا للمعلومات، إذا شرحناه على هذا النحو، هي أن الخطاب الكلي للإستعراض لن يكون بالتالي موضعاً للشك في أنه يتضمن تشويها للمعلومات، حيث أنه يستطيع أن يحدد، بأشد يقين علمي، المجال الذي يُعترَف فيه بالتشويه الوحيد للمعلومات: إنه كل ما يمكن أن يقال ولا يروقه.

عن طريق الخطأ دون شك - ما لم يكن فخا مقصودا - أثير مؤخرا في فرنسا مشروع أن يوضع رسمياً نوع من العلامة على إعلام "مضمون بدون تشويه معلومات": وجرح هذا بعض محترفي وسائل الإعلام، الذين ما زالوا يودّون أن يعتقدوا، أو على الأقل أن يجعلونا نعتقد، أنهم لا يخضعون فعليا للرقابة منذ الآن. لكن من الواضح في المقام الأول أن مفهوم تشويه المعلومات لن يستخدم دفاعيا، ولا بالأحرى في دفاع إستاتيكي، بإقامة سور صيني، أو خط ماچينو، لابد أن يغطي تماما فضاء يعد محظورا على تشويه المعلومات. فلا بد أن يوجد تشويه معلومات، وأن يظل مائعا، يستطيع المرور إلى أي مكان. وحيث لا يكون الخطاب الإستعراضي عرضة للهجوم، سيكون من الحماقة الدفاع عنه؛ وسوف يستخدم هذا المفهوم بسرعة بالغة في الدفاع عنه، ضد البداهة، في نقاط يجب على العكس أن

تتجنب لفت الإنتباه. وفضلا عن ذلك، ليس لدى السلطات أية حاجة فعلية لضمان ألا تتضمن معلومة محددة تشويها للمعلومات. وليس لديها الوسائل لذلك: فليست محترمة إلى هذا الحد، ولن تفعل سوى توجيه الشكوك إلى المعلومة موضع البحث. ليس مفهوم تشويه المعلومات جيدا إلا في الهجوم المضاد. ويجب الإبقاء عليه في الخط الثاني، ثم دفعه على الفور إلى الأمام لصد هجوم كل حقيقة يمكن أن تظهر.

إذا حدث أحيانا أن خاطر نوع من تشويه المعلومات المنفلت بالظهور، في خدمة بعض المصالح الخاصة المتنازعة بصورة عابرة، وجرى تصديقه بدوره، ليصبح غير قابل للسيطرة ومتعارضا بذلك مع العمل المنسق لتشويه معلومات أكثر مسئولية؛ فلا يعني ذلك إفساح المجال للإعتقاد بأن هذا التشويه الأخير للمعلومات لا ينخرط فيه متلاعبون آخرون أكثر خبرة أو أكثر براعة: بل يرجع ذلك ببساطة إلى أن تشويه المعلومات ينتشر الآن في **عالم لم يعد فيه مكان لأي تحقق.**

لقد وضع المفهوم التشويشي لتشويه المعلومات في مرتبة النجم كي يدحض فورا، بمجرد ضجيج إسمه، كل نقد لا يكون كافيا لجعل مختلف هيئات تنظيم الصمت تختفي. وعلى سبيل المثال، سيمكن القول ذات يوم، لو بدا ذلك مرغوبا، أن هذه الكتابة الحالية هي محاولة لتشويه المعلومات حول الإستعراض؛ أو بالأحرى، وهذا نفس الشيء، أنها محاولة لتشويه المعلومات للإضرار بالديمقراطية.

على نقيض ما يؤكده المفهوم الإستعراضي المقلوب لممارسة تشويه المعلومات، فإن هذه الممارسة لا يمكن إلا أن تفيد الدولة هنا والآن، في سلوكها المباشر، أو بمبادرة من يدافعون عن نفس القيم. وفي الحقيقة، فإن تشويه المعلومات يكمن في كل المعلومات الموجودة؛ بوصفه طابعها الأساسي. ولا تجري تسميته إلا حيث يجب، بالتخويف، الإبقاء على السلبية. حيث تجري **تسمية** تشويه المعلومات، فإنه لا يوجد. وحيث يوجد، لا تجري تسميته.

حين كانت لا تزال توجد إيديولوجيات تدخل في مواجهة، وتعلن أنها مع أو ضد جانب معروف ما من الواقع، كان ثمة متعصبون، وكاذبون. لكن لم يكن ثمة "مشوهو معلومات".

حين لا يعود من المسموح به، بسبب إحترام الإجماع الإستعراضي، أو على الأقل بسبب رغبة في الزهو الإستعراضي، أن يقول المرء ماذا يعارض حقا، وكذلك ماذا يتفق معه بكل عواقبه؛ حيث يجد المرء عادة أنه مضطر لكتمان جانب يعتبره، لسبب أو لآخر، خطيرا فيما هو مسموح به، فإن المرء يمارس تشويه المعلومات؛ كأنما بفعل النزق، أو بفعل النسيان، أو بفعل تعليل زائف **مزعوم**. وعلى سبيل المثال، في مجال الرد بعد ١٩٦٨، فإن الإستعاديين العاجزين الذين أطلق عليهم إسم "أنصار المواقفية" **pro -situs** كانوا **أول مشوهي المعلومات**، لأنهم أخفوا قدر الإمكان التبديات العملية التي تم عن طريقها إثبات النقد الذي أطروا أنفسهم لتبنِّيه؛ وغير عابئين مطلقا بإضعاف التعبير عن هذا النقد، لم يستشهدوا أبدا لا بشيء ولا بأحد، كي

يبدو أنهم هم أنفسهم قد عثروا على شيء.

XVII

عاكسا صيغة شهيرة لهيجل، لاحظت بالفعل في عام ١٩٦٧ أنه "**في العالم المقلوب واقعيا** رأسا على عقب، يكون ما هو حقيقي لحظة من لحظات ما هو زائف". وقد أظهرت السنوات الماضية منذ ذلك الحين تقدُم هذا المبدأ في كل مجال محدد، دون إستثناء.

هكذا، في حقبة لم يعد ممكنا فيها وجود فن معاصر، يصبح من الصعب الحكم على الفنون الكلاسيكية. هنا مثلما في كل مكان آخر، لا يتم إنتاج الجهل إلا من أجل إستغلاله. وفي نفس الوقت الذي يتم فيه فقدان الحس بالتاريخ والذوق معا، يجرى تنظيم شبكات للتزييف. يكفي الحصول علي الخبراء والمثمنين، وهذا سهل جدا، لتمرير كل شيء، لأن البيع هو الذي يضفي الأصالة على كلّ قيمة، في الأمور من هذا النوع، مثلما في كل الأمور الأخرى في نهاية المطاف. وبعدها، فإن جامعي التحف أو المتاحف، الأمريكية خصوصا، المتخمة بالزيف، هي التي ستكون لها مصلحة في الحفاظ علي السمعة الطيبة للأعمال الفنية، تماما مثلما يحافظ صندوق النقد الدولي على خرافة القيمة الإيجابية للديون الضخمة التي تدين بها مائة دولة.

إن الزائف يشكّل الذوق، ويدعم الزيف، وذلك بالعمل عمدا على إختفاء إمكانية الرجوع إلى ما هو أصيل. والحقيقي نفسه **يعاد صنعه**، منذ أن صار ذلك ممكنا، لجعله يشبه الزائف. ولأن الأمريكيين هم الأكثر ثراء والأكثر حداثة، فقد كانوا المخدوعين الرئيسيين لتجارة الزيف في الفن. وهم أنفسهم على وجه الدقة، من يمولون أعمال ترميم قصر فرساي وكنيسة السستين. وهذا هو السبب في أن لوحات مايكل أنجلو الجدارية لا بد أن تكتسي ألوانا فاقعة مثل ألوان الحكايات المصورة، وأن أثاثات فرساي الأصيلة لا بد أن تكتسب هذا البريق المتأجج للتذهيب الذي سيجعلها تشبه كثيرا الأثاثات الزائفة لحقبة لويس الرابع عشر التي تستورد إلى تكساس بنفقات باهظة.

إن حكم فويرباخ على حقيقة أن عصره كان يفضّل "الصورة على الشيء، النسخة على الأصل، التمثيل على الواقع" قد أكدها تماما قرن الإستعراض، وفعل ذلك في مجالات عديدة كان القرن التاسع عشر قد أراد إبقاءها بمعزل عما كان يمثل حينها بالفعل طبيعته العميقة: أي الإنتاج الصناعي الرأسمالي. على هذا النحو كانت البورجوازية قد نشرت بشكل واسع الروح الصارمة للمتحف، للشيء الأصلي، للنقد التاريخي الدقيق، للوثيقة الأصلية. أما الآن، فإن ما هو مقلّد يميل في كل مكان إلى الحلول محل ما هو حقيقي. وفي هذا الصدد، فإنه في حينه تماما أن يجبر التلوث، الناشئ عن حركة مرور السيارات، على إستبدال خيول مارلي Marly أو التماثيل الرومانية لبوابة سان تروفيم

Saint-Trophime بنسخ من البلاستيك. ففي النهاية، سيكون كل شيء أجمل من ذي قبل، لكي يصوِّره السياح فوتوغرافيا.

أما نقطة الذروة فقد بلغتها دون شك الخدعة البيروقراطية الصينية الزائفة والمثيرة للسخرية بشأن التماثيل العظيمة **للجيش الصناعي** الضخم للإمبراطور الأول الذي دُعي الكثيرون من رجال الدولة الزائرين إلى الإعجاب به **في موقعه** in situ. ولما كانت السخرية منهم ممكنة بكل هذه القسوة، فإن هذا يثبت إذن، أن أيا منهم لم يكن لديه، بين كل جمهرة مستشاريهم، شخص واحد يعرف تاريخ الفن، في الصين أو خارج الصين. فالمعروف أن تعليماتهم كانت مختلفة تماما: "ليس لدى كمبيوتر سعادتكم معلومات عن ذلك." هذا البرهان على أن بالإمكان، للمرة الأولى، الحكم دون إمتلاك أية معرفة فنية ولا أي حس بما هو أصيل أو بما هو مستحيل، يكفي في حد ذاته لتخمين أن كل هؤلاء المغفلين الساذجين للإقتصاد والإدارة ربما سيقودون العالم إلي كارثة ضخمة من نوع ما؛ هذا إذا لم تكن ممارستهم الفعلية قد أوضحت ذلك فعلاً.

XVIII

مجتمعنا مبني على السر، إبتداء من "الجمعيات-الواجهة" التي تضع الثروات المُركَّزة للمالكين بمأمن عن كل ضوء، وحتى "السر-الدفاعي" الذي يغطي اليوم مجالا هائلا يتمتع بحرية كاملة خارج قضاء الدولة؛ إبتداء من الأسرار، المرعبة عادة، **للتصنيع البائس**، المخفية خلف الدعاية، وحتى إسقاطات تنويعات للمستقبل المقدَّر إستقرائيا، التي تقرأ فيها السيطرة وحدها المسار الأكثر إحتمالا لما تؤكد أنه ليس له أي نوع من الوجود، كل ذلك مع حساب الإستجابات التي ستحدثها بطريقة سرية. في هذا الصدد يمكن إبداء بعض الملاحظات.

هناك دائما عدد متزايد من الأماكن، في المدن الكبرى مثلما في بعض الفضاءات المحجوزة في الريف، لا يمكن الوصول إليها، أي أنها محروسة ومحمية من أي نظرة؛ موضوعة بعيدا عن متناول الفضول البريء، ومحصَّنة بقوة ضد التجسس. ودون أن تكون هذه الأماكن عسكرية بالمعنى المحدد، فإنها موضوعة وفق هذا النموذج بعيدا عن خطر السيطرة عليها من جانب العابرين أو المقيمين؛ ولا حتى من جانب الشرطة، التي وجدت منذ زمن بعيد أن وظائفها مقتصرة على مجرد مراقبة وقمع أكثر أنواع الإنحراف شيوعا. هكذا نجد أنه في إيطاليا، حين كان ألدو مورو Aldo Moro سجيناً لدى البوتيري دوي* Potere Due، فإنه لم يُحتَجَز في بناء يتعذر العثور عليه بدرجة أو بأخرى، بل ببساطة في بناء لا يمكن إختراقه.

- مورو رئيس الوزراء الإيطالي في ذلك الحين نسب إختطافه إلى "الألوية الحمراء" م

وهناك دائما عدد متزايد من البشر الذين أعدوا للعمل في السر: مؤهلون ومدربون على عمل ذلك فقط. إنهم مفارز خاصة من الناس المسلحين بأرشيفات سرية، أي بملاحظات وتحليلات سرية. وهناك آخرون مسلحون بمختلف تقنيات إستغلال والتلاعب في هذه الشئون السرية. وفي نهاية الأمر، عندما يتعلق الأمر بفروع "الفعل" لديهم، يمكن كذلك أن يكونوا مزودين بقدرات أخرى لتبسيط المشكلات المدروسة.

وبينما تتزايد الوسائل الموضوعة تحت تصرف هؤلاء الناس المتخصصين في المراقبة والتأثير، فإنهم كذلك يجدون ظروفا عامة أكثر مواتاة لهم عاما بعد عام. فعلى سبيل المثال، حين أجبرت الشروط الجديدة لمجتمع الإستعراض المتكامل نقد هذا المجتمع على أن يظل سريا بالفعل، ليس لأنه يخفي نفسه، بل **لأنه يجرى إخفاؤه** عن طريق قيام فكر التسلية باحتلال ثقيل الوطأة للساحة، فإن أولئك المكلفين بمراقبة هذا النقد، المحتاجين إلى تفنيده، يمكنهم في النهاية أن يستخدموا ضده السبل التقليدية في مجال السرية: التحريض، والإختراقات، ومختلف أشكال تصفية النقد الأصيل لصالح نقد زائف سيكون قد تمكن من إحتلال مكانه لهذا الغرض. ويتعاظم عدم اليقين، في كل لحظة، حين تُثرى الإحتيالَ العامِ للإستعراض إمكانيةُ اللجوء إلى ألف إحتيال منفرد. لهذا يمكن لجريمة بلا تفسير أن يقال أنها إنتحار، في السجن وكذلك خارجه؛ ويتيح تحلل المنطق إجراء تحقيقات ومحاكمات تسقط مباشرة في اللامعقولية، وعادة ما تكون قد زُيِّفت من البداية بواسطة عمليات تشريح خارقة، يمارسها خبراء غريبون.

منذ زمن طويل، تعودنا في كل مكان رؤية جميع أنواع البشر يعدمون دون محاكمة. فالإرهابيون المعروفون، أو الذين يعتبرون معروفين، يُحاربون علنا بطريقة إرهابية. الموساد يمضي بعيدا لقتل أبو جهاد، أو تقتل منظمة SAS الإنجليزية الأيرلنديين، أو تقتل الشرطة الموازية لفصائل "الجال" .G. A. L » الباسك. ومن يتم قتلهم بواسطة إرهابيين مفترضين لا يُختارون دون سبب؛ لكن من المستحيل عموما التأكد من معرفة هذه الأسباب. يمكن معرفة أن محطة بولونيا قد تطايرت لكي تظل إيطاليا تُحكم جيدا؛ وأن في البرازيل "فصائل الموت"؛ وأن المافيا يمكن أن تشعل فندقا في الولايات المتحدة لدعم **عملية إحتيال** racket. لكن كيف نعرف ماذا أفاد، في العمق، "قتلة برابانت Barabant الحمقى"؟ من الصعب تطبيق مبدأ **من المستفيد**؟ Cui prodest? في عالم نجد فيه الكثير من المصالح الفعالة مخبأة جيدا جدا. والنتيجة، أن المرء في ظل الإستعراض المتكامل، يحيا ويموت عند نقطة إلتقاء عدد كبير جدا من الألغاز.

تكتسب الشائعات الإعلامية - البوليسية على الفور، أو في أسوأ الأحوال بعد تكرارها ثلاث أو أربع مرات، الثقل غير القابل للجدل للبراهين التاريخية العتيقة. وطبقا للسلطة الخرافية للإستعراض اليومي، فإن شخصيات غريبة تمت تصفيتها في صمت تعاود الظهور كأنها ناجين وهميين، يمكن دائما إستحضار أو حسبان عودتهم، **وإثباتها** بأبسط أقوالِ المتخصصين. إنهم في مكان ما بين نهري

آخيرون وليشي*، هؤلاء الموتى الذين لم يدفنهم الإستعراض كالمعتاد، ويعتبرون نائمين في إنتظار أن يريد أحد إيقاظهم، جميعا، الإرهابيون الذين عاودوا الهبوط من الجبال والقراصنة العائدون من البحر؛ واللصوص الذين لم يعودوا بحاجة إلى السرقة.

هكذا يجري تنظيم عدم اليقين في كل مكان. وتتحقق حماية السيطرة غالبا عن طريق **هجمات زائفة**، يخفي التناول الإعلامي عن الأبصار عمليتها الحقيقية: هكذا كان الإنقلاب الغريب لتيخيرو Tejero وحرسه المدني في البرلمان الإسباني [الكورتيس] عام ١٩٨١، الذي لا بد أن إخفاقه كان يخفي **تمردا** Pronunciamiento آخر أكثر حداثة، أي مقنَّعا، هو الذي نجح. ويعادل ذلك في جذب الإنتباه، إخفاق عملية تخريب من جانب المخابرات الفرنسية، عام ١٩٨٥، في نيوزيلندا، أعتبرت أحيانا إستراتيجية، ربما كانت تستهدف حرف الإنتباه عن مهام جديدة عديدة لهذه المخابرات، يزرع الإعتقاد في بلاهتها الكاريكاتورية في إختيار الأهداف مثلما في أساليب التنفيذ. وعلى نحو أشد يقينا قدَّر الناس في كل مكان تقريبا أن أعمال التنقيب الجيولوجي عن حقل بترولي أسفل **مدينة باريس**، والتي جرى العمل فيها بصخب في خريف ١٩٨٦، لم يكن لها من هدف جاد سوى قياس النقطة التي يمكن أن تكون قد بلغتها القدرة على البلادة والخنوع لدى السكان؛ بإطلاعهم على تنقيب مزعوم جنوني تماما على المستوى الإقتصادي.

بلغت السلطة حدا من الغموض جعل المرء يتساءل، بعد قضية قيام رئاسة الولايات المتحدة ببيعات أسلحة غير شرعية لإيران، من كان يقود فعلا في الولايات المتحدة، أقوى قوة في العالم الذي يقال أنه ديمقراطي؟ وأي شيطان يمكن إذن أن يقود العالم الديمقراطي؟

وبشكل أعمق، في هذا العالم المتلئ رسميا بإحترام كل الضرورات الإقتصادية، لا يعرف أي شخص أبدا ما يتكلفه حقا أي شيء منتج مهما كان: فالحقيقة أن الجزء الأكثر أهمية في التكلفة الفعلية **لا يُحسب أبدا؛ والباقي يعد سرا**.

XIX

حقق الجنرال نوريبجا Noriega شهرة عالمية لبعض الوقت في بداية عام ١٩٨٨. كان ديكتاتورا دون وجه حق، لبلد دون جيش، هو بنما، حيث كان يقود الحرس القومي. فبنما ليست دولة ذات سيادة حقا؛ فقد حفرتها قناتها، وليس العكس. الدولار هو عملتها، والجيش الحقيقي الذي يرابط فيها هو بالمثل جيش أجنبي. كان نوريبجا إذن قد أدى عمل حياته كله، المماثل هنا تماما لعمل ياروزيلسكي Jaruzelski في بولندا، بوصفه جنرالا - شرطيا، في خدمة المحتل. كان يورد المخدرات إلى الولايات المتحدة، لأن بنما لا تُغلُّ الكثير، وكان يصدِّر إلى سويسرا رؤوس أمواله "البنمية". كان

قد عمل مع المخابرات المركزية الأمريكية .C. I. A ضد كوبا، ولتوفير الغطاء المناسب لنشاطاته الإقتصادية، وشى كذلك للسلطات الأمريكية، التى تمثل لها هذه المشكلة هاجسا ملحا، بعدد معين من منافسيه في توريد المخدرات. وكان مستشاره الرئيسى في مسائل الأمن،الذى أثار غيرة واشنطن، هو الأفضل في السوق، ميكل هرارى M. Harari، الضابط السابق فى الموساد، المخابرات الإسرائلية. وحين أراد الأمريكيون التخلص من هذه الشخصية، لأن بعض محاكمهم قد أدانته دون تبصر، أعلن نورييجا أنه مستعد للدفاع عن نفسه خلال ألف عام، بدافع الوطنية البنمية، ضد شعبه الثائر وكذلك ضد الأجنبى؛ وسرعان ما نال الإستحسان العلنى من أشد الدكتاتوريين البيروقراطيين صرامة في كوب وفى نيكاراجوا، باسم مناهضة الإمبريالية.

بعيدا عن كونه ظاهرة غريبة قاصرة على بنما، فإن هذا الجنرال نورييجا، الذى **يبيع كل شىء ويتظاهر بكل شىء** في عالم يصنع نفس الشىء فى كل مكان، كان، وحتى النهاية، بوصفه نوعا من الرجل لنوع من الدولة، بوصفه نوع من الجنرال، بوصفه رأسماليا، ممثلا تماما للإستعراض المتكامل؛ وللنجاحات التى يرخّص بها هذا الإستعراض فى أشد الإتجاهات تنوعا لسياسته الداخلية والدولية. إنه نموذج **لأمير من زماننا**؛ ومن بين من يتهيأون للقدوم وللبقاء فى السلطة أينما كانت، فإن أكثرهم كفاءة يشبهونه كثيرا. ليست بنما هى التى تنتج مثل هذه الأعاجيب، بل إنها هذه الحقبة.

XX

بالنسبة لكل جهاز إستخبارات، يجب لكل **معرفة** أن تصبح **سلطة**، وفى هذه النقطة يتفق مع نظرية كلاوزفيتس الصادقة عن الحرب. من هنا تستمد هذه المخابرات في الوقت الحاضر مكانتها، النوع الخاص بها من الشعر. وبينما تمت بشكل مطلق مطاردة الذكاء خارج الإستعراض، الذى لا يسمح بالتصرف ولا يذكر الشىء الكثير من الحقيقة حول عمل الآخرين، فإن الذكاء يبدو تقريبا أنه قد إتخذ ملاذه بين أولئك الذين يحللون الوقائع، ويعملون سرا على الوقائع. ومؤخرا، فإن إفشاءات، صنعت مارجريت ثاتشر Margaret Thatcher كل شىء، عبثا، لخنقها، وبذلك أكدتها، قد أظهرت أن هذه المخابرات في إنجلترا قد تمكنت بالفعل من إسقاط وزارة إعتبرت سياستها خطيرة. إن القرف العام الذى يثيره الإستعراض يعيد بذلك،لأسباب جديدة، الجاذبية إلى ما كان يسمى، فى عصر كيبلنج، Kipling، "اللعبة الكبرى".

كان "المفهوم البوليسى للتاريخ" فى القرن التاسع عشر تفسيرا رجعيا، ومثيرا للسخرية، إذ كان الكثير من الحركات الإجتماعية القوية يحرك الجماهير. وأنصار الرد - الزائفون اليوم يعرفون هذا جيدا، عن طريق السماع أو عن طريق بعض الكتب، ويعتقدون أن هذه النتيجة تظل صحيحة إلى الأبد؛ ولا يريدون أبداً أن يروا الممارسة الواقعية لعصرهم؛ لأنها بالغة التعاسة

بالنسبة لآمالهم الباردة. والدولة لا تجهل ذلك، وتلعب عليه.

في اللحظة التي تُدار فيها كل جوانب الحياة السياسية الدولية تقريبا، مع عدد متزايد من الجوانب التي تعد ضمن السياسة الداخلية، وتُعرض بأسلوب المخابرات، بفخاخ، وتشويه معلومات، وتفسير مزدوج - ذلك الذي يمكن أن يُخفي آخر، أو يبدو كذلك فقط - يكتفي الإستعراض بالتعريف بالعالم المجهد - للا - مفهوم الإجباري، بسلسلة مثيرة للسأم من الروايات البوليسية المجردة من الحياة والتي تفتقر دائماً إلى النتيجة. من هنا فإن إخراجا واقعيا لمعركة بين زنوج، بالليل، داخل نفق، يجب أن تعد توضيحا دراميا كافيا.

تعتقد البلاهة أن كل شيء واضح، إذا عرض التليفزيون صورة جميلة، وعلق عليها بكذبة صارخة. أما شبه - النخبة فتقنع بمعرفة أن كل شيء غامض، ومتضارب، و"مركّب" على أساس شفرات مجهولة. وهناك نخبة أضيق ستود معرفة ما هو حقيقي، وتعاني الأمرين لتميز بوضوح في كل حالة منفردة، برغم كل المعطيات المحفوظة والأسرار التي يمكن الوقوف عليها. لهذا السبب فإنها ستحب معرفة منهج الحقيقة، مهما ظل هذا الحب بالنسبة لها تعيسا بوجه عام.

XXI

يسيطر السر على هذا العالم، بوصفه أولا سر السيطرة. طبقا للإستعراض، لن يكون السر سوى إستثناء ضروريا من قاعدة المعلومات المقدَّمة بوفرة على سطح المجتمع كله، مثلما أن **السيطرة، في هذا "العالم الحر"** للإستعراض المتكامل، ستتقلص بحيث لا تتعدى كونها إدارة تنفيذية في خدمة الديمقراطية. لكن لا أحد يصدق الإستعراض حقا. **إذ** كيف يقبل المتفرجون وجود السر الذي يضمن، في حد ذاته، ألا يستطيعوا إدارة عالم يجهلون حقائقه الأساسية، **إذا** سئلوا بشكل خارق للمألوف عن رأيهم حق في طريقة التصرف فيه؟ إنها لحقيقة أن السر لا يتبدى لأي شخص تقريبا في نقائه البعيد المنال، وفي عموميّته الوظيفية. يسلم الجميع بأن ثمة لا محالة منطقة صغيرة من السر المقتصر على المتخصصين؛ أما في عمومية الأمور، فيعتقد الكثيرون **أنهم داخل السر**.

أوضح لابواتييه La Boétie، في **مقال في العبودية الطوعية** Discours sur la servitude volontaire، كيف أن سلطة طاغية لا بد أن تجد مساندات عديدة بين الدوائر المشتركة المركز من الأفراد الذين يجدون فيها، أو يعتقدون أنهم يجدون، منفعتهم. وبنفس الطريقة، فإن أناسا كثيرين بين السياسيين أو الإعلاميين ممن يتملقهم ألا يمكن الشك في كونهم **لا مسئولين**، يعرفون الكثير من الأشياء عن طريق العلاقات أو عن طريق المكاشفات السرية. ومن يرضيه أن يكون موضع

ثقة نادرا ما يميل إلى نقدها؛ ولا يميل كذلك إلى ملاحظة أنه، في كل المكاشفات، سيكون الجزء الأساسي من الحقيقة محجوبا عنه على الدوام. إنه يعرف، عن طريق حماية الغشاشين الحسنة النية، عددا أكبر قليلا من أوراق اللعب، لكنها قد تكون زائفة؛ ولا يعرف أبدا المنهج الذي يدير ويفسر اللعبة. إنه إذن يتماهى على الفور مع المتلاعبين، ويحتقر الجهل الذي يشارك فيه في الواقع. فالرشاوي من المعلومات التي تقدّم لهؤلاء المقربين من الإستبداد القائم على الكذب عادة ما تكون حاملة لجرثومة الكذب، وغير قابلة للسيطرة، ومتلاعب بها. ومع ذلك فهي تبعث السرور فيمن يتوصلون إليها، لأنهم يشعرون بالتفوق على كل من لا يعرفون شيئا. وهي لا تصلح فيما عدا ذلك إلا في الحصول على موافقة أكبر على السيطرة، وليس أبدا في فهمها فعلا. إنها تشكل إمتياز **المتفرجين من الدرجة الأولى**: أولئك الذين يتمتعون ببلاهة الإعتقاد بأن بإمكانهم فهم شيء، ليس بالإستفادة مما يحجب عنهم، بل **بتصديق ما يتم إطلاعهم عليه**.

السيطرة واضحة على الأقل في أنها تتوقع أن تؤدي إدارتها، الحرة دون عوائق، إلى عدد كبير جدا من الكوارث البالغة الضخامة في وقت قريب جدا؛ وذلك في المجالات البيئية، المجال الكيميائي على سبيل المثال، مثلما في المجالات الإقتصادية، المجال المصرفي مثلا. وهي، منذ بعض الوقت بالفعل، في وضع يجعلها تعالج هذه المصائب غير العادية على نحو مختلف عن التحسس المعتاد الذي يقوم به تشويه المعلومات الناعم.

XXII

أما عن الإغتيالات، المتزايدة العدد منذ أكثر من عقدين، والتي تظل دون تفسير على الإطلاق - إذ لو كانت قد تمت التضحية أحيانا ببعض الممثلين الثانويين فلم يبلغ الأمر أبدا حد الوصول إلى الشرك، المتضامنين - فإن طابع إنتاجها المتسلسل له سمته المميزة: الأكاذيب الصارخة، والمتغيرة، للتصريحات الرسمية؛ كينيدي Kennedy، وألدو مورو Aldo Moro، وأولاف بالمه Olaf Palme، ووزراء أو مصرفيون، وبابا أو اثنين، وآخرون أكثر منهم قيمة. هذه الأعراض لمرض إجتماعي مكتسب حديث تنتشر بسرعة في كل مكان تقريبا، فكأنها، إبتداء من أولى الحالات الملاحظة، **كانت تهبط** من قمم الدول، المجال التقليدي لهذا النوع من الهجمات، وكأنها، في نفس الوقت، **تعاود الصعود** من الحضيض، وهو موضع تقليدي آخر للتهريبات غير المشروعة وأشكال الحماية، حيث يجري على الدوام هذا النوع من الحرب، بين المحترفين. وتميل هذه الممارسات إلى الإلتقاء **في وسط** au milieu كل شؤون المجتمع، فكأن الدولة لم تترفع عن الإنخراط فيها، وكأن المافيا قد وصلت إلى الإرتقاء بها؛ ثمة نوع من الوصلة يتحقق هنا.

وقد سمعنا كل الأشياء تقال في محاولة للتفسير العرضي لهذا النوع الجديد من الألغاز: عدم

كفاءة أجهزة الشرطة، غباء قضاة التحقيق، التسريبات الصحفية غير المواتية، أزمة نمو أجهزة المخابرات، سوء نية الشهود، الإضراب الفئوى للمخبرين. ومع ذلك كان إدجار آلان پو Edgar Poe قد عثر فعلا على الإتجاه الأكيد للحقيقة، بتعليله الشهير لـ **جريمة الإغتيال المزدوجة فى شارع مورج**:

«يبدو لى أن اللغز يُعتبر غير قابل للحل، لنفس السبب الذى كان يجب أن يجعله يعد سهل الحل - أود الحديث عن الطابع المفرط الذى بدا به... ففى التحقيقات من النوع الذى بين أيدينا، لا تجب المبالغة فى التساؤل عن كيف جرت الأمور، بل دراسة فيم تتميز عن كل ما حدث حتى الآن.»

XXIII

فى يناير عام ١٩٨٨، نشرت مافيا المخدرات الكولومبية بيانا صحفيا يستهدف تصحيح رأى الجمهور فى وجودها المزعوم. إن أهم مطلب لأى مافيا، أينما تأسست، هو بالطبع إثبات أنها غير موجودة، أو أنها كانت ضحية إفتراءات غير علمية؛ وهذه أولى نقاط تشابهها مع الرأسمالية. لكن فى هذا الظرف، مضت هذه المافيا، التى أزعجها أن توضع وحدها فى مصاف النجوم، إلى حد التذكير بالمجموعات الأخرى التى أرادت أن يلفها النسيان بجعل مافيا المخدرات كبش فداء بشكل تعسفى. أعلنت: «نحن، لا ننتمى إلى المافيا البيروقراطية ومحترفة السياسة، ولا إلى مافيا المصرفيين والمموّلين، ولا إلى مافيا المليونيرات، ولا إلى مافيا عقود الغش الضخمة، ولا إلى مافيا الاحتكارات أو مافيا البترول، ولا إلى مافيا وسائل الإتصال الكبرى.»

بالإمكان دون شك تقدير أن لمؤلفى هذا البيان مصلحة، مثل كل الآخرين، فى صب ممارستهم الخاصة فى النهر الواسع لمياه الإجرام المضطربة، والنشاطات غير المشروعة الأشد إبتذالا، الذى يسقى المجتمع الراهن بكامل إتساعه؛ لكن من العدل أيضا الإعتراف بأننا أمام أناس يعرفون أفضل من غيرهم، بحكم المهنة، ما يتحدثون عنه. إن المافيا تنبت بأفضل ما يمكن على أرضية المجتمع الحديث. وهى تشهد نموا يماثل فى سرعته نمو منتجات العمل الأخرى التى يشكّل بها مجتمع الإستعراض المتكامل وجه عالمه. تكبر المافيا مع أوجه التقدم الهائلة فى أجهزة الكمبيوتر وفى التغذية الصناعية، فى إعادة البناء الحضرية الكاملة وفى مدن الصفيح، فى أجهزة المخابرات وفى الأميّة.

XXIV

لم تكن المافيا سوى شكل عتيق أعيد زرعه، حين بدأت فى الظهور عند بداية القرن فى الولايات المتحدة، مع هجرة العمال الصقليين؛ مثلما ظهرت فى نفس اللحظة على الشاطئ الغربى

حروب العصابات بين الجمعيات السرية الصينية. بقيام المافيا على أساس الظلامية والبؤس، لم تستطع حتى زرع نفسها في إيطاليا الشمالية. وبدا أنها محكوم عليها بالإختفاء من الوجود في كل مكان أمام الدولة الحديثة. فقد كانت شكلا من الجريمة المنظمة لا يمكنه الإزدهار إلا على أساس "حماية" الأقليات المتخلفة، خارج عالم المدن، هناك حيث لا يمكن تغلغل سيطرة الشرطة العقلانية وقوانين البورجوازية. ولم يكن يمكن مطلقا للتكتيك الدفاعي للمافيا سوى أن يكون حجب الشهود، لتحييد الشرطة والعدالة، وجعل السر الضروري لها يسود داخل مجال نشاطها. وقد وجدت فيما بعد مجالا جديدا لها في **الظلامية الجديدة** لمجتمع الإستعراض المشتت، ثم المتكامل: قمع الانتصار الشامل للسر، والاعتزال العام للمواطنين، والفقدان التام للمنطق، وتقدم شراء الذمم والدناءة الشاملين، إجتمعت كل الشروط المواتية لها لكي تتحول إلى قوة حديثة، وهجومية.

أما قانون تحريم الخمور الأمريكي - المثال الناصع على إدعاءات دول القرن بالسيطرة السلطوية على كل شيء، والنتائج المترتبة عليها - فقد ترك للجريمة المنظمة، خلال أكثر من عقد من الزمن، إدارة تجارة الكحول. وبدءا من هذه النقطة، إرتبطت المافيا، التي حققت الثراء والحنكة، بالسياسة الإنتخابية، والأعمال، وتطوير سوق القتلة المحترفين، وبعض تفاصيل السياسة الدولية. هكذا، نالت الحظوة لدى حكومة واشنطون خلال الحرب العالمية الثانية، للمعاونة في غزو صقلية. وحين أصبح الكحول مشروعا من جديد، حلت محله المخدرات، التي شكلت حينئذ السلعة - النجم للإستهلاك غير المشروع. بعدها حققت المافيا أهمية ملحوظة في العقارات، والبنوك، والسياسة العليا والأعمال الكبرى للدولة، ثم في صناعات الإستعراض: التليفزيون، والسينما، والنشر. وما زال هذا صحيحا، في الولايات المتحدة على أية حال، في صناعة الإسطوانات ذاتها، مثلما في كل مكان تعتمد فيه الدعاية لأحد المنتجات على عدد محدود جدا من الناس. ومن ثم يمكن الضغط عليهم، بشرائهم أو بتخويفهم، حيث أن المرء تحت تصرفه بالطبع رؤوس أموال وفيرة، ورجال مأجورون لا يمكن التعرف عليهم ولا معاقبتهم. وعن طريق إفساد خيالة الأسطوانات* disc-jokeys، يمكن تقرير الأسطوانات التي يجب أن تكون ناجحة، بين سلع متماثلة في بؤسها.

لكن في إيطاليا دون شك إكتسبت المافيا أكبر قوة، عند عودة خبراتها وفتوحاتها الأمريكية: فمنذ حقبة تسويتها التاريخية مع الحكومة الموازية، وجدت نفسها في وضع يتيح لها قتل قضاة التحقيق أو رؤساء الشرطة: وهي ممارسة كانت قد إستهلتها في مشاركتها في عمليات مونتاج "الإرهاب" السياسي. وفي شروط مستقلة نسبيا، يثبت التطور المماثل للمعادل الياباني للمافيا وحدة الحقبة.

يخطئ المرء في كل مرة يريد فيها تفسير شيء ما بإقامة تعارض بين المافيا والدولة: فليسا خصمين على الإطلاق. وتثبت النظرية بسهولة ما أوضحته شائعات الحياة العملية بسهولة أكبر. المافيا ليست غريبة في هذا العالم؛ إنها في دارها تماما. وفي لحظة الإستعراض المتكامل، تسود فعليا بإعتبارها **النموذج** لكل المشروعات التجارية المتقدمة.

XXV

في الشروط الجديدة التي تسود حاليا في المجتمع المسحوق تحت **الكعب الحديدية** للإستعراض، من المعروف أن إغتيالا سياسيا، على سبيل المثال، يوضع تحت ضوء مختلف، مخفّف على نحو ما. يوجد في كل مكان مجانين أكثر من أي وقت آخر. لكن المريع بدرجة أكبر بما لا يقاس، هو أنه يمكن التحدث عنهم **بطريقة جنونية**. وليس رعب سائدا منهما كن هو الذي يفرض مثل هذه التفسيرات الإعلامية. بل إن الوجود المسالم لتلك التفسيرات هو الذي يجب على العكس، أن يسبب الرعب.

في عام ١٩١٤، حين كانت الحرب وشيكة، إغتال ڤيللان Villain جوريس Jaurès، ولم يشك أحد في أن ڤيللان، الشخص غير المتزن دون شك، إعتقد بوجوب قتل جوريس لأن هذا الأخير بدا، في عيون متطرفي اليمين الوطني الذي أثر بعمق في ڤيللان، شخص سيكون ضارا بالتأكيد بالنسبة للدفاع عن البلاد. لكن هؤلاء المتطرفين قللوا فقط من قيمة قوة الإجماع الوطني الهائلة داخل الحزب الإشتراكي، التي كان لا بد أن تدفعه فورا إلى "الإتحاد المقدس"؛ سواء إغتيل جوريس أو أتيحت له الفرصة على العكس للتمسك بقوة بموقفه الأممي الرافض للحرب.

واليوم، في وجود مثل هذا الحدث، فإن صحفيين - شرطيين، خبراء مشهورين في "أخبار المجتمع" وفي "الإرهاب"، سيقولون على الفور أن ڤيللان كان من المعروف جيدا أنه قد خطط مرات عديدة لمحاولات قتل، يتجه دافعها في كل مرة إلى رجال، كان يمكن أن يعبروا عن آراء سياسية شديدة التباين، لكنهم كانوا جميعا يتشابهون بالصدفة في بنيتهم الجسمانية أو في ملبسهم مع جوريس. سيشهد على ذلك أطباء نفسيون، وستشهد **وسائل الإعلام** media، بمجرد الإقرار بأنهم قالوا ذلك، وبنفس هذه الحقيقة، على كفاءتهم بوصفهم خبراء مخولين **على نحو لا يقارن**. كذلك سيمكن للتحقيق البوليسي الرسمي أن يؤكد منذ غداة الحادث أنه قد إكتشف للتو عددا من الأشخاص الشرفاء المستعدين للشهادة على حقيقة أن ڤيللان نفسه، عندما قدر ذات يوم أنهم لم يخدموه جيدا في مقهى "شوب دوكرواسان" Chope du Croissant، قد أفرط في التهديد، في وجودهم، بالإنتقام قريبا من صاحب المقهى بأن يصرع أمام الجميع، وفي موضعه، واحدا من أفضل زبائنه.

ولا يعني هذا القول بأن الحقيقة، في الماضي، كانت تفرض نفسها دائما وعلى الفور؛ فقد برأت العدالة الفرنسية ڤيللان في النهاية. ولم يقتل بالرصاص إلا في عام ١٩٣٦، حين إندلعت الثورة الإسبانية، لأنه إرتكب حماقة الإقامة في جزر البليار.

XXVI

في لحظة تحتفظ فيها الدولة بنصيب مهيمن في توجيه الإنتاج وحيث يعتمد الطلب على

كل السلع بشكل ضيق على عملية المركزة المتحققة فى توصيل المعلومات - الحفز الإستعراضى، التى يجب أن تتوافق معها كذلك أشكال التوزيع، فإن الشروط الجديدة لإدارة مربحة للأعمال الإقتصادية تتطلب بالضرورة أن تتأسس فى كل مكان شبكات نفوذ أو جمعيات سرية. ليس هذا إذن سوى ناتج طبيعى لحركة تركز رؤوس الأموال، والإنتاج، والتوزيع. وفى هذا الخصوص، فإن مالايتوسع، يجب أن يختفى؛ ولا يمكن لأى مشروع أن يتوسع إلا بقيم، وتقنيات، ووسائل، ما تمثله اليوم الصناعة، والإستعراض، والدولة. فى التحليل الأخير، فإن التطور الخاص الذى إختاره إقتصاد حقبتنا، هو الذى أخذ يفرض فى كل مكان **تشكُّل روابط شخصية جديدة للتبعية والحماية**.

فى هذه النقطة بالضبط تكمن الحقيقة العميقة لهذه الصيغة، المفهومة تماما فى إيطاليا بأسرها، والتى تستخدمها المافيا الصقلية: "حين يملك المرء النقود والأصدقاء، فإنه يهزأ بالعدالة". فى الإستعراض المتكامل، **تنام القوانين**؛ لأنها لم تُصنع لتقنيات الإنتاج الجديدة، ولأنها تصاغ فى التوزيع بواسطة إتفاقات من طراز جديد. وما يعتقده، أو يفضله، الجمهور، لم تعد له أهمية. هذا هو ما يحجبه إستعراض كل هذه الإستطلاعات للرأى، والإنتخابات، وعمليات إعادة الهيكلة التحديثية. فمهما كان الرابحون، سيأخذ الزبائن اللطفاء **أقل الأشياء جودة** : فهذا بالضبط ما سيكون قد أنتج من أجلهم.

لا يجري الحديث فى كل لحظة عن "دولة القانون" إلا منذ أن كفت الدولة الحديثة المسماة ديمقراطية عن أن تكون كذلك بوجه عام: فليس من قبيل المصادفة على الإطلاق أن هذا التعبير لم يلق شعبية إلا بعد عام ١٩٧٠ بقليل، وفى إيطاليا أولا على وجه التحديد. وفى مجالات عديدة، يجرى صنع قوانين على وجه الدقة **بهدف أن ينتهكها** أولئك الذين ستكون لديهم كل الوسائل لذلك. وعدم الشرعية فى ظروف معينة، مثلا فيما يتعلق بالتجارة الدولية فى كل أنواع الأسلحة، وأكثر من ذلك فيما يخص منتجات التكنولوجيا الأشد تطورا، ليست سوى نوع من قوة الدعم للعملية الإقتصادية؛ التى ستصبح بذلك أكثر ربحية. واليوم، فإن الكثير من الأعمال هى بالضرورة **عديمة الشرف مثل القرن**، وليس مثل تلك التى كان يمارسها ذات حين، عن طريق سلاسل محددة بوضوح، أناس إختاروا سبل **عدم الشرف**.

وبقدر ما تنمو شبكات الترويج - السيطرة لتحديد والإستيلاء على قطاعات قابلة للإستغلال من السوق، يتنامى كذلك عدد الخدمات الشخصية التى لا يمكن رفضها لأولئك العليمين ببواطن الأمور، والذين لم يرفضوا تقديم المساعدة من جانبهم؛ وهؤلاء ليسوا دائما رجال شرطة أو حارسين لمصالح أو لأمن الدولة. فالتواطؤات الوظيفية تصل إلى مدى بعيد، ولزمن طويل جدا، لأن شبكاتها لديها كل الوسائل لفرض مشاعر الإعتراف أو الولاء التى كانت دائما، للأسف، بالغة الندرة فى النشاط الحر للأزمنة البورجوازية.

دائما ما يتعلم المرء شيئا ما عن خصمه. ولا بد من الإعتقاد بأن أناس الدولة قد إضطروا، هم

أيضا، إلى قراءة ملاحظات لوكاتش الشاب عن مفهومي الشرعية واللاشرعية؛ في اللحظة التي كان عليهم فيها أن يتعاملوا مع الإنقضاء السريع الزوال لجيل جديد من السلبية. قال هوميروس أن «جيلا من البشر ينقضي بسرعة جيل من أوراق الشجر». ومنذ ذلك الحين، إستطاع أناس الدولة الكف مثلنا عن التضايق من أي نوع من الأيديولوچيا حول هذه المسألة؛ وصحيح أن ممارسات المجتمع الإستعراضي لم تعد تحبذ على الإطلاق الأوهام الأيديولوچية من هذا النوع. وبالنسبة لنا في نهاية الأمر، يمكن إستنتاج أن ما منعنا دائما من الإنغلاق في نشاط غير شرعي واحد، هو أنه كان لدينا العديد منها.

XXVII

يقول ثوسيديديس Thucydide، في الكتاب الثامن، الفصل ٦٦، من **حرب البيلوبونيز**، بصدد عمليات مؤامرة أوليجاركية أخرى، شيئا شديد الشبه بالوضع الذي نجد أنفسنا فيه:

«وأكثر من ذلك، كان من يخطبون ضمن المكيدة وكانت الخطب التي يلقونها تخضع مقدما لفحص أصدقائهم. ولم تظهر آية معارضة بين بقية المواطنين، الذين أفزعهم عدد المتآمرين. فحين كان شخص ما يحاول معارضتهم رغم كل شيء، سرعان ما كان يتم العثور على وسيلة مريحة لقتله. ولم يتم البحث عن القتلة ولم يجر أي تعقب لمن يشتبه فيهم. لم يقاوم الشعب وكان الناس من الرعب بحيث إعتبروا أنفسهم سعداء، حتى وهم صامتين، بالإفلات من أعمال العنف. وشعروا بالعجز التام، معتقدين أن المتآمرين أكثر عددا بكثير مما كانوا. كانت المدينة بالغة الضخامة ولم يكونوا يعرفون بعضهم بما يكفي، ليتمكنوا من إكتشاف ما كان يجري فعلا. وفي هذه الشروط، ومهما بلغ من سخط المرء، ما كان باستطاعته أن يُسرَّ بشكواه إلى أي شخص. وهكذا كان لا بد من التخلي عن الإنخراط في عمل ضد المذنبين، فقد كان لا بد لهذا الغرض من التوجه إما إلى شخص غير معروف، وإما إلى شخص معروف لايثق المرء به. وفي الحزب الديمقراطي، كانت العلاقات الشخصية في كل مكان موسومة بالحذر وكان المرء يتساءل على الدوام ما إذا لم يكن الشخص الذي يتعامل معه متواطئا مع المتآمرين. وكان يوجد بالفعل بين هؤلاء الأخيرين رجال ما كان المرء ليعتقد أبداً أنهم سينضمون إلى الأوليجاركية.»

إذا كان لابد للتاريخ أن يعود إلينا بعد هذا الخسوف، الأمر الذي يتوقف على عوامل مازالت في صراع ومن ثم ذات نتيجة لن يعرف أحد كيف يستبعدها على وجه اليقين، فسوف يمكن لهذه **التعليقات** أن تفيد ذات يوم في كتابة تاريخ الإستعراض؛ الذي هو دون شك أهم حدث يمكن أن يكون قد أنتجه هذا القرن؛ وكذلك أقل ما يجري التجاسر على تفسيره. في ظروف مختلفة، أظنني كنت سأعتبر نفسي راضيا تماما عن عملي الأول في هذا الموضوع، وأترك لآخرين مهمة النظر فيما سيتلو. لكن، في اللحظة التي نجد أنفسنا فيها، بدا لي أن أي شخص آخر لن يفعل ذلك.

XXVIII

من شبكات الترويج ـ السيطرة، ننزلق دون أن ندرى إلى شبكات المراقبة ـ تشويه المعلومات. ذات حين، لم يكن المرء يتآمر أبدا إلا ضد نظام قائم. واليوم فإن **التآمر لصالحه** هو مهنة جديدة تشهد تطورا ضخما. فى ظل السيطرة الإستعراضية، يتآمر المرء من أجل الحفاظ عليها، ولضمان ما يمكنها هي وحدها أن تسميه مسيرتها الجيدة. وهذا التآمر **يشكل جزءا** من أدائها ذاته.

لقد تم البدء فعلا فى تجهيز بعض وسائل نوع من الحرب الأهلية الوقائية، المكيَّفة مع مختلف إسقاطات المستقبل المحسوب. وهذه هى "منظمات نوعية"، مكلفة بالتدخل فى بعض النقاط وفق إحتياجات الإستعراض المتكامل. على هذا النحو تم، إستعدادا لأسوأ الإحتمالات، إستشراف تكتيك يطلق عليه من باب الدعابة "تكتيك الثقافات الثلاث"، تذكيرا باسم ميدان فى مدينة مكسيكو فى صيف عام ١٩٦٨، لكن دون توخي الحذر هذه المرة، وسوف يتوجب تطبيق هذا التكتيك قبل يوم التمرد. وخارج هذه الحالات الشديدة التطرف، ليس من الضرورى للإغتيال غير المفسَّر، كي يكون وسيلة جيدة للحكم، أن يمس عددا كبيرا من الناس أو أن يتكرر بشكل شديد التواتر: فمجرد حقيقة أن المرء يعرف بوجود إحتمال لحدوثه، تعقد على الفور الحسابات فى عدد كبير من المجالات. كذلك ما من ضرورة لأن يكون هذا الإغتيال إنتقائيا بذكاء، موجَّها إلى مشاعر المرء ad hominem. فربما كان إستخدام هذه الطريقة بشكل عشوائي خالص أكثر كفاءة.

كذلك نجد أنفسنا فى وضع يتم فيه تأليف شذرات من نقد إجتماعى **تدجينى**، لن يعود يعهد به إلى الجامعيين أو الإعلاميين، الذين من الأفضل بعد الآن إبقاؤهم بعيدين عن الأكاذيب البالغة التقليدية فى هذا السجال؛ لكنه نقد أفضل، يتم إطلاقه وإستغلاله بطريقة جديدة، يديرها نوع آخر من المحترفين، الأفضل إعدادا. تبدأ فى الظهور، على نحو سرى تماما، نصوص واضحة، مجهولة المؤلف أو تحمل توقيع أناس غير معروفين. وهو تكتيك سهّله تركيز معارف الجميع على مهرجى الإستعراض؛ مما جعل الناس غير المعروفين يبدون أنهم هم بالتحديد أكثر الناس جدارة ـ، لا تتناول فقط موضوعات لا تجرى معالجتها فى الإستعراض على الإطلاق، بل تتضمن كذلك حججا تصبح صحتها مذهلة بدرجة أكبر عن طريق نوع الأصالة، المحسوبة، التى تكتسبها هذه الحجج من حقيقة أنها فى النهاية **لم تُستخدم مطلقا، مهما كانت بالغة البديهية.** هذه الممارسة يمكن أن تفيد على الأقل بمثابة درجة أولى من الإعداد من أجل تجنيد عقول منتبهة بعض الشيء، ستقال لها فيما بعد، إذا بدا ذلك مناسبا لها، جرعة أكبر من البقية المحتملة. وما سيكون، بالنسبة للبعض، الخطوة الأولى فى مهنة، سيكون بالنسبة لآخرين ـ الأدنى تصنيفا ـ الدرجة الأولى من الفخ الذى سيتم إيقاعهم فيه.

وفى حالات معينة، بشأن مسائل قد تصبح ملتهبة، يتعلق الأمر بخلق رأى نقدى آخر زائف؛ وبين الرأيين اللذين سينبثقان على هذا النحو، وكلاهما غريب عن المواضعات الإستعراضية البائسة، يمكن للحكم الساذج أن يتأرجح إلى أجل غير منظور، ويعاد إطلاق النقاش من أجل الموازنة بينهما

كلما كان ذلك مناسبا. وفي الأغلب، يتعلق الأمر بخطاب عام حول ما يتم إخفاؤه إعلاميا. ويمكن أن يكون هذا الخطاب نقدا قويا، وواضح الذكاء حول بعض النقاط، لكنه يظل منزوع المركز على نحو غريب. فقد إختيرت الموضوعات والكلمات بشكل متكلف، بمعاونة أجهزة كمبيوتر مزودة بمعلومات عن الفكر النقدي. ثمة في هذه النصوص بعض أوجه الغياب، التي لا تظهر بوضوح، لكنها ملحوظة رغم ذلك: فنقطة إلتقاء خطوط المنظور غائبة عنها دائما بشكل غير سوي. إنها تشبه **نسخة طبق الأصل** من سلاح شهير، لا تنقصها سوى إبرة الزناد. إن هذا النقد هو بالضرورة **نقد عرضي**، يرى أشياء عديدة بكثير من الإستقامة والصحة، لكنه يضع نفسه جانبا. ولا يرجع ذلك إلى أنه سيظهر تحيزا من أي نوع، فلا بد له على العكس أن يبدو شديد اللوم، لكن لا يبدو أبداً أنه يشعر بالحاجة إلى إظهار ما هي **قضيته**: إلى أن يقول، ولو ضمنيا، من أين يأتي ونحو ماذا يود الذهاب.

ويمكن أن تضاف إلى هذا النوع من النقد الزائف المناهض - للصحافة، الممارسة المنظمة **للشائعة**، التي من المعروف أنها في الأصل نوع من الفدية الوحشية للمعلومات الإستعراضية، إذ يستشعر الجميع بشكل غامض على الأقل طابعا خادعا في تلك المعلومات الإستعراضية، ومن هنا القدر الضئيل من الثقة الذي تستحقه. كانت الشائعة في الأصل متطيرة، وساذجة، ومتسممة. لكن، مؤخرا، بدأت المراقبة في أن تجهّز بين السكان أناسا قادرين على أن يطلقوا، لدى أول إشارة، الشائعات التي يمكن أن تناسبها. هنا، تقرَّر أن تطبّق في الممارسة ملاحظات نظرية تمت صياغتها منذ حوالي ثلاثين عاما، ويكمن أصلها في سوسيولوجيا الإعلان الأمريكية: هي نظرية الأفراد الذين أطلق عليهم اسم "القاطرات"، أي أولئك الذين سيُدفع آخرون في محيطهم إلى أن يتبعوهم ويحاكوهم؛ لكن مع الإنتقال هذه المرة من العفوية إلى التدريب. وقد تم كذلك في الوقت الحاضر تحرير إعتمادات الميزانية، أو خارج - الميزانية، اللازمة لتدريب الكثير من العاملين الإضافيين، إلى جانب السابقين في الماضي القريب من المتخصصين، الجامعيين والإعلاميين، السوسيولوجيين أو رجال الشرطة. إن الإعتقاد بأنه ما زال يجري تطبيق ميكانيكي لبعض النماذج المعروفة في الماضي، هو أمر مضلّل مثل الجهل العام بالماضي. إذ أن "روما لم تعد في روما"، والمافيا لم تعد هي طبقة المجرمين. كذلك فإن أجهزة المراقبة وتشويه المعلومات قليلة الشبه بعمل رجال الشرطة والمرشدين قديما - قليلة الشبه بالدركيين والجواسيس في الإمبراطورية الثانية - مثلما أن أجهزة الإستخبارات الراهنة، في كل البلدان، قليلة الشبه بنشاطات ضباط المكتب الثاني لهيئة أركان حرب الجيش عام ١٩١٤.

منذ أن مات الفن، من المعروف أنه قد أصبح من السهولة بمكان أن يتنكر رجال الشرطة في زي فنانين. وحين يتم الترخيص لآخر محاكيات للدادائية - جديدة مقلوبة بأن تتبجح على نحو مجيد في الإعلام، وكذلك بأن تعدّل قليلا ديكور القصور الرسمية، مثل مهرجي الملوك الرخيصين، يرى المرء أنه قد تم، بحركة واحدة، ضمان غطاء ثقافي لكل العملاء، أو العاملين الإضافيين في شبكات نفوذ الدولة. يتم فتح متاحف - زائفة خاوية، أو مراكز أبحاث - زائفة حول العمل الكامل لشخصية غير موجودة، بنفس السرعة التي يتم بها بناء شهرة الصحفيين - الشرطيين، أو المؤرخين - الشرطيين، أو

الروائيين ـ الشرطيين. ولا شك أن آرتور كرافان Arthur Cravan قد رأى مقدم هذا العالم حين كتب في **منتينان** Maintenant يقول: «في الشارع سرعان ما لن يرى المرء سوى فنانين، وسيتجشم كل عناء «العالم ليكتشف إنسانا.» ذلك بالتأكيد هو معنى هذه الصيغة المجددة لدعابة قديمة لدهماء باريس: «تحية، يافنانون! وا أسفاه لو كنت مخطئا» "Salut, les .artistes! Tant pis si je me trompe."

بوصول الأمور إلى ما أصبحت عليه، يمكن رؤية بعض المؤلفين الجماعيين الذين تستخدمهم صناعة النشر الأشد حداثة، أي تلك التي تنال أفضل إنتشار تجاري. ولا تؤكد أصالة أسمائهم المستعارة إلا الصحف، وهم يراجعون عمل بعضهم، ويتعاونون، ويحلون محل بعضهم، ويستخدمون عقولا صناعية جديدة. وهم مكلفون بالتعبير عن أسلوب حياة وتفكير الحقبة، ليس بفضل شخصيتهم، بل بناء على أوامر. وأولئك الذين يعتقدون أنهم حقا مقاولون أدبيون فرديون، مستقلون، يمكنهم أن يصلوا إلى حد التأكيد عن علم بأن، دوكاس *Ducasse، الآن غاضب من الكونت دي لوتريامون* Comte de Lautréamont؛ أن دوما* Dumas ليس ماكيه* Macquet، وأنه لا يجب بالدرجة الأولى الخلط بين إركمان* Erckmann وشاتريان* Chatrian؛ أن سنسييه*-Censi-er، ودوبنتون* Daubenton لم يعودا يتبادلان الحديث. سيكون من الأفضل القول أن هذا النوع من المؤلفين الحديثين أرادوا إقتفاء أثر ريمبو Rimbaud، على الأقل فيما يتعلق بأن "أنا آخر".

دعا كل تاريخ المجتمع الإستعراضي الأجهزة السرية إلى لعب دور نقطة البؤرة المركزية له؛ ففيها تتركز بأقوى درجة خصائص ووسائل تنفيذ مجتمع مشابه. كذلك فإنها مكلفة دائما بالتحكيم بين المصالح العامة لهذا المجتمع، ولو تحت الاسم المتواضع "أجهزة". ليس الأمر أمر إساءة استخدام، لأنها تعبر بإخلاص عن الأخلاق المألوفة لقرن الإستعراض. ومن هنا فإن المراقبين والمراقبين ينسربون فوق محيط بلا شطآن. لقد جعل الإستعراض السر ينتصر، ولا بد له أن يبقى دائما في أيدي **متخصصي السر** الذين، كما هو مفهوم، ليسوا جميعهم موظفين وصلوا إلى حد الاستقلال الذاتي، بدرجات مختلفة، عن سيطرة الدولة؛ فليسوا جميعهم موظفين.

XXIX

أحد القوانين العامة لأداء الاستعراض المتكامل، بالنسبة لمن يديرونه على أية حال، هو أنه، في هذا الإطار، **يجب عمل كل ما يمكن للمرء عمله**. ويعني هذا أنه يجب إستخدام كل أداة جديدة، مهما كلف ذلك. فالأدوات الجديدة تصبح هدف ومحرك النسق في كل مكان، وهي وحدها التي ستستطيع تعديل مسيرته بشكل ملحوظ، في كل مرة يتم فيها فرض إستخدامها دون أي تدبر. وبالفعل، يريد مانكو المجتمع الحفاظ قبل كل شئ على «علاقة إجتماعية بين أشخاص»، لكن يجب عليهم

أيضاً متابعة التجديد التكنولوجي الذي لا يتوقف ؛ لأن ذلك أحد الإلتزامات التي قبلوها مع ميراثهم . هذا القانون ينطبق كذلك إذن على الخدمات التي تحمي السيطرة . فالأداة التي إكتمل إعدادها يجب إستخدامها ، وسوف يدعم استخدامها نفس الشروط التي حبذت هذا الاستخدام . وهكذا تتحول التصرفات الطارئة إلى إجراءات دائمة .

على نحو معين ، أقر تلاحم مجتمع الإستعراض بصواب الثوريين ، فقد أصبح واضحاً أن المرء لا يمكنه إصلاح أتفه التفاصيل دون هدم المجموع . لكن ، في نفس الوقت ، قمع هذا التلاحم كل ميل ثوري منظم بقمعه للمجالات الإجتماعية التي كان هذا الميل قد إستطاع التعبير عن نفسه فيها بدرجة أو بأخرى : من النقابية إلى الصحف ، من المدينة إلى الكتب . في حركة واحدة ، أمكن تسليط الضوء على عدم الكفاءة وعدم التدبر اللذين كان هذا الميل الثوري يحملهما بشكل طبيعي تماماً . وعلى المستوى الفردي، فإن التلاحم السائد قادر تماماً على تصفية ، أو شراء ، بعض الاستثناءات المحتملة .

XXX

كان يمكن أن تكون المراقبة أشد خطورة لو لم تُدفع، على طريق السيطرة المطلقة على الجميع، إلى نقطة تصادف عندها صعوبات ترجع إلى جوانب تقدمها ذاتها. فهناك تناقض بين كتلة المعلومات المجموعة حول عدد متزايد من الأفراد، وبين الوقت والذكاء المتاحين لتحليلها؛ أو أهميتها المحتملة بكل بساطة. إن وفرة المادة تجبر على إختصارها عند كل مرحلة: يختفي جزء كبير منها. أما الباقي فيظل أطول من أن يُقرأ. وسلوك المراقبة والتلاعب ليس موحَّدا. إذ يدور الصراع في كل مكان بالفعل من أجل تقاسم المنافع؛ وكذلك من أجل التطوير التفضيلي لهذه الإمكانية أو تلك للمجتمع القائم، على حساب كل إمكانياته الأخرى التي تعد مع ذلك جديرة بالإحترام على قدم المساواة، شريطة أن تكون من نفس العجينة.

كذلك يُدار الصراع بواسطة اللعب. فكل ضابط مسئول مضطر للمبالغة في تقدير قيمة عملائه، وكذلك خصومه الذين ينشغل بهم. وكل بلد، بصرف النظر عن التحالفات العديدة فوق ـ القومية، يملك في الوقت الحاضر عددا غير محدد من أجهزة الشرطة أو مكافحة التجسس، ومن أجهزة المخابرات، التابعة للدولة أو شبه ـ التابعة للدولة. كما أن هناك الكثير من الشركات الخاصة التي تقوم بالمراقبة، والحماية، وجمع المعلومات. ولدى كبرى الشركات المتعددة ـ القوميات أجهزتها الخاصة بالطبع؛ لكن هذه الأجهزة تملكها كذلك شركات مؤممة، ذات حجم متواضع، لا يمنعها ذلك من إنتهاج سياستها المستقلة، على المستوى القومي، والدولي أحيانا. ومن الممكن رؤية مجموعة صناعية نووية تعارض مجموعة بترولية، حتى ولو كانت هذه وتلك مملوكتين لنفس الدولة، والأكثر من ذلك، حتى لو كانتا مُتَّحدتين جدليا الواحدة مع الأخرى بإرتباطهما بالحفاظ

على إرتفاع سعر البترول فى السوق الدولية. وكل جهاز أمن فى صناعة محددة يحارب التخريب لديه، وينظمه لدى الخصم عند الحاجة: فمن يضع مصالح ضخمة فى نفق تحت البحر يحبذ عدم الأمان فى العبّارات ويمكن أن يستأجر صحفا فى أزمة لجعلها تشيع ذلك عند أول مناسبة، دون تفكير كثير؛ ومن ينافس شركة ساندوز Sandoz لا يبالى بالمياه الجوفية فى وادى الراين. تجرى سرا مراقبة ما هو سرى. بحيث أن كل واحدة من هذه المنظمات، المتحدة بكثير من المرونة حول من يتولون **مصلحة الدولة** raison d'État، تطمح لحسابها إلى نوع من الهيمنة الخالية من المعنى. فالمعنى قد ضاع مع المركز القابل للمعرفة.

إن المجتمع الحديث الذى كان يمضى، حتى عام ١٩٦٨، من نجاح إلى نجاح، وكان يتصور أنه محبوب، كان عليه منذ ذلك الحين أن يتخلى عن هذه الأحلام؛ وهو يفضل أن يكون مرهوبا. إنه يعرف جيدا أن "مظهره البرئ لن يعود إليه أبدا".

هكذا تتشابك ألف مؤامرة لصالح النظام القائم وتتقاتل بعض الشىء فى كل مكان، مع التراكب المتزايد دوما لشبكات ومسائل أو أفعالٍ سرية؛ ومع عملية تكاملها السريع فى كل فروع الإقتصاد، والسياسة، والثقافة. وتتزايد باستمرار فى كل مساحات الحياة الإجتماعية نسبة الخليط من الملاحظين، ومشوِّهى المعلومات، والشئون الخاصة. وقد بلغ من كثافة المؤامرة الشاملة أن أصبحت واضحة فى أعين الجميع تقريبا، بحيث يمكن لكل فرع من فروعها أن يبدأ فى إعاقة أو إزعاج الفرع الآخر. فكل هؤلاء المتآمرين المحترفين يصلون إلى حد مراقبة بعضهم البعض دون أن يعرفوا بالضبط لماذا، أو يتقابلون صدفة، دون أن يستطيعوا التعرف على بعضهم بشكل مؤكد. من يريد مراقبة من؟ ولحساب من، فيما يبدو؟ وفى الحقيقة؟. تظل المؤثرات الحقيقية خفية، ولا يمكن للنوايا النهائية إلا أن تكون موضعا للتخمين البالغ الصعوبة، وغير مفهومة على الإطلاق تقريبا. بحيث لا يمكن لأحد أن يقول أنه غير مخدوع أو متلاعب به، لكن المتلاعب لا يستطيع هو نفسه أن يعرف أنه رابح إلا فى لحظات نادرة فقط. وفضلاً عن ذلك، فإن إكتشاف المرء أنه على الجانب الرابح من التلاعب لا يعنى القول بأنه قد اختار المنظور الإستراتيجى بشكل صائب. وهكذا أيضا يمكن للنجاحات التكتيكية أن تورط قوى ضخمة فى طرق خاطئة.

ضمن شبكة واحدة، يضطر من يشكلون جزءاً واحداً من الشبكة، ويستهدفون فى الظاهر غاية واحدة، إلى تجاهل كل إفتراضات واستنتاجات الأجزاء الأخرى، وخصوصاً نواتهم القيادية. أما الحقيقة الشديدة الذيوع والمتمثلة فى أن كل المعلومات حول أى موضوع ملاحظ مهما كان يمكن أن تكون هى أيضا خيالية تماما، أو مزيفة بشكل خطير، أو مفسرة على نحو غير دقيق تماما، فإنها تعقد حسابات المحققين وتجعلها غير مؤكدة، إلى درجة كبيرة؛ إذ أن ما هو كاف لإدانة شخص ما ليس مؤكدا إلى هذا الحد حين يتعلق الأمر بمعرفته أو باستخدامه. لما كانت مصادر المعلومات متنافسة، فإن التزييفات أيضا كذلك.

وبدءا من تلك الشروط لممارسة السيطرة يمكن للمرء الحديث عن ميل السيطرة للخضوع لقانون العائد المتناقص، بقدر ما تقترب من مجمل الفضاء الإجتماعي، وبقدر ما تزيد بالتالي من أفرادها ووسائلها. فهنا تطمح كل وسيلة إلى، وتعمل على، أن تصبح غاية. المراقبة تراقب نفسها وتتآمر ضد نفسها.

وأخيرا فإن تناقضها الأساسي الراهن، هو أنها تراقب، وتخترق، وتؤثر في، **طرف غائب**: ذلك الذي يُفترض أنه يرغب في تخريب النظام الإجتماعي. لكن أين يراه المرء يعمل؟ فالمؤكد أن الشروط لم تكن أبدا من قبل ثورية إلى هذه الدرجة الخطرة في كل مكان، لكن ليس سوى الحكومات من يظن ذلك. فقد تم حرمان النفي من فكره بشكل كامل، حتى أنه أصبح مبعثرا منذ زمن طويل. وبناء على هذه الحقيقة، لم يعد النفي سوى تهديد غامض، لكنه مع ذلك مقلق جدا، وقد حُرمت المراقبة بدورها من أفضل مجال لنشاطها. وقوة المراقبة والتدخل هذه تقودها على وجه الدقة الضرورات الحالية التي تحكم شروط اشتباكها، وتدفعها إلى الإنتقال إلى نفس أرض التهديد كي تحاربه **مقدما**. وهذا هو السبب في أن المراقبة سيكون من مصلحتها أن تنظم هي نفسها أقطابا للنفي ستزودها هي بالمعلومات خارج وسائل الإستعراض التي فقدت سمعتها، بغرض التأثير، ليس على الإرهابيين هذه المرة، بل على النظريات.

XXXI

يقول بالتازار جراسيان Baltasar Gracian، العارف الكبير بالزمن التاريخي، بشكل مناسب تماما، في **رجل البلاط**: «سواء أكان الفعل، أو الخطاب، يجب أن يكون كل شيء مُقاسا على الزمن. يجب أن يريد المرء حين يستطيع؛ فلا الأوان، ولا الزمن ينتظران أحدا.»

أما عمر الخيام الأقل تفاؤلا فيقول:

غدونا لذي الأفلاك ألعاب لاعب أقول مقالا لست فيه بكاذب

على نطع هذا الكون قد لعبت بنا وعدنا لصندوق الفنا بالتعاقب

XXXII

أحدثت الثورة الفرنسية تغييرات ضخمة في فن الحرب. وبعد هذه الخبرة إستطاع كلاوزفيتس إقامة التمييز الذي طبقا له يكون التكتيك هو إستخدام القوات في المعركة، لإحراز النصر، بينما

تكون الإستراتيجية هي إستخدام الإنتصارات بهدف تحقيق أهداف الحرب. وسيطرت النتائج على أوربا، على الفور ولفترة طويلة. لكن النظرية لم توضع إلا فيما بعد، وتطورت بشكل غير متكافئ. إذ تم أولا فهم الخصائص الإيجابية التي جلبها مباشرة تغيير إجتماعي عميق: الحماس، والحركية التي سادت البلاد ومنحت إستقلالا نسبيا لتضاعف الأفراد، إزاء المستودعات والقوافل العسكرية. وقد عادل هذه العناصر الإيجابية ذات يوم دخول عناصر مماثلة إلى العمل، على جانب الخصم: فواجهت الجيوش الفرنسية في إسبانيا حماسا شعبيا آخر؛ وفي الفضاء الروسي واجهت بلدا لا يمكنها العيش فيه؛ وواجهت بعد الإنتفاضة في ألمانيا أفرادا يفوقونها عددا بكثير. ومع ذلك، فإن تأثير القطيعة، في التكتيك الفرنسي الجديد، والذي كان القاعدة البسيطة التي أقام عليها بونبرت إستراتيجيته - التي كانت تتلخص في إستخدام الإنتصارات **مقدما**، كأنها مكتسبة على سبيل الإقتراض: في تصور المناورة وتنويعاتها المختلفة منذ البداية على أنها نتائج إنتصار لم يتم إحرازه لكنه سيتم بالتأكيد لدى أول إصطدام - قد نتج كذلك عن التخلي القسري عن الأفكار الزائفة. فقد إضطر هذا التكتيك فجأة إلى التخلص من هذه الأفكار الزائفة، في ذات الوقت الذي وجد فيه، بالتفاعل المصاحب لتجديدات أخرى مذكورة، وسائل مثل هذا التخلص. فالجنود الفرنسيون، الحديثو التجنيد، كانوا غير قادرين على القتال في صف، أي على البقاء في صفوفهم وإطلاق النار عند صدور الأوامر. إنهم يأخذون إذن في الإنتشار في طلائع متقدمة ويطلقون النار حسب رغبتهم بينما يهجمون على العدو. وقد وجد أن إطلاق النار حسب رغبتهم هو بالضبط الوحيد الفعال، الذي ينتج فعلا التدمير بالأسلحة النارية، الأكثر حسما في مواجهات الجيوش في تلك الحقبة. هذا بينما ظل الفكر العسكري رافضا في مجموعه لمثل تلك النتيجة خلال القرن المنصرم، وتحتم إمتداد مناقشة هذه المسألة خلال قرابة قرن آخر، برغم الأمثلة الدائمة لممارسة المعارك، وأوجه التقدم التي لا تتوقف في مرمى وسرعة إطلاق السلاح الناري.

وعلى نحو مشابه، فإن إقامة السيطرة الإستعراضية هي تحول إجتماعي من العمق بحيث أنه قد غير جذريا فن الحكم. هذا التبسيط، الذي أثمر بهذه السرعة تلك الثمار في الممارسة، لم يتم بعد فهمه تماما من الناحية النظرية. فثمة أحكام مسبقة عتيقة تم نفيها في كل مكان، وإحتياطات صارت بلا جدوى، بل وآثار من موانع تنتمي إلى أزمان أخرى، ما زالت تعوق تفكير عدد كبير من الحكام، عن هذا الفهم، الذي توسسه وتؤكده كل الممارسة كل يوم. لا يجري فقط إقناع الخاضعين بأنهم ما زالوا من الناحية الأساسية، في عالم قد إختفى، بل إن الحكام أنفسهم يعانون أحيانا من عدم إتساق إعتقادهم بأنهم ما زالوا فيه من بعض النواحي. ويعن لهم أن يظنوا أنهم في موضع قد ألغوه، كأنه قد صار واقعا، ويجب أن يظل حاضرا في حساباتهم. هذا التأخر لن يمتد طويلا. فمن أمكنه عمل كل هذا دون جهد سيمضي إلى أبعد منه بالضرورة. ولا يجب الإعتقاد بأن بالإمكان الإبقاء بشكل طويل الأمد، مثل شيء بائد، في أوساط السلطة الفعلية، على أولئك الذين لم يفهموا بسرعة كافية كل مرونة القواعد الجديدة للعبتهم، ونوع عظمتها الهمجية. فمصير الإستعراض ليس من المؤكد أن ينتهي إلى إستبداد مستنير.

يجب إستنتاج أن ثمة إبدالا وشيكا وحتميا في الفئة المصطفاة التي تدير السيطرة، وتدير بالأخص حماية هذه السيطرة. وفي هذا الصدد، لن يُعرض التجديد، بالتأكيد، على منصة الإستعراض أبدا. فهو يبدو فقط كالصاعقة، التي لا يتعرف عليها أحد إلاّ بضرباتها. هذا الإبدال، الذي سينجز بشكل حاسم عمل الأزمنة الإستعراضية، يتم بتكتم، وبتآمرية، رغم أنه يتعلق بالقوم الموضوعين جميعهم فعلا داخل نفس دائرة السلطة. وسوف ينتقي هذا الإبدال أولئك الذين سيسهمون بدور في هذا المطلب الأساسي: أن يعرفوا بوضوح من أية عقبات تم تخليصهم، وماذا هم قادرون عليه.

XXXIII

يقول ساردو Sardou نفسه أيضا: «**بلا طائل** Vainement منسوبة إلى الذات؛ **وعبثا** en vain منسوبة إلى الموضوع؛ **وبلا جدوى** inutilement، تعني أنه لا جدوى منه لأحد. عمل المرء **بلا طائل** عندما يكون قد فعل دون نجاح، بحيث أنه قد أضاع وقته وجهده: وعمل المرء **عبثا** عندما يكون قد فعل دون أن يبلغ الهدف الذي طرحه على نفسه، بسبب عيب في العمل المنجز. وإذا لم أستطع الوصول إلى الهدف من القيام بمهمتي، فإنني أعمل **بلا طائل**؛ أضيع بلا جدوى وقتي وجهدي. وإذا كانت مهمتي المنجزة ليس لها التأثير الذي كنت أتوقعه منها، إذا لم أبلغ هدفي، فقد عملت **عبثا**؛ أي أنني فعلت شيئا غير مجد...

يقال أيضا أن شخصا قد عمل **بلا طائل**، عندما لا يكافأ على عمله، أو عندما يكون هذا العمل غير مقبول؛ ففي هذه الحالة يكون العامل قد أضاع وقته وجهده، دون أي مساس بقيمة عمله، الذي يمكن فيما عدا ذلك أن يكون جيدا جدا.»

(باريس، فبراير - أبريل ١٩٨٨.)

تصدير

للطبعة الإيطالية الرابعة من

"مجتمع الاستعراض"

نشر هذا التصدير عام ١٩٧٩

Les Éditions Vallecchi,

Firenze & Champ Libre, Paris

ظهرت بالفعل ترجمات لهذا الكتاب، المنشور في باريس نحو نهاية عام ١٩٦٧، في دستة من البلدان؛ وفي الأغلب تم إنتاج عدة ترجمات إلى نفس اللغة، بواسطة ناشرين متنافسين؛ وهذه الترجمات سيئة على الدوام تقريبا. فقد كانت الترجمات الأولى في كل مكان غير أمينة وغير دقيقة، باستثناء البرتغال، وربما، الدنمارك. أما الترجمات المنشورة باللغة الهولندية واللغة الألمانية فهي جيدة منذ المحاولة الثانية، مع أن الناشر الألماني في هذه المرة قد أغفل التصحيح الطباعي لعدد ضخم من الأخطاء. وفي الإنجليزية والإسبانية، يجب إنتظار الترجمات الثالثة لمعرفة ماذا كتبت. على أن المرء لم ير أسوأ مما في إيطاليا حيث، منذ عام ١٩٦٨، أخرج الناشر دي دوناتو De Donato أفظع الترجمات جميعا؛ تلك التي لم تحسّنها إلا جزئيا الترجمتان المنافستان اللتان تلتاها وفضلاً عن ذلك . وفي تلك اللحظة، فإن پاولو سالفاتوري Paolo Salvatori، حين ذهب يبحث عن المسئولين عن هذا التجاوز في مكاتبهم، ضربهم، وبصق حتى في وجوههم، حرفيا: فتلك بالطبع هي طريقة تعامل المترجمين الجيدين، حين يصادفون مترجمين سيئين . وغني عن القول أن الترجمة الإيطالية الرابعة، التي قام بها سالفاتوري، ممتازة في النهاية.

هذا القصور البالغ في كل تلك الترجمات التي لم تُعرض عليّ، باستثناء الأربع أو الخمس الأفضل، لا يعني أن هذا الكتاب أصعب في الفهم من أي كتاب آخر إستحق أن يُكتب على الإطلاق. كذلك ليست هذه المعاملة مقصورة بوجه خاص على الأعمال التخريبية، لأن المزيِّفين في هذه الحالة لن يخشوا على الأقل أن يقدمهم المؤلف إلى المحاكمة؛ أو لأن الحماقة المضافة إلى النص ستحبذ بعض الشيء نزوات الشجب لدى الإيديولوچيين البورچوازيين أو البيروقراطيين. فلا يغيب عن المرء أن يقرر أن الغالبية العظمى من الترجمات المنشورة خلال السنوات الماضية، في أي بلد كان، حتى حين تتناول الكلاسيكيات، منسقة بنفس الطريقة. إذ يميل العمل الذهني المأجور عادة إلى إتباع قانون الإنتاج الصناعي للإنحطاط، حيث يعتمد ربح المقاول على سرعة التنفيذ وعلى النوعية السيئة للمواد المستخدمة. هذا الإنتاج المتحرر بوحشية من كل مظهر لمراعاة ذوق الجمهور، منذ أن أصبح، بتركزه المالي ومن ثم بمعداته التكنولوچية الأفضل على الدوام، يستحوذ إحتكاريا، في كل فضاء السوق، على الحضور غير - الجيد للعرض، إستطاع أن يضارب بجسارة متزايدة على الخضوع القسري للطلب، وعلى فقدان الذوق الذي يمثل لحظيا النتيجة لدى كتلة عملائه. وسواء تعلق الأمر بمسكن، أو بقطعة لحم ثور تسمين، أو بثمرة العقل الجاهل لمترجم، فإن الإعتبار الذي يفرض نفسه سياديا، هو أن المرء

يمكنه من الآن الحصول بسرعة بالغة وبتكلفة أقل على ما كان يتطلب من قبل وقتا طويلا من العمل المؤهَّل. وصحيح تماما، فيما عدا ذلك، أن المترجمين ليست لديهم أسباب كثيرة لبذل الجهد لإستخلاص معنى كتاب، وقبل ذلك لتعلم اللغة المعنية في المقام الأول، إذ أن كل المؤلفين الحاليين تقريبا قد كتبوا هم أنفسهم بعجلة بالغة الوضوح كتبا سوف تنقضي موضتها في زمن بالغ القصر. لماذا يترجمون جيدا ما كانت كتابته غير مجدية بالفعل، ولن يُقرأ؟ إن النسق الإستعراضي مكتمل من هذا الجانب لهارمونيته الخاصة؛ لكنه ينهار من جوانب أخرى.

غير أن هذه الممارسة الشائعة لأغلبية الناشرين لا تستقيم في حالة **مجتمع الإستعراض**، الذي يهم جمهورا مختلفا تماما، لاستخدام مختلف. توجد، على نحو أبرز وضوحا من قبل بكثير، أنواع مختلفة من الكتب. الكثير منها لا يُفتح أصلا؛ بينما يتم نسخ القليل منها على الجدران. وهذه الكتب الأخيرة تستمد على وجه الدقة شعبيتها، وقوة إقناعها، من حقيقة أن لجاجات الإستعراض المحتقرة لا تتحدث عنها، أو لا تقول عنها سوى بعض التعليقات البائسة بشكل عابر. والأفراد الذين سيكون عليهم أن يخاطروا بحياتهم إنطلاقا من وصف معين للقوى التاريخية ولاستخدامها لديهم الرغبة، بالتأكيد، في أن يفحصوا بأنفسهم الوثائق الخاصة بترجمات صارمة الدقة. ولا شك، في الشروط الراهنة لإنتاج فائق التعدد وتعميم فائق التركزللكتب، أن العناوين، في جملتها تقريبا، لا تشهد النجاح، أو عدم النجاح في الأغلب، إلا خلال بضعة أسابيع تعقب ظهورها. وكل ما يلقيه إلينا النشر الراهن يُرسي فوق ذلك سياسة التعسف المتوقع والأمر الواقع، التي تناسب كثيرا الكتب التي لن يتحدث عنها أحد سوى مرة واحدة، ولا يهم كيف. هذا الإمتياز غير موجود هنا، ومن العبث تماما ترجمة كتابي بالطريقة المتعجلة، لأن آخرين سيشرعون دائما في هذه المهمة من جديد؛ ولأن الترجمات السيئة ستحل محلها دون توقف ترجمات أفضل.

حرر صحفي فرنسي، مؤخرا، مجلدا سميكا، أعلن أنه صالح لتجديد كل سجال الأفكار، وبعد عدة أشهر فسر الصحفي إخفاقه بحقيقة أنه يفتقر إلى القراء، بدلاً من إفتقاره إلى الأفكار. وقد أعلن أننا في مجتمع لا يقرأ فيه أحد؛ وأن ماركس إذا نشر **رأس المال** الآن، فسوف يمضي ذات مساء لشرح مقاصده في برنامج أدبي في التلفزيون، وفي الغداة لن يعود أحد يتحدث عنه. هذا الخطأ السارّ ينم جيداً عن وسطه الأصلي. فالبديهي أنه لو نشر أحد في أيامنا كتابا حقيقيا في النقد الإجتماعي، فسوف يمتنع بالتأكيد عن القدوم للتليفزيون، أو إلى الندوات الأخرى من نفس النوع؛ بحيث سيظل الحديث عنه دائرا، بعدها بعشر سنوات أو عشرين سنة.

وللحقيقة، فإنني أعتقد أنه لا يوجد في العالم شخص قادر على الاهتمام بكتابي، خارج من هم أعداء للنظام الإجتماعي القائم، والذين ينشطون فعليا إنطلاقا من هذا الموقف. ويقيني بهذا الصدد، المؤسس جيدا على النظرية، تؤكده الملاحظة الإمبريقية للإنتقادات أو الإشارات النادرة والبائسة التي أثارها بين أولئك الذين يستحوذون على، أو ما زالوا يجهدون أنفسهم للحصول على، سلطة الكلام علنا

في الإستعراض، أمام آخرين يصمتون.إن هؤلاء الخبراء المتنوعين فيما يبدو أنه نقاشات مازالت تسمى، بشكل متعسف، ثقافية أو سياسية، قد رتبوا بالضرورة منطقهم وثقافتهم وفق خطوط النسق الذي يستطيع إستخدامهم؛ ليس فقط لأنه هو الذي إختارهم، بل بالدرجة الأولى لأنهم لم يتعلموا أبدا شيئا آخر. ومن بين كل من ذكروا هذا الكتاب لكي يقروا له بأهمية، لم أر حتى الآن واحدا فقط يخاطر بأن يقول، ولو بإيجاز، ما هو موضوعه: وفي الحقيقة، فإن الأمر بالنسبة لهم لم يكن سوى إعطاء الإنطباع بأنهم لا يجهلونه. وفي نفس الوقت، فإن كل من وجدوا به عيبا يبدو أنهم لم يجدوا فيه عيبا آخر، لأنهم لم يذكروا شيئا آخر.لكن في كل مرة كان العيب المحدد يبدو كافيا لإرضاء مكتشفه. فقد رأى أحدهم أن هذا الكتاب لا يتناول مشكلة الدولة؛ ورأى آخر أنه لا يحسب أي حساب لوجود التاريخ؛ ورفضه آخر بإعتباره تقريظا لا عقلانيا وغير قابل للتوصيل للتدمير الخالص؛ وأدانه آخر بوصفه الدليل السري لسلوك كل الحكومات التي تأسست منذ صدوره. وتوصل خمسون آخرون على الفور إلى عدد مماثل من النتائج الفريدة، بنفس السبات العقلي. وسواء كتبوا ذلك في صحف، وفي كتب، أو في كراسات مؤلفة لهذا الغرض ad hoc، فقد إستخدموا جميعا نفس نغمة العجز المتقلب، نظرا لعدم وجود ما هو أفضل. وبالمقابل، وحسب معرفتي، فإن هذا الكتاب قد وجد في مصانع إيطاليا، في الوقت الحالي، أفضل قرائه. إن عمال إيطاليا، الذين يمكن أن يُضرب بهم المثل اليوم لرفاقهم في كل البلاد في تغيبهم عن العمل، وإضراباتهم الوحشية التي لا يخفف منها أي تنازل مخدد، ورفضهم الواضح للعمل، واحتقارهم للقانون ولكل الأحزاب المناصرة للدولة، يعرفون الموضوع جيدا بالممارسة لأنهم إستخلصوا فائدة من أطروحات **مجتمع الإستعراض**، حتى ولو لم يقرأوا سوى ترجمات مبتذلة.

وفي الأغلب، تظاهر المعلقون بأنهم لم يفهموا لأية فائدة يمكن توجيه كتاب يتعذر تصنيفه ضمن أية فئة من المنتجات الفكرية التي يقبل المجتمع الذي ما زال مسيطرا بأخذها في الإعتبار، وليس مكتوبا من وجهة نظر أي من المهن المتخصصة التي يشجعها هذا المجتمع. ومن ثم بدت مقاصد المؤلف مبهمة. مع أنه ليس في الأمر أي شيء غامض. فقد لاحظ كلاوزفيتس، **في حملة عام ١٨١٥ في فرنسا**، أن: «الأمر الجوهري، في كل نقد إستراتيجي، هو أن يتمثل المرء بالضبط وجهة نظر المؤدين،؛ ومن الصحيح أن ذلك بالغ الصعوبة دائما. فالغالبية العظمى من الإنتقادات الاستراتيجية سوف تختفي تماما، أو ستختزل إلى تمييزات طفيفة جدا في الفهم، إذا أراد الكُتّاب أو إستطاعوا أن يضعوا أنفسهم بالفكر في كل الظروف التي وجد المؤدون أنفسهم فيها.»

في عام ١٩٦٧، أردت أن يكون للأممية المواقفية كتاب في النظرية. في تلك اللحظة كانت الأممية المواقفية هي الجماعة المتطرفة التي قامت بالقدر الأكبر لإعادة الرد الثوري إلى المجتمع الحديث؛ وكان من السهل رؤية أن هذه الجماعة، بعد أن فرضت بالفعل إنتصارها في مجال النقد النظري، وتابعته ببراعة في مجال التحريض العملي، كانت تقترب من نقطة ذروة عملها التاريخي. كان الأمر يتعلق إذن بأن يكون مثل هذا الكتاب حاضرا في الإضطرابات التي سرعان ما ستأتي، والتي ستنقله بعدها، إلى التتابع التخريبي الواسع الذي ما كانت لتخفق في إستهلاله.

من المعروف ميل البشر القوي إلى التكرار غير المجدي لشذرات مبسطة من نظريات ثورية قديمة، تحجب تهلهلها الحقيقة البسيطة المتمثلة في أنهم لا يحاولون تطبيقها على صراع فعلي معين لتغيير الشروط التي يجدون أنفسهم فيها حقا؛ بحيث أنهم لا يكادون يفهمون على نحو أفضل كيف إستطاعت هذه النظريات، بحظوظ مختلفة من النجاح، أن تنخرط في نزاعات عصور أخرى. ورغم ذلك، فليس ثمة شك، لدى من يفحصون المسألة ببرود، في أن من يريدون أن يزعزعوا حقا مجتمعا قائما يجب أن يصوغوا نظرية تفسر هذا المجتمع بعمق؛ أو يكون لها على الأقل كل مظهر إعطاء تفسير مُرضٍ. ومنذ أن تصبح هذه النظرية منتشرة بعض الشيء، بشرط أن تفعل ذلك في مواجهات تعكر الهدوء العام، وحتى قبل أن تصبح مفهومة على وجه الدقة، فسوف يتفاقم، ويحتدم، السخط المعلق في كل مكان، بمجرد المعرفة الغائمة بوجود إدانة نظرية لنظام الأشياء. وبعدها، بالشروع بحنق في شن حرب الحرية، يستطيع كل البروليتاريين أن يصبحوا إستراتيجيين stratèges.

لا شك أن نظرية عامة محسوبة لهذه الغاية يجب أن تتجنب أولا أن تبدو على أنها نظرية واضحة الزيف؛ ومن ثم يجب ألا تتعرض لخطر أن تناقضها التطورات اللاحقة. لكن يجب كذلك أن تكون نظريةً مرفوضة تماماً. يجب أن تستطيع أن تعلن فساد ذات مركز العالم الموجود، في وجه الذهول الساخط لكل من يجدونه حسنا، باكتشافها لطبيعته الدقيقة. ونظرية الإستعراض تستجيب لهذين المطلبين.

الميزة الأولى لنظرية نقدية دقيقة هي أنها تجعل كل النظريات الأخرى تبدو مضحكة على الفور. هكذا، في عام ١٩٦٨، وفي الوقت الذي كانت فيه تيارات منظمة أخرى، داخل حركة النفي التي بدأ بواسطتها تحلل أشكال السيطرة لهذا العصر، تهرع للدفاع عن ذات تخلفها وطموحاتها الضيقة، ولا تملك أي منها كتابا في النظرية الحديثة، بل ولا تعترف بأي شيء حديث في السلطة الطبقية التي كان الأمر يتعلق بقلبها، كان المواقفيون قادرين على أن يضعوا في الصدارة النظرية الوحيدة لتمرد مايو الرهيب؛ والوحيدة التي أخذت في إعتبارها المظالم الجديدة الصارخة، التي لم يذكرها أحد. منذا الذي يبكي على الإجماع؟ لقد قتلناه. Cosa fatta capo ha. (١)

قبل ذلك بخمس عشرة سنة، في عام ١٩٥٢، قرر أربعة أو خمسة أشخاص من باريس لا يستحقون الكثير من الثناء، أن يبحثوا في تجاوز الفن. بدا، كنتيجة سعيدة لمسيرة جسورة على هذا الطريق، أن خطوط الدفاع القديمة التي صدت الهجمات السابقة للثورة الإجتماعية، قد أصبحت مجتاحة ومقلوبة. وهناك إكتشف المرء فرصة شن هجوم آخر. هذا التجاوز للفن، هو "الممر إلى الشمال - الغربي" لجغرافيا الحياة الحقة، الذي طال البحث عنه خلال أكثر من قرن، ولا سيما منذ الشعر الحديث الذي يدمر - ذاته. لكن المحاولات السابقة، التي ضاع خلالها الكثير من المستكشفين، لم تؤد مباشرة أبداً إلى مثل هذا المنظور. وربما يرجع ذلك إلى أنهم كان لا يزال أمامهم أشياء يجب تدميرها في الإقليم الفني القديم، وفي المقام الأول لأن راية الثورات بدا من قبل أنها في أيد أخرى، أكثر خبرة.

لكن هذه القضية لم تكن كذلك قد تكبدت هزيمة ساحقة على هذا النحو، ولا تركت ميدان المعركة خاليا تماما، مثلما في اللحظة التي أتينا نرص صفوفنا فيها. وأنا أعتقد أن تذكر هذه الظروف هو أفضل توضيح يمكن أن أقدمه لأفكار وأسلوب **مجتمع الإستعراض**. أما بالنسبة لهذا الأخير، إذا شاء المرء أن يقرأه جيدا، فسوف يرى أن الخمسة عشر عاما التي قضيتها في تأمل حطام الدولة، لم أنم ولم ألعب فيها.

ما من كلمة يجب تغييرها في هذا الكتاب الذي، باستثناء ثلاثة أو أربعة أخطاء مطبعية، لم يتم تصحيح أي شيء فيه عبر دستة إعادات الطبع التي شهدها في فرنسا. وأنا أغبط نفسي لكوني مثالا معاصرا بالغ الندرة لشخص كتب دون أن تكذّبه الأحداث على الفور، ولا مرة واحدة، ولا أقول مائة مرة ولا ألف مرة، مثل الآخرين. ولا شك في أن التأكيد الذي تلقاه كل أطروحاتي لا بد أن يستمر حتى نهاية القرن، وحتى إلى أبعد من ذلك. والسبب بسيط: فقد فهمت العوامل المؤسِّسة للإستعراض «في مجرى الحركة وبالتالي من جانبها العابر»، أي بالتبصر في مجموع الحركة التاريخية التي إستطاعت إقامة هذا النظام، والتي تبدأ الآن في حله. وعلى هذا المقياس، فإن الأحد عشر عاما المنصرمة منذ ١٩٦٧، والتي إستطعت فيها معرفة النزاعات عن قرب كاف، لم تكن سوى لحظة في التتابع الضروري لما كنت قد كتبته؛ ولو أنها إمتلأت، داخل الإستعراض ذاته، بظهور و استبدال ستة أو سبعة أجيال من المفكرين بعضها أكثر تحدداً عن البعض الآخر. وخلال هذا الزمن، لم يفعل الإستعراض سوى الإتحاد مع مفهومه على نحو أكثر دقة، ولم تفعل حركة نفيه الواقعية سوى التبعثر في الإمتداد وفي الكثافة.

كان من شأن المجتمع الإستعراضي، في الحقيقة، أن يضيف هو نفسه بضعة أشياء لم يكن هذا الكتاب، فيما أعتقد، في حاجة إليها: براهين وأمثلة أشد ثقلا وأشد إقناعا. فقد شهدنا التزييف يزداد وطأة ويهبط حتى إلى تصنيع أتفه الأشياء، مثل ضباب لزج يتراكم عند أدنى مستوى لكل وجود يومي. وشهدنا طموح السيطرة التقنية والبوليسية على البشر وعلى القوى الطبيعية إلى بلوغ المطلق، وصولا إلى جنون "التليماطيقا" (٢)، تلك السيطرة التي تتضخم أخطاؤها بنفس سرعة تضخُّم وسائلها. وشهدنا كذب الدولة يتطور في ذاته ولذاته، متناسيا تماما إرتباطه النزاعي مع الحقيقة ومع قابلية التصديق، إلى درجة أنه يمكن أن ينسى نفسه هو ذاته ويستبدل نفسه من ساعة إلى أخرى. وقد توفرت لإيطاليا الفرصة مؤخرا لتأمل هذه التقنية، بصدد إختطاف وقتل ألدو مورAldo Moro، عند أعلى نقطة بلغتها هذه التقنية على الإطلاق، والتي سيتم مع ذلك تجاوزها عن قريب، هنا أو في أي مكان آخر. فطبعة السلطات الإيطالية عن الحادث، التي عقَّدتها يدل أن تحسِّنها مائة لمسة تنقيح متعاقبة، والتي حمل كل المعلقين على عاتقهم واجب الإقرار بها علنا، لم تكن مجرد لحظة واحدة قابلة للتصديق. فلم يكن القصد منها أن تُصدَّق، بل أن تكون الوحيدة الموجودة في الواجهة؛ وأن تُنسى بعد ذلك، تماما مثل كتاب رديْ.

كانت تلك أوبرا خرافية ذات ألاعيب كبرى، يكون فيها الأبطال الإرهابيون المتحولون ثعالب كي يوقعوا فريستهم في الفخ، وأسودا كي لا يخشوا من أحد شيئا طوال الوقت الذي يحتجزونها فيه، وخرافا كي لا يستخلصوا من هذه الضربة أدنى شيء مزعج للنظام الذي يتظاهرون بتحديه. يقال لنا أنهم محظوظون لمواجهتهم أشد أجهزة الشرطة عجزا، وأنهم فضلاً عن ذلك قد تمكنوا دون عائق من إختراق أعلى دوائره. هذا التفسير ليس جدليا. لأن منظمة مثيرة للفتن تضع دوما عددا من أعضائها على إتصال مع أجهزة أمن الدولة، ما لم تكن قد أدخلتهم فيها قبل ذلك بعدد من السنين ليقوموا هناك بمهمتهم بولاء، حتى تسنح فرصة كبرى للإستفادة من ذلك، يجب أن تتوقّع أن يصبح متلاعبوها هم أنفسهم متلاعبا بهم في بعض الأحيان؛ ومن ثم ستحرم من هذا اليقين الأوليمبي بالإفلات من العقاب والذي يميز رئيس هيئة أركان "الألوية الحمراء". لكن الدولة الإيطالية تقول ما هو أفضل، مع الموافقة الإجماعية لمن يساندونها. لقد فكرت، تماما كأنها شخص آخر، في زرع عملاء من أجهزة مخابراتها داخل الشبكات الإرهابية السرية، حيث يكون من السهل عليهم بعد ذلك تأمين مهنة سريعة، وصولا إلى القيادة، وذلك أولا بإسقاط رؤسائهم، مثلما فعل، لحساب جهاز الأوخرانا القيصرية، مالينوفيسكى Malinovski الذى خدع الداهية لينين نفسه، أو آزيف(٣)Azev الذى، فور أن أصبح على رأس "المنظمة القتالية" للحزب الإشتراكى - الثورى، دفع الرئاسة إلى جعله يغتال بنفسه رئيس الوزراء ستوليبين Stolypine(٤). لكن صدفة وحيدة تعسة جاءت لتعوق النية الحسنة للدولة: فأجهزة مخابراتها كانت قد حلت لتوها. حتى الآن، لم يتم أبدا حل جهاز سرى مثل، على سبيل المثال، شحن ناقلة بترول عملاقة فى المياه الساحلية، أو شحن نسبة من الإنتاج الصناعى الحديث إلى سيفيزو Seveso(٥). فمع الإحتفاظ بأرشيفاته، ومرشديه، وضباطه العاملين، كان يغير اسمه ببساطة. وهكذا، فى إيطاليا، فإن الـ S. I. M. جهاز المخابرات العسكرية، التابع للنظام الفاشى، والشهير بعمليات تخريبه وإغتيالاته فى الخارج، تحول إلى الـ S. I. D. جهاز مخابرات الدفاع، فى ظل الديمقراطية المسيحية. وفضلاً عن ذلك، فعندما تمت برمجة جهاز كمبيوتر بنوع المذهب - النموذجى doctrine - robot لـ "الألوية الحمراء"، بكاريكاتور كئيب لما سيشتهر المرء بالتفكير فيه وعمله إذا طالب بإختفاء الدولة القائمة، فإن هفوة كمبيوتر - فمن الصحيح أيضا أن تلك الآلات تعتمد على لا وعى من يزودونها بالمعلومات - قد نسبت إلى المفهوم - الزائف الوحيد الذى تردده "الألوية الحمراء" آليا، نفس هذا الإختصار .S. I. M، ويعنى هذه المرة، "الجمعية الدولية للشركات متعددة الجنسية". هذا الـ S. I. D، "المغتسل بالدم الإيطالى"، لا بد أنه قد تم حله مؤخرا لأنه، كما تشهد الدولة **بعد إنقضاء الحدث** post festum، هو الذى، منذ ١٩٦٩، نفذ مباشرة، فى الأغلب لكن ليس دائما بالقنابل، تلك السلسلة الطويلة من المذابح التى كانت تُنسب، حسب الموسم، إلى الفوضويين، أو إلى الفاشيين - الجدد، أو إلى المواقفيين. والآن، بينما تقوم "الألوية الحمراء" بنفس العمل بالضبط، لكن على الأقل بكفاءة تنفيذية أرقى بكثير، فإنه بداهة لا يستطيع محاربتها؛ فقد تم حله. فى جهاز سرى جدير بهذا الاسم، يكون الحل نفسه سريا. ومن ثم لا يستطيع المرء تمييز أى نسبة من العاملين قد سمح لها بالتقاعد المشرف؛ وأى نسبة أخرى تم تخصيصها لـ "الألوية الحمراء"،

أو ربما تمت إعارتها لشاه إيران لإحراق دار سينما في عبدان؛ وأي نسبة أخرى تمت إباداتها بتكتم من جانب دولة ربما شعرت بالإهانة حين علمت أنه قد تم في بعض الأحيان تخطى حدود تعليماتها، ويقال عنها أنها لن تتردد أبدا في قتل أبناء بروتس لفرض إحترام قوانينها، بعد أن قدم رفضها المتعنت لمواجهة ولو أدنى تنازل لإنقاذ مورو البرهان أخيرا على أنها تتمتع بكل الفضائل الحازمة لروما الجمهورية.

إن جورچيو بوكا Giorgio Bocca، الذى يعد أفضل محلل للصحافة الإيطالية، والذى كان عام ١٩٧٥ أول ضحية مخدوعة لـ **التقرير الصادق بقلم رقيب**، وسرعان ما جرجر إلى خطئه الأمة كلها، أو على الأقل الفئة المؤهلة التى تكتب فى الصحف، لم يثبط من عزيمته المهنية هذا العرض المزعج لحماقته. وربما يكون أمرا طيبا بالنسبة له أن تكون هذه الحماقة قد ثبتت عندئذ بواسطة تجريب علمى تماما لأنه، لو لم يكن الأمر كذلك، فسوف يكون المرء متأكدا تماما أنه بدافع فساد الذمة، أو بدافع الخوف، قد كتب فى مايو ١٩٧٨ كتابه **مورو - مأساة إيطالية** Moro - Una tragedia italiana، وفيه يسارع إلى إبتلاع التضليلات الشائعة دون أن يفقد أية واحدة منها، وإلى إعادة تقيوئها على الفور معلنا أنها ممتازة. ولنضرب مثلا واحدا، إذ أنه مدفوع إلى إستحضار محور المسألة، لكن مقلوبة كما هو مفهوم، حين يكتب كما يلى «اليوم، تغيرت الأمور؛ فمع وجود الإرهاب الأحمر وراءها، تستطيع الشرائح العمالية المتطرفة معارضة أو محاولة معارضة السياسة النقابية. ومن شارك فى إجتماع عمالى فى مصنع مثل ألفا روميو داريزى Alfa Romero d'Arese إستطاع أن يرى كيف أن جماعة المتطرفين، التى لا تتعدى أكثر من مائة شخص، قادرة رغم ذلك على وضع نفسها فى الصف الأول وعلى الصياح باتهامات وشتائم يجب على الحزب الشيوعى أن يتحملها.» ليس ثمة ما هو أكثر طبيعية من أن يسب عمال تورينو الستالينيين؛ وهم يتمتعون بتأييد كل رفاقهم تقريبا، لأنهم يريدون القيام بثورة. ألا يعلمون، وقد هذبتهم خبرتهم الطويلة، أن الشرط الضرورى هو مطاردة الستالينيين خارج الإجتماعات؟ لأنهم لم يستطيعوا عمل ذلك أخفقت الثورة فى فرنسا عام ١٩٦٨، وفى البرتغال عام ١٩٧٥. والأمر الأخرق والكريه، هو الزعم بأن «هذه الشرائح العمالية المتطرفة» يمكنها الوصول إلى هذه الحالة الضرورية لأنها تملك "وراءها" إرهابيين. وعلى النقيض تماما، فلأن عددا ضخما من العمال الإيطاليين قد أفلتوا من تأطير البوليس النقابى - الستالينى، تم تشغيل"الألوية الحمراء"، التى لا يمكن لإرهابها اللامنطقى والأعمى إلا أن يعوقهم؛ وقد اغتنمت **وسائل الإعلام** الفرصة للإعتراف دون ظل من الشك بإنفصالهم المتطور، وزعمائهم المقلقين. يلمح بوكا إلى أن الستالينيين مرغمون على تحمل الشتائم، التى إستحقوها عن جدارة فى كل مكان منذ ستين عاما، لأنهم سيكونون مهددين جسمانيا من جانب إرهابيين سيكونون فى الإحتياط لدى الإستقلال الذاتى العمالى. وليس هذا سوى إفتراء بوكاوى boccasserie قذر بوجه خاص لأن لا أحد يجهل أنه حتى هذا التاريخ، وفيما وراءه بكثير، ظلت"الألوية الحمراء" ممتنعة تماما عن مهاجمة الستالينيين شخصيا. ومهما أرادت أن تتظاهر بذلك، فإنها لا تختار فترات نشاطها عشوائيا، ولا ضحاياها وفق ما يروق لها. وفى مثل هذا المناخ، يقر المرء حتما بإتساع فئة

هامشية من الإرهاب الصغير المخلص، تتم مراقبتها بدرجة أو بأخرى، ويجرى تحملها لحظيا ، مثل حوض سمك يستطيع المرء دائما أن يصطاد منه حسب الطلب بعض المذنبين لعرضهم على خشبة المسرح؛ لكن "القوة الضاربة" للتدخلات المركزية لا يمكن أن تكون قد تشكلت إلا من محترفين؛ وهو ما يؤكده كل تفصيل من تفاصيل أسلوب هذه العمليات.

الرأسمالية الإيطالية. ومعها مسئولوها الحكوميون، منقسمة بشدة حول المسألة الحيوية فعلا وغير المؤكدة على الإطلاق، لاستخدام الستالينيين. فبعض القطاعات الحديثة من الرأسمال الخاص الكبير تؤيد أو كانت تؤيد ذلك بقوة؛ وهناك آخرون، يساندهم الكثيرون من مديرى رأس المال فى الشركات شبه ـ التابعة للدولة، أشد عداء لذلك. ويتمتع كبار مسئولي الدولة باستقلال ذاتي كبير للمناورة، لأن قرارات القبطان تحظى بالأولوية على قرارات صاحب السفينة حين تغرق هذه الأخيرة، لكنه هو نفسه منقسم ومصير كل عصبة يعتمد على الطريقة التى ستعرف كيف تفرض بها أسبابها، وذلك بإثباتها فى الممارسة. كان مورو يؤمن بـ "المصالحة التاريخية"، أي بقدرة الستالينيين على أن يحطموا فى النهاية حركة العمال الثوريين. لكن إتجاها آخر، هو فى هذه اللحظة فى موقع إصدار الأوامر لمن يسيطرون على "الألوية الحمراء" ، لم يؤمن بذلك؛ أو على الأقل قدر أن الستالينيين، لا تنبغى المبالغة فى مراعاتهم، بسبب الخدمات الضئيلة التى يمكن أن يقدموها، والتى سيقدمونها على أية حال، ويجب قرعهم بقسوة أشد حتى لا يصبحوا مفرطى الوقاحة. وقد رأينا أن هذا التحليل لا يخلو من قيمة، فعند إختطاف مورو بمثابة مواجهة إفتتاحية لـ "المصالحة التاريخية" التى تم التصديق عليها أخيرا بإجراء برلماني، ظل الحزب الستاليني يتظاهر بالإعتقاد بإستقلال "الألوية الحمراء" . وتم إبقاء السجين على قيد الحياة وقتا كافيا دفع إلى الإعتقاد بإمكان إطالة إذلال وإرتباك أصدقائه، الذين توجب عليهم معاناة الإبتزاز بالتظاهر بنبل بأنهم لا يفهمون ما ينتظره منهم همج مجهولون. لكن الأمر إنتهى فور أن كشر الستالينيون عن أنيابهم، مشيرين علنا إلى مناورات غامضة؛ ومات مورو مخدوعا. وفى الواقع، فإن لـ "الألوية الحمراء" وظيفة أخرى، ذات إهتمام أعم، هى إرباك أو تلويث سمعة البروليتاريين الذين يقفون فعلا ضد الدولة، وربما تصفية بعض أشدهم خطورة يوما ما. هذه الوظيفة يوافق عليها الستالينيون، لأنها تساعدهم فى مهمتهم الثقيلة. أما الجانب الذى يضيرهم هم أنفسهم، فإنهم يحدون من تجاوزاته بتلميحات بكلمات غير مكشوفة علنا فى اللحظات الحاسمة، وبتهديدات دقيقة وزاعقة في مفاوضاتهم الحميمة الدائمة مع سلطة الدولة. وسلاحهم الرادع، هو أن بإمكانهم فجأة أن يقولوا كل ما يعرفونه عن "الألوية الحمراء" منذ بدايتها. لكن لا أحد يجهل أنهم لا يستطيعون إستخدام هذا السلاح دون تحطيم "المصالحة التاريخية"؛ وأنهم، من ثم، يودون بإخلاص أن يستطيعوا البقاء، متروين فى هذا الأمر قدر ترويهم بشأن مآثر جهاز مخابرات الدفاع S.I.D. بالمعنى المحدد، فى زمنه. فماذا سيكون من شأن الستالينيين، فى ثورة؟ وهكذا، يستمر دفعهم بخشونة، لكن ليس أكثر مما يجب. وحين، بعد عشرة أشهر من إختطاف مورو، صرعت نفس "الألوية الحمراء" التى لا تقهر، نقابيا ستالينيا لأول مرة، نشط الحزب المسمى شيوعيا على الفور، لكن على الأرضية الوحيدة للأشكال البروتوكولية، مهددا حُلفاءَه بأن يجبرهم من الآن فصاعدا على تحديده بأنه

حزب، من المؤكد أنه صادق وبناء دائما، لكنه سيأخذ جانب الأغلبية، ولن يعود على جانب ضمن الأغلبية.

كل إناء ينضح بما فيه، والستاليني سيكون دائما في بيئته في كل مكان يتنفس فيه المرء رائحة جريمة خفية للدولة. لماذا سيُستفز هؤلاء، من جو المناقشات في قمة الدولة الإيطالية، بالسكين في الكم والقنبلة تحت المنضدة؟ ألم تجر بنفس الأسلوب تسوية الخصومات بين، مثلا، خروتشوف وبريا Khrouchtchev et Béria، بين كادار وناجي Kadar et Nàgy، بين ماو ولين بياو Mao et Lin Piao؟ وفضلا عن ذلك، فإن زعماء الستالينية الإيطالية قد قاموا هم أنفسهم بدور السفاحين في شبابهم، زمن مصالحتهم التاريخية الأولى، حين أوكلت إليهم، مع غيرهم من موظفي "الكومنترن"، الثورة ـ المضادة في خدمة الجمهورية الديمقراطية الإسبانية، عام ١٩٣٧. كانت تلك إذن هي "ألويتهم الحمراء" الخاصة التي إختطفت أندريس نين* Andrés Nin(٦)، وقتلته في سجن سري آخر.

هذه الدلائل الحزينة، يعرفها كثير من الإيطاليين عن قرب شديد، وإنتبه إليها لتوهم آخرون أكثر عددا. لكنها لا تنشر في أي مكان، لأن هناك فريق تعوزه الوسائل لعمل ذلك، والفريق الآخر تعوزه الرغبة في ذلك. وعند هذه الدرجة من التحليل يكون لدى المرء ما يبرر الحديث عن سياسة "إستعراضية" للإرهاب، وليس، كما تُكرر بابتذال الرهافةُ الخانعة لكثير من الصحفيين أو الأساتذة، لأن الإرهابيين يتحركون أحيانا بدافع الرغبة في جعل الناس تتحدث عنهم. إن إيطاليا تلخص التناقضات الإجتماعية للعالم بأسره، وتسعى، بالطريقة المعروفة، إلى أن تدمج في بلد واحد التحالف القمعي المقدس للسلطة الطبقية، البورجوازية والبيروقراطية ـ الشمولية، التي أصبحت تعمل بالفعل بشكل مكشوف على وجه الأرض كلها، بالتضامن الإقتصادي والبوليسي لكل الدول، حتى ولو كان ذلك لا يجري، هناك أيضا، دون بعض النقاشات وعمليات تسوية الحسابات على الطريقة الإيطالية. ولكون إيطاليا في اللحظة الراهنة البلد الأكثر تقدما في الإنزلاق صوب الثورة البروليتارية، فإنها كذلك المختبر الأشد حداثة للثورة ـ المضادة الدولية. والحكومات الأخرى المنبثقة عن الديمقراطية البورجوازية القديمة قبل ـ الإستعراضية تنظر بإعجاب إلى الحكومة الإيطالية، بسبب برود الأعصاب الذي تعرف كيف تحافظ عليه في المحور المؤار لكل المهانات، وبسبب الكبرياء الهادئ الذي تتربع به في الطين. إنه درس سيكون على هذه الحكومات أن تطبقه في بلدانها خلال فترة طويلة.

وفي الحقيقة، فإن الحكومات، والكفاءات الخاضعة العديدة التي تساعدها، تميل إلى أن تصبح أكثر تواضعا في كل مكان. فقد أصبحت تقنع بإضفاء طابع تصريف وديع وروتيني للأعمال الجارية على إدارتها، البهلوانية والمرعوبة، لسيرورة تزداد غرابة دون توقف ويتملك هذه الحكومات اليأس من السيطرة عليها. ومثل هذا الحكومات، التي هي طابع العصر الذي يحمل كل هذا، تم الوصول بالسلعة الإستعراضية إلى إنعكاس مذهل في نمط تبريرها الكاذب. فقد قدمت أشياء عادية ومبتذلة

تماما: مثل سيارة، أو حذاء، أو دكتوراة في السوسيولوچيا، بإعتبارها بضائع إستثنائية، بإعتبارها مفتاح وجود أرقى، وربما حتى نخبوى. وهي اليوم مجبرة على تقديم أشياء صارت بالفعل إستثنائية تماما على أنها عادية ومألوفة. هل هذا خبز، أو نبيذ، أو طماطم، أو بيض، أو منزل، أو مدينة؟ لا بالتأكيد، لأن سلسلة متتابعة من التحولات الداخلية، مفيدة إقتصاديا على المدى القصير لأولئك الذين يستحوذون على وسائل الإنتاج، قد أبقت على الاسم وعلى جزء كبير من المظهر، لكنها إنتزعت الذوق والمضمون. ورغم ذلك يجرى التأكيد على أن مختلف البضائع الإستهلاكية تستجيب دون جدال لمسمياتها التقليدية، وتقدم كبرهان على ذلك حقيقة أنه لم يعد يوجد سواها، وأنه لم تعد هناك من ثم مقارنة ممكنة. ومثلما تم في هذا الصدد جعل قلة قليلة من الناس تعرف أين تجد الأشياء الأصيلة حيث لا تزال توجد، فإن ما هو زائف يمكنه بشكل مشروع أن يستولى على اسم ما هو حقيقى مندثر. ونفس المبدأ الذى يحكم مأكل ومسكن الناس يمتد إلى كل شىء، حتى الكتب أو آخر تبديات سجال ديمقراطى يراد عرضه عليهم.

التناقض الجوهرى للسيطرة الإستعراضية المأزومة، هو أنها أخفقت فى النقطة التى كانت أقوى جوانبها، فى إشباعات مادية مسطحة معينة، كانت تستبعد إشباعات أخرى، لكنها كانت تعد كافية للحصول على التأييد المتواتر لجماهير المنتجين ـ المستهلكين. وهذا الإشباع المادى هو على وجه الدقة ما لوَّثته، وما كفت عن تقديمه. لقد بدأ مجتمع الإستعراض فى كل مكان فى الإرغام، والخداع، والدم؛ لكنه وعد بنهاية سعيدة. وقد إعتقد أنه محبوب. والآن، لم يعد يعد بشىء. لم يعد يقول أن: "مايتبدى جيد، وما هو جيد يتبدى." بل يقول ببساطة: "الأمر على هذا النحو." وهو يعترف صراحة بأنه لم يعد، فيما هو جوهرى، قابلا للإصلاح؛ ولو أن التغير هو طبيعته ذاتها، لتحويل كل شئ بعينه إلى الأسوأ. لقد فقد كل أوهامه العامة عن نفسه.

كل خبراء السلطة، وكل كمبيوتراتها، مجتمعون فى مشاورات متصلة متعددة التخصصات، إن لم يكن للعثور على وسيلة لشفاء المجتمع المريض، فعلى الأقل لإبقائه ريثما يمكن عمل ذلك، ولو فى غيبوبة متقدمة، محتفظاً بمظهر البقاء على قيد الحياة، مثلما فى حالة فرنكو أو بومدين. ثمة أغنية شعبية من توسكانا تختتم على نحو أسرع وأكثر حكمة كما يلى:

vita , - La can-(٧)“ E la vita non e la morte , - E la morte non e la zone e gia finita . “

إن من سيقرأ هذا الكتاب بإمعان سيرى أنه لا يقدم أى نوع من التأكيدات بشأن إنتصار الثورة، ولا بشأن مدة عملياتها، ولا بشأن الدروب الوعرة التى سيكون عليها أن تقطعها، ناهيك عن قدرتها، التى يجرى التبجح بها بخفة أحياناً، على أن تجلب لكل فرد السعادة التامة. أقل من أى مفهوم آخر، فإن مفهومى، الذى هو تاريخى واستراتيجى، لا يمكنه إعتبار أن الحياة يجب، لسبب

وحيد هو أن ذلك سيرقنا ، أن تكون أنشودة رعوية دون عناء ودون شر ؛ ولا أن إساءات بضعة مالكين وزعماء لا تخلق سوى تعاسة عدد أكبر بكثير . فكل واحد هو إبن أعماله ،ومثلما تعد السلبية فراشها ، فإنها ترقد فيه . إن أكبر نتيجة للتحلل الكارثي للمجتمع الطبقي ، هي أننا ، لأول مرة في التاريخ ، نجد أن المشكلة القديمة لمعرفة ما إذا كان البشر ، في مجموعهم ، يحبون الحرية حقاً ، قد تم تجاوزها : فالآن سيتم إجبارهم على حبها

من العدل الإعتراف بصعوبة وضخامة مهمات الثورة التي ستقيم وتحافظ على مجتمع بلا طبقات. ويمكنها أن تبدأ بسهولة تامة أينما ستقوم بإلغاء إنفصال الأفراد، والإقتصاد السلعي، والدولة. مجالس بروليتارية مستقلة ذاتيا، لا تعترف خارجها بأية سلطة أو ملكية لأي كائن كان. لكنها لن تنتصر إلا بأن تفرض نفسها كونيا، دون ترك أية نتفة من الحيز المكاني لأي شكل باقٍ من المجتمع المستلب. هنالك ستُرى من جديد أثينا أو فلورنسا لن يُطرد منها أحد، ممتدة حتى أقاصي العالم؛ وسوف يمكنها، بعد هزيمة كل أعدائها، أن تنكب بابتهاج على الإنقسامات الحقيقية وعلى المواجهات التي لا تنتهي للحياة التاريخية.

منذا الذي ما زال يمكنه الإيمان بسبيل أقل راديكالية في واقعيته؟ تحت كل نتيجة وتحت كل مشروع لحاضر تعيس ومثير للسخرية، يرى المرء منقوشا شعار(٨) «Mané, Thécel, Pharés» الذي يعلن السقوط المحتوم لكل مدن الوهم. إن أيام هذا المجتمع معدودة؛ وقد وُزنت أسبابه ومزاياه، ووُجدت ناقصة؛ وسكانه منقسمون إلى فريقين، يريد أحدهما إختفاءه.

(يناير ١٩٧٩.)

إشارات

** تعليقات

الأرقام تشير إلى المقاطع وليس إلى أرقام الصفحات

٦. توسيديديس : (٤٦٠؟ - ٤٠٠؟ ق. م.) مؤرخ أثيني يعتبر أعظم المؤرخين الإغريق.

٨ . omertà : بالعامية الإيطالية، تعني قانون الصمت الذي تلتزم به الأوساط القريبة من المافيا.

* P-2 : إختصار Propaganda-2 : جماعة سرية داخل محفل ماسوني شبه شرعي وظيفتها الدعاية للمحفل بهدف توسيعه . تضم مسئولين كبار في مواقع حساسة في الدولة (رجال الدولة والأحزاب والقضاء والجنرالات المسئولين عن الأمن والدفاع والشرطة) من بينهم مثلا برلوسكوني. إكتشفت في أوائل الثمانينات لكن المحكمة برأتهم على أساس أنهم لا يشكلون تجمعا إجراميا . والمترجم يشكر الفنان الصديق عادل السيوى على التفضل بتقديم هذه المعلومات.

٩ . بلانكي Blanqui (لوي أوجوست) (١٨٠٥ - ١٨٨١) :

منظر إشتراكي وثوري فرنسي بشكل مذهبه "الرابطة الضرورية بين الفكر الإشتراكي الفرنسي الأول وبين الماركسية". درس نظريات سان سيمون، وفورييه، وبابوف. شارك منذ ١٨٢٧ في الحركات الناهضة للملكية. وإبتداء من ١٨٣١، نظم جمعيات سرية (جمهورية ثم إشتراكية) وحاول تدبير عدة مؤامرات. قبض عليه عام ١٨٣١ ثم سجن عام ١٨٣٩ وأصبح عند الإفراج عنه (في ١٨٤٧) زعيم الحركة البروليتارية في باريس لكنه سجن عام ١٨٤٨ ثم عام ١٨٧٠ ولم يفرج عنه حتى ١٨٧٧. قرأ أعمال ماركس، وانتقد الشيوعية الطوباوية وطالب بالعمل الثوري.

* فارلان Varlin (أوجين) : ثوري فرنسي (١٨٣٩ - ١٨٧١) عامل تجليد. سكرتير الفرع الفرنسي للأممية الأولى عام ١٨٦٥. عضو اللجنة المركزية للحرس الوطني، حيث كان يمثل الجمعية العمالية. إنتخب في كوميونة باريس. أعدم بالرصاص من جانب حكومة فرساي، في ٢٨ مايو ١٨٧١.

* دوروتي Durruti (بوينابنتورا إي دومينجو) (١٨٩٦ - ١٩٣٦) : عضو في الإتحاد العام للعمال ثم في الإتحاد القومي للعمل (١٩١٧). إكتشف النظريات الفوضوية وساهم في تأسيس المجموعة الفوضوية **Los Solidarios** في برشلونة (١٩٢٢). نفي في ١٩٢٣ وعاد إلى إسبانيا بعد عودة الجمهورية (١٩٣١) وشارك في كل الصراعات

الإجتماعية. تزعم الجبهة الليبرتارية لإقليم أراجون. إستدعته اللجنة المركزية للميليشيا إلى مدريد للنضال ضد هجوم فرنكو. قتل في نوفمبر ١٩٣٦.

١٤ ـ المقصود بالشخص الآخر نابوليون بونابرت في معركة ووترلو. وكان جروشي (إمانويل دي) مارشال فرنسا قد كلف عشية المعركة بمطاردة البروسيين المهزومين في ليني لكنه تركهم ينضمون إلى الإنجليز، رغم أنه بتردده بقي بعيدا عن المعركة وتخلف عن نجدة نابوليون. أما الجنرال البروسي بلوشر (جبهارد ـ ليبريشت) فبعد أن هزمه نابوليون في ليني إستطاع نجدة ويللنجتون في ووترلو وبذلك حسم مسار المعركة.

١٨ ـ GAL : مجموعات التحرير المناهضة ـ للإرهاب : جماعات مسلحة نظمتها الحكومة الإسبانية لإغتيال أعضاء منظمة إيتا الباسكية الإنفصالية.

* نهرا أخيرون وليثي : في الميثولوجيا الإغريقية. أخيرون نهر في الجحيم لا يستطيع أحد عبوره مرتين واسمه مرادف للجحيم. وليثي من أنهار الجحيم، يعني اسمه النسيان. وتشرب منه ظلال البشر لتنسى الماضي تماما.

* تيخيرو Tejero (أنطونيو) : جنرال إسباني إقتحم بجنوده البرلمان الإسباني في عام ١٩٨٠ في محاولة إنقلاب تم إحباطها.

٢٤ ـ disc - jokey : خيالة الإسطوانات : الأشخاص الذين يتولون إختيار وتشغيل الإسطوانات في المراقص والأماكن العامة.

٢٧ ـ الكونت دي لوتريامون هو اسم الشهرة لإيزيدور دوكاس (١٨٤٦ ـ ١٨٧٠) مؤلف أناشيد مالدورور الذي تأثر به الرمزيون والسورياليون. ودوما هو الكسندر دوما الأكبر (١٨٠٢ ـ ١٨٧٠) حقق شهرة في المسرح الرومانسي ثم الرواية (الكونت دي مونت كريستو، والفرسان الثلاثة إلخ) وكان أوجوست ماكيه Maquet بين الكثيرين الذين عاونوه في كتابة الروايات. وإركمان ـ شاتريان هو اسم الكتابة لإميل إركمان (١٨٢٢ ـ ١٨٩٩) والكسندر شاتريان (١٨٢٦ ـ ١٨٩٠) الكاتبين الفرنسيين اللذين إرتبطا منذ ١٨٤٧ وحتى ١٨٨٩، كتبا أعمالا وطنية تصف العادات الإلزاسية والأساطير المحلية القديمة، لكنهما كانا مناهضين للنزعة العسكرية وللأسطورة الإمبراطورية الفرنسية. ودوبنتون (لوي چان ـ ماري) هو عالم طبيعي فرنسي (١٧١٦ ـ ١٨٠٠) عاون في تحرير كتاب التاريخ الطبيعي من تأليف بوفون Buf-fon.

٣١ ـ بيتا عمر الخيام عن ترجمة أحمد الصافي النجفي.

** تصدير

الأرقام هنا تشير إلى أرقام الهوامش.

(١) cosa fatta capo ha : إيطالية. عبارة عامية تعني أنه ما دام أمر قد وقع فعلا فلابد أن وراءه شخص له نفوذ ـ المترجم مدين للصديق الفنان عادل السيوي بتفسير هذه العبارة.

(٢) التليماطيقا : علوم وأدوات الإتصال عن بعد.

(٣) آزيف (Azev). ي. ف : (١٨٦٩- ١٩١٨) : أحد مؤسسي الحزب الإشتراكي الثوري (روسيا) أصبح عميلاً للشرطة عام ١٨٩٢. أعد ونفذ عددا من أعمال الإرهاب ليكسب ثقة الحزب الإشتراكي الثوري. ومن جهة أخرى كان يشي بالأعضاء إلى الشرطة. تم فضحه عام ١٩٠٨.

(٤) ستوليبين (Stolypine) (بيوتر أركاديفيتش) : سياسي روسي (١٨٦٢-١٩١١) . أحد ملاك الأرض النبلاء. وزير الداخلية ورئيس الوزراء بعد حل مجلس الدوما الأول (١٩٠٦) . حاول تدعيم النظام شبه ـ الدستوري بإتخاذ إجراءات قاسية ضد الثوريين وبإدخال إصلاح زراعي يحبذ تحرير الفلاحين واستعمار سيبريا. إعتبرته المعارضة الليبرالية محافظا واعتبره النبلاء مفرطا في التقدمية، ووجد نفسه معزولا في مجلس الدوما الثالث. أغتيل في ١٤ سبتمبر ١٩١١ داخل مسرح في كييف، في وجود القيصر نيقولا الثاني على يد آزيف.

(٥) Seveso : بلدة في إقليم لومباردي يوجد فيها مصنع لإنتاج مبيد الحشائش هكسا كلوروفين. في عام ١٩٧٦، تسرب أحد النواتج الفرعية وكون سحابة لوثت المنطقة ونشأ عنها تشوه في المواليد.

(٦) أندريس نين Nin : (١٨٩٢-١٩٣٧) : مؤسس للحزب الشيوعي الإسباني وسكرتير أممية النقابات الحمراء (بروفينترن). ساند المعارضة اليسارية وطرد من الحزب في ١٩٢٧. تزعم المعارضة اليسارية الإسبانية حتى إندماجها مع كتلة العمال والفلاحين بزعامة خواكين ماورين ليشكلا حزب العمال للتوحيد الماركسي (البووم POUM) ١٩٣٥. تولى لفترة وجيزة وزارة العدل في حكومة قطالونيا. قبض عليه الستالينيون واغتالوه.

(٧) E la vita non è la morte, - E la morte non

è la vita - la canzone è già finità.

والحياة ليست الموت، ـ والموت ليس الحياة ـ لقد انتهت الأغنية فعلا. المترجم مدين للصديق الفنان عادل السيوي بترجمة هذه السطور.

(٨) معدود، موزون، مقسَّم : حسب التوراة كان بالتازار، ابن آخر ملوك بابل يتولي الدفاع عن المدينة أثناء حصار قورش، ملك الفرس، لها، وكان يثق في قوة أسوار واستحكامات المدينة فانغمس في مآدب باذخة لدفع ملل الحصار الطويل. وذات ليلة رأى يدا غامضة تخط علي الجدار باللهب هذه الكلمات الثلاث التي لم يفسرها له إلا النبي دانيال الذي قال أن الرب يخاطبه بها. معدود: تعني أن أيام حكم بالتازار معدودة. موزون: تعني أنه قد وضع في الميزان فوجد ناقصا جدا. مقسم: تعني أن مملكته ستقسم. وفي نفس الليلة سقطت المدينة في يد قورش وقتل بالتازار.

المحتويات